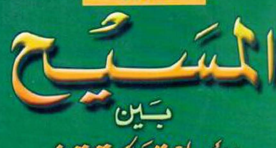
أ. كريفيليوف







تعريب / رامز نعيمة

المسيح

بين

الأسطورة و الحقيقة

الكتاب : المسيح بين الأسطورة و الحقيقة

الكاتب : أ . كر يفيليوف

ترجمة : رامز نعيمة

الطبعة الأولي / ٢٠٠٥

الناشر : الشعاع للنشر و التوزيع

٣شارع ٣٢٨ من شارع الجزائر المعادي

ت /٥١٦٣١٩٠

المدير المسؤل / عمرو بيومي

الغلاف : وليد سيد

رقم الايداع / ٢١٣٤٥ / ٢٠٠٤

المسيح

بين

الأسطورة و الحقيقة

تعريب : رامز نعيمة

بعض الملاحظات التمهيدية

على امتداد القرون العشرين الأخيرة بقي يتردد اسم يسوع المسيح باستمرار ودوى في التاريخ وفي حياة ملايين الناس. وتغلغل في كل ميادين الحياة الاجتماعية والشخصية. وباسمه اجترح الخير وارتكب الشر، اجترحت مآثر الرحمة وارتكبت أفعال لا حدود لقسوتها ووحشيتها. وقد استخدم هذا الاسم لتغطية وتقديس المصالح المغرضة لملاك العبيد وأصحاب الأقنان والرأسماليين والغزاة المستعمرين، ووجدت أحلام المضطهدين بمعاقبة المستعبدين، وبالنظام الاجتماعي المثالي وبالحياة الأفضل تعبيرها فيه أيضا. لقد تكونت صورة المسيح في ذاكرة الناس، في الذاكرة التاريخية لقرابة ألفين من السنين كشيء متعدد الوجوه ومتناقض.

ويبدو موقف الناس الذاتي من شخصية المسيح متباينا: من الخضوع والحب العميقين إلى الازدراء والكراهية. وبين هذين القطبين يقع الكثير من الحلقات الانتقالية. لن نأتي على ذكرها هنا، بل سنورد فقط مثالين على الأقوال المتعارضة أشد التعارض.

أن المسيح بالنسبة إلى أرنيست رينان شخصية ينبغي وضعها في " قمة لا تطالها" العظمة البشرية. وتحتوي مؤلفات مفكري التنوير الفرنسي على وصف للمسيح في غاية السلبية، لن نزن الآن درجة وجاهة هذين التقديرين. ما يهمنا في المرحلة الحالية من عرضنا هو مجرد تبيان مدى تنافرهما.

في بداية إعداد هذا القسم من الكتاب كان المؤلف ينوي أن يضع له هذا العنوان " شخصية المسيح في الذاكرة التاريخية على امتداد الفي سنة" ولكن اتضح سريعا أن كتاب

فصل كهذا على نحو متكامل أمر مستحيل: إذ لم يوجد يوما ولا يوجد الآن تصور واحد لشخصية يسوع يظهر في الوعي الاجتماعي وفي الأدبيات في كل الأزمنة، وحتى لدى كل الاتجاهات الأيديولوجية لزمن واحد بعينه. ولا توجد في عصرنا أيضا صورة واحدة للمسيح، بل توجد أشكال مختلفة جدا لهذه الصورة. ولذا سمى هذا الفصل من الكتاب " المسيح المتعدد الوجوه، وسيحاول المؤلف القاء الأضواء على بعض هذه الوجوه".

وهذه مهمة صعبة، لأن تناول تفسير شخصية المسيح نفسه هو متباين عند مختلف المفسرين: البعض يرون فيه ملامح إنسان قبل كل شيء، وآخرون شخصية ناسك ونبي، وغيرهم صورة شخصية سياسية وواعظ وفيلسوف، وهو عند البعض مجرد افراز لنتاج اسطوري، وبناء على هذا يأخذون كأساس لتحليلهم سمات تكمن في مجالات مختلفة، بحيث أن عرضهم يخلق إحساسا عاما بتنوع وتباين مفرطين. ولكن لا مفر من هذا، فذلك الإحساس يعبر عن اللوحة الفعلية للتصورات السائدة المرتبطة بشخصية مؤسس المسيحية الواقعي أو الوهمي.

نبدأ بالتعليم حول شخصية المسيح التي تعظ بها الكنيسة المسيحية.

(١) المسيح المتعدد الوجوه

الإنسان الرب ؟ (مسيح الكنيسة)

تستحيل عمليا الإحاطة بالمراجع اللاهوتية المكرسة لشخصية المسيح، وهي متنوعة من حيث مغزاها. ونجد فيها عددا كبيراً من مختلف التفسيرات المتناقضة في أحوال كثيرة. وهي لا تتطابق إلا في تقدير الدور التاريخي للمسيح باعتباره منشيء المسيحية ومؤسس الكنيسة.

يعتبر، بناء على تقليد العهد الجديد، إن المسيح جمع حوله في حياته مجموعة من الرسل والتلاميذ الذين توصلوا بعد وفاته بالنشاط الدعائي الدؤوب إلى نشر التعاليم الجديدة في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم اجتاحت المسيحية كل أوربا بالتدريج. وحرص مؤسس الكنيسة أيضا على خلف له بمثابة رئيس للكنيسة، وعين الرسول بطرس هذا الخلف، كما جاء في انجيل متى.

لتوضيح التفسير الكنسي لشخصية يسوع المسيح نفسها سنستخدم الوثيقة الرسمية الرئيسية للتعاليم المسيحية، قانون الإيمان (credo)، وكذلك بعض قرارات المجامع المسكونية فهي أيضاً وثائق رسمية للتعاليم المسيحية وتعتبرها الكنيسة حقائق لا تدحض.

ينبغي القول، لا للانتقاد، بل لتأكيد حقيقة لا تدحضى، أن التعاليم عن المسيح التى تعترف بها الكنيسة ضبابية جداً ولا تخضع إلا بصعوبة للصياغة المتتابعة المنطقية. وهذا، بالمناسبة، ما لا ينكره أيديولوجيو المسيحية أنفسهم. وغالبا ما يمكننا أن نرى في المؤلفات اللاهوتية إشارات إلى غموض وإبهام هذا العنصر أو ذاك من عناصر المسلمات المسيحية المرتبطة بالتعاليم حول شخصية مؤسس المسيحية. وفي هذه الحالات تعطى الصيغة التى

اصطلحت عليها الكنيسة فيقال أنه لما كان فهمها مستعصيا على العقل البشرى، فلا بد من الإيمان بها كحقيقة عليا ونهائية. وسنحاول إدراك فحوى التعاليم عن المسيح التى تذود عنها الكنيسة باعتبارها تعاليم حقيقية.

نبدأ بكيفية صياغة هذه التعاليم فى قانون الإيمان. ويسمى بالقانون النيقيو قسطنطينى، لأنه نوقش وأقر فى مجمعين مسكونيين كنسيين. مجمع نيقيا عام ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية عام ٣٨١. لقد أقر مجمع نيقيا بنود القانون السبعة الأولى، وأقر مجمع القسطنطينية البنود الخمسة الأخرى. ومع كل المناقشات الضارية الكثيرة التى هزت العقيدة وعلم اللاهوت المسيحيين على امتداد قرون، بقيت البنود الاثنا عشر لقانون الإيمان إلى الآن دعامة للمسيحية لا تسمح أية من الكنائس الأساسية بالتشكيك فيها.

فما الذى يقوله القانون عن يسوع المسيح ؟

إنه يشغل حيزا مركزيا فى هذه الوثيقة الأساسية للعقيدة المسيحية. من أصل اثنى عشر بندا كرست له ستة بنود (من الثانى إلى السابع). يطلب القانون الإيمان بالرب الواحد يسوع المسيح الذى يصفه بأنه المولود الوحيد من الأب الإله قبل كل العصور. ولكن تظهر هنا صعوبة معينة على الفهم: إذا كان المسيح مولودا، حتى ولو من الآلة، فإن هذا ينبغى أن يحدث فى لحظة معينة من الزمن، وإذا كان مولودا "قبل كل العصور"، لهذا يعنى أنه وجد دائما، وبالتالى لا يمكن أن يكون ولد فى وقت ما.

وهذا التناقض لاحظه الهرطوقى الشهير أريوس فى حينه. فقد انطلق من أنه إذا كان المسيح قد ولد فى لحظة ما، فهذا يعنى أنه ظهر من العدم، أى صنع وخلق. ومن هنا توصل أريوس إلى استنتاجات بعيدة المدى فى صدد مغزى المسيح كله: إذا خلق فليس ازليا، أى ليس إله، بل مجرد مخلوق من صنع الآله، وأن كان أكثر المخلوقات كما لا. وقد أدانت الكنيسة أراء أريوس باعتبارها أشد الهرطقات ضرراً.

يؤكد البند الثانى نفسه من القانون أن يسوع "نور من نور وإله حقيقى من إله حقيقى، مولود غير مخلوق، هو والأب من جوهر واحد... وهكذا، فإن الحديث يجرى عن إله.

يسوع المسيح إله ولده الإله الأب، وهو فى الوقت نفسه يشكل مع أبيه شيئا واحداً . وكان إنسانا أيضا، وهذا ما تتحدث عنه بنود القانون اللاحقة.

" من أجلنا، الناس، من أجل انقاذنا، هبط يسوع من السماوات وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول و "اتخذ صورة إنسان". وبعتبير آخر تجسد الرب المسيح مؤقت فى صورة إنسان وظهر فى الأرض فى شكل يسوع الإنسان. وقد فعل هذا بهدف إنقاذ البشرية الخاطئة والمعذبة.

أن رسالة الإنقاذ، التى تعهد بها المسيح، نفذها عن طريق التضحية بالذات: " طلب من أجلنا فى عهد بيلاطس البنطى وتعذب ودفن" . كانت تضحية للتكفير عن خطايا البشر. ولكن ليس الإله هو الذى تعذب وقتل، بل الإنسان الذى تجسد فيه الإله. ولم يقتل هذا الإنسان بصورة نهائية. يقول البند الخامس من القانون أن يسوع قام من اليوم الثالث بعد وفاته " كما جاء فى الكتاب" . ثم صعد إلى السماوات، كما يقول البند السادس، وجلس عن يمين الإله الأب. وفيما بعد، كما يقول البند السابع من القانون، سيظهر " ثانية" ويحكم بالمجد الأحياء والأموات. وفى هذه المرة لن يكون لملكوته نهاية.

وهكذا، فإن شخصية المسيح، من وجهة النظر الكنسية، شخصية مزدوجة: أنه إنسان إله يجسد العنصرين الإلهى والبشرى فى وقت واحد. وهو كأله يشكل الأقنون الثانى فى الثالوث، وهنا يكمن مغزاه الأزلى الخالد. أما شخصية يسوع البشرية فتبدو مؤقتة لا ترتبط إلا بثلاثة عقود من حياته الأرضية. ولكن يواجهنا هنا تعقيد آخر.

تعتبر الكنيسة العنصر البشرى فى يسوع دائما وازليا، شأن العنصر الإلهى، رغم أن هذا لا يتفق والاعتراف بولادته، أى واقع أنه " تجسد فى صورة إنسان" فى لحظة من الزمن. أن يسوع، وللحق يقال سيأتى فى المستقبل إلى الأرض من جديد، ولكن "بكل مجدة" فى هذه المرة، أى فى صورة الهية، لا بشرية. ولكن الكنيسة تتخذ موقفا يقول بأن " طبيعتى" المسيح مندمجتان فيه اندماجا لا ينفصم. بيد أنه تقترن بهذا على نحو لا يدرك موضوعة مفادها أن هاتين الطبيعتين متحدتان بشكل لا ينفصل ولا ينفصم، ولكنه اتحاد " غير مندمج" ...

لقد دخلت الكنيسة هذه المتاهة المنطقية بالتدريج، فى خلال الصراع ضد " الهرطقة" التى وجدت تعبيرها فى المجامع المسكونية.

فى أولها – مجمع نيقيا (عام ٣٢٥) كانت تعاليم أريوس هى موضوع الصراع. وفى المجمع الثالث – مجمع أفسس (عام ٤٣١) – تقدم نسطور بمفهومه لشخصية المسيح. وقال أن يسوع ليس إلها، بل مجرد حامل للالوهية، وقد سكن الإله فى طبيعته البشرية كما يسكن فى هيكل. واعتبر هذا هرطقة ما بعدها هرطقة. والمجمع التالى – مجمع خلقيدونية (عام ٤٥١) – تعرض لقضية على طرف نقيض من وجهة نظر نسطور. هناك تحدث أوطيخا الذى قال أن فى المسيح طبيعة واحدة فقط، الطبيعة الإلهية التى طغت على الطبيعة البشرية تماماً. وقد أطلق على هذه التعاليم اسم الطبيعة الواحدة، ولقيت بدورها إدانة حاسمة من المجمع. وفيما بعد ظهرت فى شكل وسط، هو المشيئة الواحدة، أى التعاليم القائلة بأن المسيح يحمل طبيعتين (إلهية وبشرية)، ولكن مشيئه واحدة: إلهية فقط.

وتابعت المجامع الثلاثة اللاحقة معالجة هذه المسألة والبحث عن حل لا يتطابق مع النسطورية، ولا مع الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة، لعل المحرك فى هذا الصراع حول الدقائق اللاهوتية لم يكن التطلع إلى إيجاد الحقيقة بقدر ما كان الميزان الفعلى بين مصالح وتأثيرات التجمعات المتصارعة: كان على الفئة الحاكمة فى كل لحظة أن تذود عن وجهة نظرها لترسخ بهذا وضعها كصاحبة ومعتنقة منزهة للحقيقة الأزلية. وكانت تتوقف على هذا مصالح مادية وسياسية واقعية تماما. فقد طرح ضد بعض الجماعات التى كانت النسطورية رايتها الأيديولوجية، مبدأ يقول بأن الطبيعتين متحدتان فى المسيح بشكل " لا ينفصل" و " لا ينفصم"، وكان لابد ضد القائلين بالطبيعة الواحدة من الذود عن المفهوم القائل أن الطبيعتين متحدتان " من غير اندماج" . واقتض الأمر الرضوخ لظهور خلل " خفى" فى نهاية المطاف.

أن العقيدة المسيحية احتفظت، إجمالا، على شكل مسلمة راسخة، بمبدأ يقول بأنه اتحدت فى شخصية المسيح " طبيعتان" مختلفتان ومشيئتان مختلفتان. ولا يبقى أمامنا، فى

ظل الانعدام المطلق لفهم هذا المبدأ، إلا أن نسجله وننتقل إلى متابعة عرض التعاليم الكنسية حول المسيح.

أن المسيح، كما جاء في قانون الإيمان، موجود الآن في السماء ويجلس منذ قرابة ألفي سنة عن يمين الإله الأب، منتظرا للحظة التي يجب أن يعود فيها إلى الأرض ليحاكم الأحياء والأموات. لقد قتل في الأرض كإنسان ضعيف، مسكين، وديع، وسيظهر " بكل مجده" كإله قدير وقيم على الكون.

فما هي الرسالة التي أداها المسيح زمن نشاطه في الأرض ؟ تقول تعاليم الكنيسة أن لهذه الرسالة ثلاثة جوانب. لقد برز في حياته الأرضية كنبي وأول قديس وملك.

أن أول هذه الوظائف مفهومة ولا تحتاج إلى شروح خاصة. لقد تنبأ الإنسان الرب بنهاية العالم الحتمية وبعودته الثانية المقبلة، وأنار الناس بحقائق العقيدة التي يبشر بها.

الأمر اعقد بالنسبة إلى الوظيفتين الآخريين.

كان الواجب الأساسي للقديسين اليهود الأوائل يتلخص في تقديم الضحايا إلى الإله تكفيرا عن ذنوب الناس. وقد نفذ القديس الأول يسوع هذه المهمة بطريقة جديدة، مغايرة بالمرة. أنه وهب نفسه بمثابة ضحية قدمت نيابة عن البشرية كلها دفعة واحدة. وبهذا كفر قبل كل شيء، عن الخطيئة الأولى لأدم وحواء وألف بين الناس والرب الذي كان في حالة نزاع معهم منذ زمن الوقوع في الخطيئة.

وهنا أيضا يوجد بعض الغموض في التعاليم المسيحية. هل تشمل تضحية المسيح التكفيرية أخطاء أدم وحواء فقط، أو تشمل كل الخطايا التي ارلكبتها البشرية في تاريخها اللاحق , هذه المسألة تتجنبها الأدبيات اللاهوتية عادة. إذا اعتبر أن خطيئة أدم وحواء هي أصل فساد البشرية الخلقي، فمن الواضح أن التكفير يزيل تلقائيا آثارها التي تجلت في الخطيئة الشاملة للبشرية. عندئذ يظهر هذا السؤال. لماذا لم تؤد الرسالة التي نفذها يسوع باعتباره القديس الأول إلى زوال الشر في الأرض الذي هو، حسب تعاليم الكنيسة، نتيجة للخطيئة الأولى؟ ويأتي الرد على هذا غامضا، وهو يقول بأن التكفير الذي قام به المسيح

ازال فقط اللعنة من الأرض ومخلوقات الإله، أما تحقيق الخلاص نفسه فلن يأتى إلا بعد العودة الثانية.

ويصعب أيضا فهم وظيفة المسيح الثالثة – الملكية – فى الأرض. إذا كان الحديث يجرى عن واجباته الكونية بمثابة أحد أقانيم الثالوث، فليس هناك ما هو مستعص على الفهم، فالاله هو ملك الكون. ولكن المقصود هنا هو نشاط المسيح على الأرض فى تجسده البشرى. يتضح أن المسيح حتى فى كينونته هذه، كإنسان مسكين، مطارد، معذب، بقى ملكا على أى حال، لا ملكا " يهوديا" ، كما تقول الأناجيل (لا يركز اللاهوتيون كثيرا على الجوهر "اليهودى" لملكيته"، بل ملك للبشر كلهم وللعالم كله.

إليكم كيف يصف اللاهوتى الشهير المطران ما كارى " الأعمال الرئيسية التى تجلت فيها الخدمة الملكية ليسوع المسيح" : أولا – المعجزات، وفيها " أظهر سلطته الملكية على الطبيعة باسرها، بما فى ذلك على الجحيم وعلى الموت. ثانيا – هبوطه إلى الجحيم وانتصاره على الجحيم. ثالثا – قيامته وانتصاره على الموت. رابعا – صعوده إلى السماء.. (١)

لعل النقطة الوحيدة التى تحتاج إلى شرح هى هبوطه إلى الجحيم، لأن القراء، كما هو مفروض، مطلعون بدرجة من الدرجات على المظاهر الأخرى للنشاط الملكى للمسيح. هذا العنصر للعقيدة المسيحية يقوم على النص التالى من رسالة الرسول بطرس الأولى.... فالمسيح نفسه مات مرة من أجل الخطايا...

مات بس من أجل فجار ليقربنا إلى الله. أميت موت الجسد ولكنه أحيى حياة الروح، فانطلق بهذه الروح يبشر الأرواح التى فى السجن (١٨/٣ – ١٩).

لقد بنيت على هذا النص فى الأدبيات اللاهوتية رواية مسهبة عن أن المسيح فى خلال تلك الأيام الثلاثة، حينما كان جسده مستلقيا فى الضريح ينتظر القيامة، قام برحلة إلى الجحيم، مع العلم أن روحه وحدها هى التى قامت بتلك الجولة. وهناك انتصر على الشيطان وأخرج من الجحيم كل اتقياء العهد القديم. وبهذا أظهر قوته وسلطته الملكيتين.

وهكذا تتشابك فى المواعظ الكنسية – المسيحية شخصية المعذب المطلوب وشخصية الملك السماوى، بل وحتى الدنيوى. فهو، من جهة، المسيح الذى تعذب وأمرانا بأن نتعذب، وهو، من الجهة الأخرى، الذى يدين الأحياء، والأموات، حاكم العالم الذى يصرع كل شيء فى اختلاج عظمته وقدرته. ولما كانت الكنيسة هى ممثلته فى الأرض، وحيث أنها تعمل بمثابة " الجسد الخفى للمسيح" وتعلم باسمه وبسلطته، فيجب أن تبرز فى المقام الأول ملامح عظمة المسيح وجبروته.

وهذا الاتجاه يتجلى بوضوح خاص فى تعاليم وممارسة الكنيسة الكاثولوليكية. أن بابوات روما يلقبون أنفسهم vicarius Christi أى ولاة المسيح أو نوابه فى الأرض. ويهمهم، طبعا، أ، ينوهوا بتلك الجوانب فى شخصية المسيح التى لا يبرز فيها كواعظ معدم وناسك غفور ووديع، بل كحاكم لا لافئدة الناس وعقولهم فقط، بل ولمصالحهم الدنيوية، وكمبدأ للقوة والسلطة أعلى من كل المراجع الدنيوية. ويدعى البابوات، باعتبارهم مندوبين مباشرين ليسوع المسيح فى الأرض، بأنهم يتمتعون بقوة فوق دنيوية، وبسلطة لا يطالها الشك.

فى زمن مضى لم يكن بابوات روما يدعون السلطة الملكية على كل العالم فحسب، بل كانوا أحيانا قريبين من امتلاكها. ولم يكن من النادر فى القرون الوسطى أن يجعل ولاة ملك الملوك الحكام الدنيويين لا روبا الغربية فى خضوع كامل لهم. وفى الوقت الحاضر لا مجال، طبعا، حتى لمجرد الحديث عن سيطرة الفاتيكان على هذه الدول أو تلك، حتى ولو كان أغلب سكانها من الكاثوليك المؤمنين. ولكن ادعاء الملكية، بقى قائما على أى حال: الفاتيكان موجود كدولة مستقلة، والبابا ملكها. وهذا الظرف يعلل أيديولوجيا بكون يسوع ، الذى أسس كنيسة روما بواسطة الرسول بطرس، لم يكن ملكا سماويا فحسب، بل كان ملكا دنيويا أيضا.

هذا الطرح استخدم على نحو مغاير بعض الشيء فى الكنيسة الأرثوذكسية: البيزنطية أولاً: ثم الروسية. فنتيجة لظروف تاريخية لم يكن عند الكنيسة الأرثوذكسية إمكان ادعاء التفوق على السلطة الدنيوية. وكانت نفسها على مدى قرون طويلة خاضعة للأباطرة

لبيزنطيين والقياصرة الروس. وفى ذلك الوضع كانت تبارك سيطرتهم، وتمجد الملوك لدنيويين كتجسيد وظل للملك السماوى، وهنا أيضا يؤدى يسوع المسيح دور هذا الملك لسماوى.

ولم يعد منذ بداية القرون الوسطى يصور فى شخصية انجيلية معدمة ومعذبة فحسب، ل وكملك على رأسه تاج وفى يده صولجان، أما الرسل والناس الآخرون المحيطون به يتصرفون بما يتفق تماما وقواعد السلوك المهيب المتبع فى البلاط البيزنطى. ويصور الكثير من الأيقونات المسيح إلى جانب هذا الإمبراطور الدنيوى أو ذاك، مع العلم أن " ملك لملوك" يبارك الملك الفعلى أو يضع التاج على رأسه. وأدخلت فى لقب. الأباطرة البيزنطيين، ومن ثم الروس تسمية " المخلص" التى تقابلها بالعبرية القديمة كملة " مشياح " وباليونانية " خريستوس".

إن رحمة ووداعة مسيح الإنجيل قد منيتا أيضا بخسارة جوهرية جداً فى التصوير الكنسى. فالكنيسة، الحاكمة الجبارة والرهيبة، سند العروش، ومنافستها أحياناً، صاحبة ملايين الأقنان فى القرون الوسطى، الجلادة القاسية لكل من له تفكير مغاير أو يميل إلى أقل مقاومة (ويكفى تذكر محاكم التفتيش)، كانت تعمل أيضا باسم المسيح. ولهذا لم يكن من الملائم والمجدى لها دائما أن تتحدث عن رحمة المسيح، أو عن عدم مقاومة الشر من باب أولى. كان أيديولوجيوها يتذكرون هذا حينما ينبغى حث المضطهدين والمستغلين الذين طفح كيل صبرهم على عدم المقاومة وعلى الرحمة.

لا تنبذ الكنيسة من سلاحها الأيديولوجي شخصية المسيح البسيط والفقير والمعذب والغفور والوديع والذى لا يلقى بالا إلى خيرات الدنيا. وحتى أنها تبرز هذه الشخصية فى المقام الأول إذ اقتضت الظروف. ولكن هذا على أى حال يجرى عند الضرورة، وفى المناسبات، أما المسيح الحاكم، أول الملوك فى الكون باسرة، الآمر الرهيب فيشغل منذ عهد بعيد حيزا مركزيا فى الأيديولوجيا والدعاية الكنسيتين.

أن التغير الذى أصاب المسيح فى ممارسة الكنيسة وأيديولوجيتها لم يكن مقبولا بالنسبة إلى الكثير من المؤمنين فى الماضى، كما أنه غير مقبول فى الحاضر.

فعلى امتداد ما يقرب الألفى سنة من وجود المسيحية ظهرت مرارا حركات اجتماعية موجهة ضد الكنيسة تحت شعار العودة إلى مسيح الإنجيل المعدم والوديع والرحيم والغفور. وهذا الشعار لم يغب أبدا من حيث الجوهر، ولا تزال أصداؤه مسموعة إلى وقتنا الراهن.

فى القرن الماضى وقف ضد الفهم الكنسى للمسيح عملاقا الحياة الروحية للبشرية، مثل الكاتبين الروسيين العظيمين فيودور دوستويفسكى وليف تولستوى.

تصير الحرية الداخلية ؟

(كما يراه ف. دوستويفسكي)

أعرب الكاتب عن أرائه باسطع ما يكون على ألسنة أبطال مؤلفاته. إن الأمير ميشكين لجذاب والنقى نقاء البلور فى رواية " الأبلة " يتهم الكنيسة الكاثوليكية بأنها شوهت صورة لمسيح. " فتعظ الكاثوليكية... بالمسيح المشوه وتعظ بمسيح معاكس هى نفسها افترت عليه شتمته ! إنها تعظ بنقيض المسيح ... (٢) ، وهكذا ، فإن مسيح الكنيسة هو نقيض المسيح ن حيث الجوهر.

والشيء نفسه يقوله شاتوف فى رواية " الشياطين" . أعلنت روما المسيح خاضعا لوسوسة لشيطان الثالثة و.... أبلغت العالم كله بأن المسيح لا يستطيع الثبات بلا مملكة دنيوية فى لأرض وبهذا أعلنت الكاثوليكية نقيض المسيح وقتلت العالم الغربى باسره". (٣) نعيد إلى لأذهان أن " الوسوسة" الثالثة" تتلخص كما يقول الأناجيل فى ما يلى: مضى أبليس يسوع إلى " جبل عال جداً، ومن هناك عرض " جميع ممالك الدنيا ومجدها" وعرض عليه ن يعطيه هذا كله إذا " خر ساجداً". وقد رفض يسوع هذا العرض بغضب. أما بالنسبة إلى مخصية رواية دوستويفسكى فيبدو الأمر على النحو التالى: الكنيسة تعظ بمسيح لم يصمد مام إغراء السلطة وباع نفسه لنقيض المسيح لقاء حساء من العدس.

يحدث إيفان كارامازوف فى رواية " الأخوة كارامازوف" شقيقه أليوشا عن قصيدة ألفها عول قاض محكمة التفتيش العظيم. فيها بطلان: قاض التفتيش والمسيح. (٤) الأول هو ناردينال الكنيسة الكاثوليكية، وراهب فى التسعين من العمر، ذكى وماجن، يتقد تعصبا، هذا التعصب، بالمناسبة، لا يعود إلى إيمانه بالله وبأبنه المطلوب، بل إلى أدراكه المتكبر

لعظمة الكنيسة ورسالتها كقائدة للبشرية. البطل الثانى. هو ابن الله الذى ظهر للناس بعد قيامته بخمسة عشر قرناً، أنه يسير بين الناس صامتا بابتسامة هادئة تعبر عن تعاطف لا نهاية له، وهو متواضع بلا حدود وعاجز تماما يفهم كل شىء ويصفح عن كل شىء. وعلى الرغم من أنه لا ينطق باية كلمة على امتداد القصيدة كلها ولا يقوم إلا بفعل واحد. يبعث فتاة ميتة فى السابعة من العمر، فى حين أن الكاردينا يتكلم كثيرا جداً وببلاغة، فإن بطل القصيدة الحقيقى هو الإنسان الرب على أى حال. تنكشف ف كلمات قاض التفتيش نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى شخصية المسيح كما يتصورها إيفان كارامازوف. يبرز المسيح هنا أمام القارئ فى صورة مبتكرة للغاية، والنظر فى هذا الفهم لشخصيته أمر ممتع ومفيد.

نذكر بأن الأمر يجرى فى مدينة أشبيلية الأسبانية فى القرن السادس عشر، فى إرهب أزمنة محاكم التفتيش، حينما كانت تشتعل النيران تمجيدا للرب فى البلاد يوميا. فى ذلك الوقت كان قد مضى خمسة عشر قرنا منذ أن أعطى المسيح وعدا بأن يأتى بكل سلطانه، خمسة عشر قرنا منذ أن كتب النبى سأعود قريبا... ولكن البشرية تنتظره بالإيمان و الحنان السابقين. وفى يوم عيد فى الصف ظهر فى ساحة أمام الكاتيدرالية. للشعب المتألم، المعذب، الخطىء، والذي كان يحبه مع ذلك. وعرفه الشعب، مع أنه ظهر بهدوء، وخفية، فاندفع إليه وأحاط به وتبعه.

ولكن يظهر قاض التفتيش العظيم. ويأمر الحرص على الفور بأخذ الإنسان الرب، وبلحظة خاطفة ينحنى الحشد كله كشخص واحد إلى الأرض أمام قاض التفتيش. وفى الليل يأتى الأخير إلى يسوع فى سجنه المنفرد وينهال عليه بسيل من اللوم والاتهامات. أن الباعث الرئيس للغضب الذى أبداه، قاضى التفتيش – الكاردينال يتلخص فى أقواله التالية. لماذا أتيت تضايقنا؟ لقد أعطيتنا، أعطيت الكنيسة، " حق العقد والحل، ولا تستطيع، طبعا، حتى مجرد التفكير فى انتزاع هذا الحق منا الآن". وإذا كان الأمر كذلك، فلا حاجة لنا إليك، لا بل أنت مضر لنا وخطر علينا إلى أقصى حد. وعلاوة على ذلك، فإن أول قدوم للمسيح، حينما تجسد الإله في صورة إنسان، كان مضرا للبشرية أيضا، حسب مغزى كلمة الاتهام التى ألقاها قاضى التفتيش العظيم.

ومن وجهة نظر الكاردينال، كان نشاط يسوع في الأرض ينبع من عدم فهم جوهر وطبيعة الإنسان، ذلك المخلوق الضعيف والغبي. يقول قاض التفتيش. "ثمة ثلاث قوى، ثلاث قوى وحيدة في الأرض قادرة على قهر واسر ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف من أجل سعادتهم، وهذه القوى هي: المعجزة والسر والنفوذ". وقد قيدت مجتمعة حرية الناس، وكان هذا لخير البشرية، لأنه " لم يكن هناك شيء " في يوم من الأيام أشد وطأة على الإنسان والمجتمع البشري من الحرية" و " لا يوجد اهتمام أكثر تواصلا واضنى على الإنسان من أن يبقى حرا ويبحث بسرعة عمن ينحني له". ولكن يسوع نفى هذه الأسس الثلاثة لحياة المجتمع التي تعطي الناس حرية تنقذهم من الحرية. واقتصر على دعوته إلى أن يتبعوه وأغراهم بأنهم يستطيعون، إذا وضعوا صورته فقط نحب أعينهم، أن يقروا بحرية مسألة ما هو خير وما هو شر.... وكان ذلك ويلاً.

اذاً رأى قاضي التفتيش الاتجاه الوخيم الذي يرتكبه يسوع في صراعه ضد المعجزة والسر والنفوذ؟ بالنسبة إلى الأخير الأمر واضح. لقد رفض نفوذ الفريسيين والكتبة، القديسين الأوائل والمشرعين اليهود. " أنتم سمعتم، وأنا أتكلم...." أما في خصوص السر، فإنه يمكن بالاعتماد عليه تعليم الناس " الخضوع الأعمى، حتى بما يخالف ضميرهم، أما يسوع فكان يستعين بقرار قلوبهم الحر على أساس الحب. وقد شهر كذلك بمفهوم المعجزة. لم يقبل مرتين التحدي باجتراح المعجزة، فلم يقذف نفسه من الصخرة حينما اقترح عليه الشيطان ذلك، ولم ينزل من الصليب، حينما تحداه الحشد المعادي بأن يفعل هذا!

في غضون السنوات الألف والخمسمائة المنصرفة قومت الكنيسة، كما يؤكد الكاردينال، الشر الذي اقترفه يسوع. " لقد قومنا مأثرتك وبنيناها على المعجزة والسر والنفوذ". أن الكنيسة بنت مأثرة يسوع الخاصة في نظر المؤمنين على أساس آخر تماما وتحالفت، متسترة باسمه، وبهيبته، مع نقيض المسيح، مع الشيطان. ويهتف الكاردينال: " اسمع، نحن لسنا معك، بل معه. نحن لسنا معك منذ زمن بعيد، بل معه منذ ثمانية قرون".

من أين ظهر هذا التوقيت الزمني؟ لماذا ثمانية قرون، لا خمسة عشر ؟ يبدو أن دوستويفسكي، أو على وجه الدقة، كارامازوف عند دوستويفسكي، لا يتحدث عن الكنيسة

المسيحية إجمالا، بل فرعها الكاثوليكى، أما وحدة المسيحية فهو يعتبرها معلقة منذ القرن الثامن، بعد المجمع الكنسى السابع الذى تنظر إليه الكنيسة الأرثوذكسية كآخر مجمع مسكونى. وبعده انشقت أسقفية روما، في رأيه، عن الشجرة المسيحية العامة وتصرفت على نحو مشبوه جداً، وليس من المستبعد أن تكون قد باعت نفسها للشرير، وطبيعى أن الكنيسة الكاثوليكية فسرت على النحو نفسه. موقف الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن لا يهمنا فى الحالة التى نحن فى صددها هذا الجانب من المسألة، بل المفهوم نفسه الذى دعا يسوع البشرية بناء عليه إلى الحرية، ملغيا بهذا ذلك الأساس للعقيدة الذى يعول على المعجزة والسر والنفوذ.

وهذا المفهوم ليس قائما على شىء من حيث الجوهر.

المعجزة؟ نعم، أن يسوع رفض اجتراح المعجزة مرتين فى الأناجيل. ولكن كم قام بمعجزات وصفتها تلك الأناجيل نفسها ؟ وكل النشاط العملى للمسيح ينحصر، من حيث الجوهر، إذا ضربنا صفحا عن الموعظة، فى معجزات الشفاء والبعث والأعاجيب عموما.

هل ألغى المسيح سر الإيمان ؟ كلا، على العكس، فكل مواعظه مفعمة بجو من الأسرار. أنه ابن الله، ابن الإنسان، المكلف برسالة خفية إلهية المغزى، وبالنسبة إلى الناس، وإلى المستمعين إلى يسوع يكتنف الضباب الكثيف منشأة، وكذلك مستقبلة ومستقبل اتباعه. أن المعلم، والحق يقال ، يتحدث كثيرا عن رسالته، وأنه سوف يتعذب ويقتل، ثم يقوم، وبعد ذلك يأتى بكل مجده، ولكن كل هذا غامض ومبهم، وتعبر عنه غالبا أمثال واستعارات أخرى. وحينا يسأل الرسل يسوع لماذا يتحدث بالأمثال، يفسر هذا بالعزوف عن كشف الأسرار أمام الشعب.

هل رفض يسوع الإشارة إلى أصحاب النفوذ ؟ كلا طبعا. إنه يشير بلا كلل فى الأناجيل إلى ما قبل الكتاب، إلى أعلى صاحب نفوذ يمكن أن يوجد، إلى الأب الذى يعرفه، أما هم، المستمعون، فلا يعرفونه. وإذ يضف يسوع إلى وصايا العهد القديم وصايا جديدة أو حتى يعارضها بهذه الوصايا، يصر فى الوقت نفسه على أنه ينبغى تنفيذ " القانون" مهما كلف الأمر

وعدم تجاوزه قيد أنملة" كلا، أن يسوع لم يتناول رقية النفوذ بعدمية، كما يصور الأمر قاض التفتيش فى قصيدة إيفان كارامازوف.

صحيح أن الكنيسة المسيحية، لا الكاثوليكية وحدها، بل كل فروعها الآخر أيضا، قد ابتعدت فى أمور كثيرة جدا عن تعاليم المسيح المصاغة فى العهد الجديد. ولكن وصف شخصية يسوع وتعاليمه الوارد فى القصيدة عن قاض التفتيش العظيم لا يمكن أبدا اعتباره وصفا صحيحا من الناحية التاريخية.

أن دوستويفسكى يحمل الكنيسة الكاثوليكية جريرة تشويه وتبديل شخصية المسيح. لقد خانته فى السابق ولا تزال تخونه، كما أكد دوستويفسكى فى سبعينات وثمانينات القرن الماضى. وتنبأ الكاتب بأن هذه الخيانة المروعة للمسيحية ستكتسب فى المستقبل شكلا جديداً فى نشاط الكنيسة الكاثوليكية. وافترض أن الوعظ بالاشتراكية سيكون هذا الشكل بالذات.

لم يكن دوستويفسكى نصيرا للأفكار الاشتراكية. ولكنه بما كان يتمتع به من حس تاريخى تنبأ لها بمستقبل كبير. وأكد أن الكنيسة الكاثوليكية تتكيف بخبث شيطانى مع الوضع التاريخى وتتسلح بكل الأفكار التى تكتسب شعبية وسط الجماهير. وستتكيف مع فكرة الاشتراكية أيضا، وستقول للشعب " أن كل ما يعظ به الاشتراكيون قد وعظ به المسيح أيضا" ، وبهذا " تشوه وتخون المسيح مرة أخرى" لأن الاشتراكية ليست أبدا مثال المسيح. إذ أن " مهمتها تقرير مصير البشرية عن غير طريق المسيح، بل خارج الإله وخارج المسيح. (٥)

ويعزو المؤلف إلى الكنيسة الكاثوليكية حتى ظهور وانتشار الاشتراكية. لكونها شوهت " وخانت" المسيح، أثارت رد فعل على شكل المادية واللادينية، وبهذا ولدت الاشتراكية أيضا. هذا التأكيد الحافل بمفارقة لا تصدق ينبغى إيراده بالشكل الذى قاله دوستويفسكى نفسه: " إن كاثوليكية روما، التى باعت المسيح لقاء تملك دنيوى وجعلت البشرية تعرض عنها وكانت على هذا النحو السبب الرئيس للمادية واللادينية فى أوربا، هذه الكاثوليكية

هى التى ولدت طبعا الاشتراكية فى أوربا. (٦) أى أنه لن يصعب على الكاثوليكية فيما بعد أن تكيف صورة المسيح والمسيحية عمليا لو ليدتها.

لقد أدرك دوستويفسكى من بعض النواحى اتجاهات التطور المقبل، ففى أيامنا أصبحت الاشتراكية فعلا أشد قوة فكرية ومادية و جبروتا ونفوذا فى العالم. ولا مانع عند الكنيسة الكاثوليكية فى الواقع من مغازلة هذه القوة، مستخدمة وسائل وأساليب ديماغوجية اجتماعية ماهرة، ولكن من المستبعد، طبعا، أن يكون هناك ما يستحق المعالجة الجديدة في أراء دوستويفسكى النظرية حول دور الكنيسة الكاثوليكية فى ظهور الاشتراكية وفى مصيرها التاريخى المقبل.

أن الأفكار الرجعية، التى سيطرت على الكاتب العظيم فى الفترة الأخيرة من حياته فاعمته، قد مارست هنا التأثير بكل قوتها. وتجلت أيضا فى كونه عارض التشويه الكاثوليكى لصورة المسيح ببقاء هذه الصورة فى أيديولوجيا ومواعظ الكنيسة الأرثوذكسية. قال أليوشا كارامازوف لا يفان فى صدد القصيدة عن قاضى التفتيش العظيم. " لا وجود لهذا المفهوم فى الأرثوذكسية" . ثم يقول دوستويفسكى باسمه. " لقد بقية صورة المسيح المفقودة بكل بهاء" نقائها فى الأرثوذكسية. (٧) وكان هذا، فى رأى الكاتب، ممكنا تاريخيا، لأن الكنيسة الأرثوذكسية التى كانت تحت سلطة الدولة، لم يتوفر لها امكان الطمع فى السلطة الدنيوية و " التملك الدنيوى، ولهذا لم يبق لها إلا أن تركز على القيم الروحية. وأساس هذه القم يكون فى " اشتراكية روسية " بما تجسدة فى صورة المسيح. أما ما الذى تعنيه هذه " الاشتراكية" فعليا فأمر يصعب فهمه. وليس المقصود على أى حال تغييرا حاسما لحياة الناس نفسها، بل الحقيقة الإلهية الرحيمة، الداعية إلي التألف، الغفورة المتجلية فى تفكير وآراء الشيخ زوسيما وأليوشا كارامازوف وماكار أيفانوفيتش فى رواية " المراهق" ويجب أن تكمن فى أساس هذه " الحقيقة" صورة المسيح الضبابية جداً والمجردة للغاية.

ولن يكون من خطل الكلام هنا التنويه بأن دوستويفسكى، إذ يعارض الكنيسة الكاثوليكية بالأرثوذكسية من ناحية تفسيرهما لصورة المسيح، يغمض العين عن الكثير من الوقائع التاريخية التى تبين أن الفرق ليس كبيرا بين الكنيستين سواء فى ممارستهما ا نملية

أو في مضمون مواعظها. وقد مارست الكنيسة الأرثوذكسية أيضا أعمال التفتيش، وأن كان ذلك بمقاييس أصغر، ولكن في الاتجاه نفسه مبدئيا. وإذا كانت الملكية الدنيوية بالمعنى الخاص لهذه الكلمة لم تكن في متناولها، فإن الممتلكات، ومن بينها الأراضي الشاسعة مع مئات الألوف من الأقنان، كانت تشكل على امتداد قرون عديدة الأساس الاقتصادي لجبروتها. وأنه لمعروف على نطاق واسع ذلك الدعم الايدولوجي و المادي الذي قدمته الكنيسة الأرثوذكسية دوما إلى مستغلي الشعب ومضطهديه الذين كانوا يفسرون شخصية المسيح مثلما كان يفسرها تقريبا المستغلون الغربيون الذين باعته الكنيسة الكاثوليكية لهم.

هذا الواقع رأته بوضوح شخصية عظيمة أخرى في الأدب الروسي، وهي ليف تولستوي. أن صورة المسيح تبدو عنده على نحو ملموس أكثر بكثير مما لدى دوستويفسكي، وهي، على أ حال، ملهومة تقريبا.

مثال الكمال الخلقى ؟

(كما يراه ل. تولستوى)

قبل بلوغ ليف تولستوى الخمسين من العمر كان يقف من شخصية يسوع المسيح كما يقف منها أغلب معاصريه وأقربائه وأصدقائه ومعارفه. ولم تكن عنده خلافات خاصة مع الكنيسة فى صدد هذه المسألة، وذلك إلى درجة كبيرة، لأنه، على ما يبدو، لم يفكر فيها على نحو خاص. ثم حلت فترة الشكوك القاسية والتفكير المضنى والمناقشات مع نفسه ومع المحيطين به. وعكف تولستوى على دراسة القضية بعمق، فطور معرفته باللغة اليونانية ليقرأ العهد الجديد بنصه الأصلى، ودرس الأدب الاهوتى المعاصر له وعددا كبيرا من الأبحاث التاريخية.

وأخيراً، نتيجة لهذا العمل الضخم، توصل الكاتب إلى حل للمسألة التى اعتبرها أهم وألح مسألة للإنسان، وهى معرفة من كان يسوع وماذا علم. وبقى تولستوى حتى موته (على امتداد ثلاثة عقود تقريبا) يعظ بفهمه للمسيح وللمسيحية فى العديد من المقالات والكتب والرسائل.

هذا الفهم كان يختلف بشدة عن الفهم الكنسى، وقد رفض الكاتب والمناضل بما عرف عنه من استقامة صارمة وإقدام جسور هيبة الكنيسة كمفسر للتعاليم المسيحية، وكمنظم للمجتمع اجمالا. وأعلن أن " المسيح لم يضع أبدا أية مقامات للكنيسة بالمغزى الذى يفهمه علم اللاهوت(٨).

وأكد تولستوى أن المحافظة على تعاليم المسيح بنقائها ووعظ الناس بهذه التعاليم لم يكونا يوما هدفا للكنيسة. " إن الكنيسة، هذه الكلمة كلها، عبارة عن تسمية للخداع يريد بعض الناس بواسطتها السيطرة على غيرهم. لا توجد ولا يمكن أن توجد كنيسة أخرى. وعلى ذلك الخداع بنيت تلك المسلمات البشعة التى تمسخ وتلغى التعاليم كلها. سواء أكان ذلك الوهيه يسوع أم روح القدس أم الثالوث أم العذراء أم الرب .... (٩) وكانت تفسر "الكتب المقدسة" دائما بالشكل الذى تراه مناسبا، لا حسب مغزاها الحقيقى.

لم يعتبر تولستوى هذه الكتب مقدسة بالفهم الكنسى لهذه الكلمة، فقد رأى، مثلا، تناقضها وتحدث عن " الكتابات المتضاربة بشكل غير معقول للتوراة والأناشيد والإنجيل والرسائل وأعمال الرسل، أى كل ما يعتبر الكتاب المقدس"(١٠). وأشار إلى تهافت الأسلوب المرعى لدى اللاهوتيين، وهو البحث عن المغزى الأقل تناقضا لنصوص الكتاب المتنافرة بشكل مطلق من حيث المغزى. ينبغى، فى أرى تولستوى، أن نقرأ الأناجيل بأنفسنا من غير وساطة كنسية ونستخلص منها تصورا صافيا، واضحا لشخصية المسيح ولتعايمه.

ولكن ما العمل حينما نقرأ الأناجيل فنصطدم فيها بعدد كبير من التناقضات والمواضع الخاطئة، وما العمل فى كونها " حافلة بالهفوات" ومفعمة بالغموض؟ لابد من الاعتراف بأن التصور المألوف لنا والقائل بأن الأناجيل جميعاً، الأربعة كلها، بكل آياتها وحروفها عبارة عن كتب مقدسة هو ضلال من جهة، وخداع فى غاية الفظاظة والضرر من الجهة الأخرى(١١). وليس فيها أى سر خاص مغلق على العقل البشرى. حتى ولو افترضنا أن يسوع إله نزل إلى الأرض، فإنه يستحيل حتى ف هذه الحالة تصور أنه كشف حقيقه للناس بهدف أن يخفيها من حيث الجوهر فى نصوص ضبابية إلى درجة الغموض أما إذا لم يكن يسوع إلها، بل إنسانا عظيما، فإن تعاليمه يمكن لها أن تولد خلافات أقل (١٢). وباختصار، ينبغى البحث عن مغزى مفهوم للتعاليم الإنجيلية.

ولكن فى الأناجيل على أى حال الكثير من الغموض والتناقض وهذا ما لا ينكره تولستوى. وهو يقدم نصيحة لتذليل هذه الصعوبة. ينبغى، كما يقول، تفسير المواضع الغامضة فى ضوء المواضع التى تبدو واضحة.

لا يجوز القول أن هذا الأسلوب لا غبار عليه من الناحية المنطقية. إذا كان هناك، مثلا، نصان يناقض أحدهما الآخر من حيث المغزى، فإن اعتبار أحدهما غامضا والآخر واضحا أمر ممكن باللجوء إلى قسط معين من الكيفية المنطقية. قد يبدو غامضا بالنسبة إلى ما قد يتراءى لغيرى فى غاية البساطة والوضوح، والعكس بالعكس. فعلى هذا بالذات يتوقف ما ينبغى اعتباره هاما وجوهريا وما ينبغى على العكس إخضاعه بشكل من الأشكال لهذا الهام والجوهرى.

إن نقطة الانطلاق هذه لكل مفهوم تولستوى تكشف عن ضعفها، ولاسيما أن المؤلف يرفض مسبقا البرهان على صواب وجهة نظره: "... لا مجال لوجود براهين على صحة تعاليمى. إنها النور. تعاليمى هى النور، ومن يراها يملك النور والحياة ولهذا لا مبرر للبرهان على شىء. ومن كان فى الظلام فيجب أن يأتى إلى النور" (١٣). هذا التناول للمسألة هو تناول ذاتى، طبعا. وسنرى فيما بعد أن تفسير شخصية المسيح وتعاليمه الذى يعطيه تولستوى على أساس هذا التناول للنصوص الإنجيلية ليس خاليا بالفعل من الذاتية والكيفية. أما الآن فلنعد إلى عرض وجهة نظره.

إن يسوع، بالنسبة إلى تولستوى، إنسان جيد وطيب جدا وذكى فهم لأول مرة في التاريخ كيف ينبغى أن يعيش الناس ليكونوا سعداء، وكان مرشدا لهم فى تعاليمه هذه الصحيحة بصورة مطلقة. وليس إلها أبداً. وهو لم يسم نفسه إلها أبداً، وقد تكلم عن نفسه باعتباره " ابن الإنسان" وعن الإله باعتباره الأب، ولكن ليس أبدا بالمغزى الذى تفسر به المسيحية الكنسية هذه الكلمات، لقد سمى المسيح الناس جميعا بمن فيهم نفسه أبناء الإنسان " إنه يعبر عن موقفه وموقف الناس جميعا من الله بموقف الابن من أبيه... وابن الإنسان هو ابن الله. وهو إذ تنبأ باتحاده فى الله بعد الموت، لم يكن يعنى أبدا صعوده إلى السماء وجلوسه " عن يمين اله" أبن الله إلا لأننى أنفذ مشيئته(١٤). الاتحاد هنا رمزى، بالروح لا بالمعنى الحرفى فكيف حولوا المسيح الإنسان إلى إله ؟

يعقب هذا جواب بسيط. الذنب كل الذنب يقع، من جهة، على " العامة" ذات" الفهم الفظ، ومن الجهة الأخرى، كان هناك دور للكنيسة التى بنت رفاهيتها وعللت طمعها فى

السلطة والغنى على التفسير المغلوط لشخصية المسيح. حينما " انضمت العامة إلى التعاليم الجديدة، قيل لها أن المسيح كان إنسانا إلهيا ومنحنا بموته شريعة الخلاص. ولكن " العامة تفهم أكثر شيء من التعاليم أنه إلهي وبالتالي إله، وأن موته منحنا الخلاص. ويصبح الفهم الفظ ملكا للعامة ويمسخ، وتتراجع كل التعاليم إلى الخلف تبرز الألوهية والموت المنقذ في المقام الأول... وهذا يناقض التعاليم نفسها، ولكن يوجد ناس، معلمون يتعهدون بالتوفيق بين كل هذا وشرحه...(١٥).

إن ما يعظ به هؤلاء المعلمون لا وجود له في الأناجيل، لا يوجد في تعاليم يسوع " أي تلميح " إلى أنه افتدى بدمه الجنس البشرى الذى مات في آدم، وأن الله ثالوث، وأنه لابد للإنقاذ من سبعة أسرار وأن القربان يجب أن يكون بنوعين وما شابه ذلك. وعلاوة على ذلك، حسب رأي تولستوي، فإن تجربه وقوع أدم في الخطيئة والحياة الأزلية في الجنة والروح الخالدة التي نفخها الله في آدم لم تكن معروفة للمسيح، وهو " لم يتحدث عنها ولم يلمح بكلمة واحدة إلى وجودها. (١٦). والأمر نفسه ينطبق على التعاليم حول انبعاث الأموات. لقد نفاه المسيح وتحدث عن " قيامة ابن الإنسان من الأموات، وهو لا يقصد قيامه الأموات الجسدية والشخصية بل استيقاظ الحياة في الرب(١٧). ولم يعترف المسيح أيضا بملكوت السماوات بمعنى وجود الناس بعد الموت. " إن الإيمان بحياة شخصية مقبلة هو تصور منخفض وفظ قائم على الخلط بين النوم والموت ومميز لكل الشعوب المتوحشة(١٨). وهو لا يمكن أن يكون ملازما للمسيحية وحدها، بل لليهودية أيضا. سيوجد ملكوت السماوات في الأرض، ولكن لا بمعنى الكلمة الخارق للطبيعة، بل بمعنى أن " الناس جميعا سيكونون أخوانا" وسيحل السلام الشامل وسوف ينعم كل الناس في خلال حياتهم الوحيدة في الأرض.

كان على تولستوي، في ظل هذا التناول العقلاني للقصص الإنجيلية عن المسيح، أن يرفض كل الأخبار عن المعجزات التي اجترحها هو وتلاميذه، وعن أعمال إبليس ومن بينها إغراءاته للمسيح، وأن يفسر أيضا على نحو جديد، مغاير لما تفعله الكنيسة، كل النصوص الإنجيلية التي تقوم عليها العبادة المسيحية والتي تتعارض مع آرائه إجمالاً. أنه يبدل

الجهود الكبيرة في هذا الاتجاه، ولكنها لا توفر له دوما إمكان بناء حجج مقنعة بما فيه الكفاية.

تسبب الأساطير الإنجيلية حول المعجزات صعوبات كبيرة لتولستوى. إنه ينكر الحبل والولادة بلا دنس والقيامة والصعود إلى السماء، شأن الكثير من الاخبار الانجيلية المماثلة. ويحاول أن يفسر بعضها وكأنما لم يكن هناك أى شىء خارق. فهو ينقل قصة إخماد يسوع للعاصفة في البحر على النحو التال: " أيقظوه (تلاميذه – أ. ك) وقالوا له : " يا معلم " أما تبالى أننا نهلك ؟ . وحينما هدأت العاصفة، قال : ما بالكم مضطربين ؟ أنتم لا تؤمنون بحياة الروح(١٩).

وفى الواقع جاء فى الإنجيل ما يلى: قام يسوع ... وزجر الريح وقال للبحر: " اصمت " اخرس " فسكنت الريح وعاد هدوء تام ... فاستولى عليهم خوف شديد وقال بعضهم لبعض. من ترى هذا حتى الريح والبحر يطيعانه ؟ (مرقس ، ٣٩/٤ – ٤١) وعلى هذا النحو تقريبا يعالج تولستوى قصة الإنجيل عن معجزة إشباع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وتصبح المعجزة قصة عادية تماما.

وعلى أى حال لا سبيل إلى التملص من واقع إن فى الأناجيل قصصا عن المعجزات فى كل خطوة. وبدون آية رغبة يعترف تولستوى بهذا، كما يعترف بأنه لا يوجد هناك أى قول ضد الإيمان بالمعجزات. ولا يجد مخرجا إلا بإعلان أن التعاليم بكل روحها تشير إلى أن يسوع لم يبين صدقها على المعجزات. لا يمكن القول أن هذا كان يبدو مقنعا. إذ أن الأناجيل تعتبر المعجزات التى اجترحها للمسيح البرهان الرئيسى على رسالته الإلهية، وتولستوى يصمت عن هذه المسألة تماما.

أن تفسير وساوس الشيطان للمسيح فى البرية أمر مميز جدا لكيفية محاولة تولستوى إزالة عنصر ما هو خارق فى سيرة يسرع.

التجربة الأولى: " وقال له صوت جسده (يلى ذلك استشهاد بمتى الفصل الرابع، ٢- ١ . ك.) ولكن يسوع قال لنفسه: إذا كنت لا أستطيع أن اصنع من الحجارة أرغفة، فهذا يعنى

أننى لست ابن الله بالجسد، بل ابنه بالروح، أنا لا أحيا بالخبز، بل الروح، وتستطيع روحى أن تزدرى الجسد.(٢٠). ولكن ما الذى يقوله فى الواقع الفصل الذى يستشهد به تولستوى عند متى؟ ثم سار الروح بيسوع إلى البرية ليجربه إبليس.... فدنا منه المحرب وقال له: إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارة لتصير أرغفة. فأجابه. مكتوب. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله. ليس صوت الجسد هو الذى جرب يسوع، بل أبليس بذاته!

التجربة الثانية: " وتصور أنه يجلس على سطح الهيكل، وصوت الجسد يقول له ... (لوقا، ٩/٤). ولكن يسوع قال لنفسه: أستطيع أن أستخف بالجسد، ولكن لا أستطيع أن انفصل عنه، لأننى ولدت روحا فى جسد". وقد جاء عند لوقا فى الموضع المشار إليه: " فمضى (إبليس – أ.ك.) به إلى أورشليم، وإقامة على شرفه الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله، فالق بنفسك من ههنا إلى الأسفل... فأجابه يسوع: قد قيل : لا تجرب الله ربك (لوقا، ٩/٤ - ١٢). وهذا، كما نرى مختلف تماما عما لدى تولستوى.

التجربة الثالثة (وهى الثانية فى إنجيل لوقا، وهكذا فإن تولستوى وضع إحداهما مكان الأخرى). " يعمل " صوت الجسد من جديد: " تراءت ليسوع كل ممالك الأرض وكل الناس وكيف يعيشون ويكدحون من أجل الجسد، منتظرين منه المكافأة (٢١). وقد جاء فى النصوص الإنجيلية فى هذا الخصوص. " فصعد به إبليس، وعرض عيه جميع مالك الأرض فى لحظة من الزمن، ثم قال: اجعل لك هذا السلطان كله ومجد هذه الممالك... فإن سجدت لي يعود إليك ذلك كله. فإجابة يسوع: مكتوب. اذهب يا شيطان" (لوقا، ٤/٥/ ٨) وورد هذا بالتعابير نفسها تقريبا عند متى، (٨/٤ – ١٠).

لم نقارن هنا بين عرض تولستوى وبين ما هو وارد فعلا فى الأناجيل لكى نثبت على الكاتب انعدام الدقة فى العرض وهو نفسه نوه مرارا بأن الأناجيل تحتوى الكثير " مما لا يقبله ومما استبعده. وأنه لأمر آخر كون أساليب الأبعاد وإحلال نص جديد مكان ما استبعده أمر لا يمكن أن يعتبر علميا ومؤديا إلى الكشف عن الحقيقة التاريخية الموضوعية. إذ نحصل عمليا على إنجيل ليف، لا أنجيل لوقا ومتى ......

وبهذه الأساليب نفسها ينكل تولستوى بتلك الأمثال التى ينجم عنها خلق لا يحظى بتعاطفه. أن المثل المشهور عن البدر (البدرة مكيال من الذهب والفضة)، الذى يفيد بأن على كل عبد أن يضاعف ثروة سيدة، يعدله تولستوى بحيث تصبح " روح الله فى الناس مكان النقود. وطبيعى أن مضاعفة روح. الله فى الناس هى من الناحية الخلقية هدف أنسب من جمع الفضة والذهب. ويتناول تولستوى بحذر تلك المواضع فى الأناجيل التى تتحدث عن تأسيس الكنيسة، وعن العالم الآخر وعن الثواب والجزاء فيه، وعن إقامة عبادة جديدة مع شعائرها.

ومن الطريف كيفية معالجة تولستوى لقصة الإنجيل عن العشاء الربانى وعن طقس المناولة الذى إقامة المسيح لتلاميذه هناك. وقد ورد هذا فى الأناجيل بشكل ملموس ومحدد. إنه، وقد وزع الخبز على الرسل، طلب منهم أن يأكلوه أن هذا جسده، وقدم إليهم النبيذ قائلا أن " هذا دمه، مع العلم أنه طلب منهم أن " يصنعوا هذا لذكره".

من المعروف أنه يقوم على هذه الأسطورة الإنجيلية سر المناولة المسيحى الذى يضطلع بإبراز دور فى العبادة كلها. ولكن تولستوى يعطيها تفسيرا مغايرا وبسيطا جدا. فالمسيح فى روايته، إذ يقدم الخبز والنبيذ إلى الرسل، يقول لهم : " تذكرونى وأنتم تتناولون النبيذ والخبز، تذكروا، إذ تأخذون النبيذ، دمى الذى يراق لكى تعيشوا بلا خطيئة، وتذكروا، إذ تأخذون الخبز، جسدى الذى أبدله من أجلكم(٢٢). مجرد ذكر، لا أكثر. ولكن حسب التعاليم الكنسية، حينما يبلغ المؤمن خبز القداس المغموس فى النبيذ الكنسى، فإن أعجوبة تجرى فى جسده على الفور: يتحول الخبز إلى جسد المسيح، والنبيذ إلى دمه. وقد وجد تولستوى ألدع الكلمات للسخرية من هذا الطقس، الذى سماه بطقس أكله لحم الإله.

أن الأمر الوحيد الذى أثار اهتمامه فى الأناجيل وفى المسيحية كلها هو التعاليم الخلقية التى يمكن استخلاصها منها كتب يقول: " بالنسبة إلى لا يكمن الأمر الرئيسي فى ما إذا كان يسوع المسيح إلها أو غير إله ومن أين أتت روح القدس وما شابه ذلك، ومما لا أهمية له ولا ضرورة على حد سواء معرفة متى ومن كتب هذا الإنجيل أو ذاك وأى مثال

يمكن أو لا يمكن أن يعزى إلى المسيح. يهمني ذلك النور الذى يضيء البشرية ١٨٠٠ سنة، والذى أضاء ويضيئني ... (٢٣). لا يسع المرء هنا إلا أن يعجب لتناقدين تفكير الفنان العبقرى. كان يعرف جيداً، ويفضح كثيرا بعنف وغضب كل الشناعة والقسوة اللتين ارتكبهما على امتداد هذه السنوات الألف والثمانمئة أناس اعتبروا أنفسهم متنورين بتعاليم المسيح. والنور الذى يضيء. لم يحسن عمليا خلق الناس ولا حياتهم بأدنى درجة من الدرجات، وتولستوى يعرف هذا جيدا. ولكن هذا الواعظ يغمض العين عن هذا الواقع الفائق الأهمية، والحاسم من حيث الجوهر.

يدعو تولستوى بحمية واندفاع إلى طريق الحياة وقوانين وقواعد السلوك الخلقى التى خلفها يسوع المسيح للبشرية، فى رأيه. ثمة هنا أيضا ما يضطر إلى إغفاله، وثمة ما يضطر إلى تفسيره على نحو ذاتى وكيفى. وبالنتيجة تبقى خمس وصايا يكفى تنفيذها لإنقاذ روح الإنسان تماماً، مع العلم أن تولستوى لا يفسر هذا الإنقاذ كخلاص من عذابات الجحيم، بل كشيء يكسب الإنسان الهدوء النفسى ومسرات الحياة. وهذه هى وصايا تولستوى الخمس ١) لا تغضب وعش بسلام مع الجميع. ٢) لا تنغمس فى شهوات الحياة. ٣) لا تحلف لأحد على شيء. ٤) لا تقاوم الشر، لا تحكم ولا تحاكم. ٥) لا تفرق بين مختلف الشعوب واحب الغرباء حبك لأهلك. (٢٤).

إن الوصية الرابعة هى أهم هذه الوصايا إذ كان تولستوى يرى فى تحريم مقاومة الشر النقطة الرئيسية لكل تعاليم المسيح ومركز هذه التعاليم. فهو، كما أكد الكاتب، يربط كل التعاليم فى وحدة متكاملة.... وهو مفتاح يفتح كل شيء. (٢٥). ففى أى وضع، ومهما كانت الظروف، إذا أرادوا أن يسببوا الشر لك أو لأسرتك أو لأولادك، أو حتى لأضعف وأعجز مخلوق، وليكن هذا الشر هجوما من لصوص أو كلب مسعور، فإن أكثر ما تستطيع أن تفعله هو أن تضع نفسك مكان الذى يتعرض للهجوم. وإذا عضك الكلب أو عض أولادك، أو إذا قام اللصوص بالنهب أو القتل، فلن تكون هناك أية مصيبة تذكر، المهم أنك لم تخالف وصية المسيح.

وهنا أيضا لا مفر لتولستوي من هذا الواقع العنيد، وهو إن أحدا في تاريخ البشرية لم يتبع هذه الوصية إلى الآن، بالرغم من أن الأناجيل تحظى بتبجيل فروع المسيحية كافة. هذه الموعظة لا تعمل ! وليس في وسع تولستوى إلا أن يعترف بهذا، وهو إجمالا، يشير بشكل صحيح إلى سبب عطالتها. أنها لا تستطيع أن تعمل إلا حينما " لا تكون قولا مأثورا، بل قاعدة إلزامية التنفيذ، حينما تكون قانونا". والمفتاح الذى يفتح كل شيء لا يفعل فعله إلا حينما يدخل هذا المفتاح في القفل. أما الاعتراف بهذا المبدأ كقول مأثور يستحيل تنفيذه بدون مساعدة حقيقية للطبيعة، فهو قضاء على هذه التعاليم(٢٦).

ولكن لابد لإدراك فحوى الأمر من طرح السؤال التالي: لماذا بقيت الدعوة الإنجيلية إلى عدم مقاومة الشر قولاً مأثوراً، ولم تصبح قانونا لسلوك الناس؟ هل يقع الذنب على عدم كمال الطبيعة البشرية ؟ ولكن هل هناك أسس لاعتبار أن هذه الطبيعة ستتطور في المستقبل إلى درجة تنتقل معها وصية يسوع، حتى وأن كانت تدعمها دعوات تولستوى، من ميدان الأقوال إلى الحياة نفسها ولا تبقى مجرد تمنيات خيرة ؟

لقد مضت سنوات ليست بالقليلة منذ أن أنبأ تولستوى البشرية بفهمه لتعاليم المسيح وبدعوته إلى تنفيذ هذه التعاليم. أما تحريم مقاومة الشر فبقى كما كان قولا إنجيليا مأثورا لا يحمله أحد على محمل الجد ولا يجعله قاعدة لسلوكه.

ويمكن قول الشيء نفسه تقريبا عن وصايا المسيح الأخرى التي صاغها تولستوى. ويرتبط تحريم الغضب ارتباطا وثيقا بتحريم مقاومة الشر. هنا يضايق تولستوى، والحق يقال، تحفظ واحد ورد في الإنجيل. جاء في النص " من غضب على أخيه بلا سبب استوجب القضاء" (متى ، ٥/٢٢). وإذا كان هناك سبب ؟ إذا تصرف " أخوك " تصرفا سيئا معك، ولم يكن غضبك عليه بلا سبب، بل كان له ما يبرره، فهل عندك حق في أ، تغضب ؟ كلا، أن تحريم الغضب، كما يؤكد تولستوى، ليس مشروطا بآية قيود أما تعبير " بلا سبب " فقد جاء في الأناجيل مصادفة، أو ربما وضعه الكنسيون السيئو النية الذين كانوا يسعون دوما إلى تشويه تعاليم المسيح.

مما يثير الانتباه ذلك المغزى الذى أسبغه تولستوى على الوصية التى تحرم اليمين. يقول أنه نفسه دهش أول الأمر لخلو هذه الوصية من التعليل. لماذا فى الواقع لا يدعم المرء كلامه باليمين، وما الخطيئة فى هذا ؟ أوليس غريبا أن يضع يسوع هذه الموعظة التى تبدو غير ذات بال وقليلة الأهمية إلى جانب المواعظ التى تمس أسس سلوك الإنسان ؟ ولكن بسبب تفسير صمويل وجد تولستوى التفسير الذى يبرر تماما المغزى الذى أسبغ عليها، فى رأيه. يتضح أن القضية ليست قضية يمين أبداً، بل قضية القسم الذى يؤديه للدولة اتباعها، ولاسيما الجنود. ويتساءل تولستوى: أ لم يحرم هنا القسم الذى يستحيل بدونه تقسيم الناس إلى دول، ويستحيل بدونه وجود شريحة العسكريين؟ إن الجنود هم الناس الذين يرتكبون كل أعمال العنف، وهم الذين يقبلون " القسم " لقد فسر تولستوى تحريم اليمين كنفى فوضوى للدولة ولواجبات الإنسان إزاءها. بهذا التفسير يكتسب تحريم اليمين مغزى مبدئيا جديا.

وهكذا، كان يسوع بالنسبة إلى تولستوى مجرد معلم للأخلاق وواعظ بها، مع العلم أن تولستوى لم يختر من بين كل إرشاداته الخلقية سوى تلك التى كانت تتطابق مع آرائه الخاصة. ولكن فى وصايا يسوع، وفى أعماله، كما تتحدث عنها الأناجيل، الكثير مما يتناقض مع الوصايا الخمس التى صاغها تولستوى ! وقد استخدم اللاهوتيون أيديولوجيو الكنائس المسيحية هذا الجانب فى صراعهم ضد التولستوية، ومما لا يخلو من الأهمية تفنيدها الوارد فى أقوال المطران اليكساندر فيدينسكى، الشخصية المعروفة للكنيسة المتجددة الأرثوذكسية. وسيكون هذا موضع بحثنا فى القسم التالى المكرس لتحليل النظرة إلى المسيح كمصلح اجتماعى ومتمرد.

الثوري المتمرد ؟

(كما يراه أ. فيدينسكي وكاوتسكي وآخرون)

إن تولستوى، كما وجد أ. فيدينسكي، قد شوه تماما شخصية يسوع المسيح، حيث صوره بمظهر من لا يقاوم الشر. وأعلن أنه " يستحيل تصور فرية أفظع من تلك التى يسم بها توسوى المسيح، ولهذا اعتبر المطران أن التولستوية عدوة للمسيحية أخطر من اللادينية بكثير، وصب جام سخريته على كيفية تصوير تولستوى لشخصية المسيح. " بطل بأسلوب غريتخين الألمانية، شعر كتاني، مفرق مسرح، الشعرة لصق الشعرة، ثياب بيضاء، زنبق ناصع ونظرة لا تلحظ كل أهوال المأساة الاجتماعية(٢٧) إلخ. أن المسيح يبدو لفيدينسكي فى مظهر مغاير بالمرة. كمقاتل صارم ورهيب، كقائد سياسى، كإنسان عمل وقوة.

فى أى اتجاه كان يوجه نشاطه هذا ؟ يجيب المطران : فى الاتجاه الثورى.

فقد كان نشاط المسيح ثوريا إلى درجة أن كل التاريخ اللاحق للحركة الثورية حتى أيامنا هذه هو، كما يقول، مجرد استمرار لنشاطه وتجسيد لتعاليمه. أما الماركسية فليست فى رأى فيدينسكي، إلا أنجيلا طبع بأحرف لادينية" وعبثا يحس اللادينيون على معارضة الدين عامة والمسيحية خاصة بالتعاليم الماركسية. إن تلك الأفكار التى تعارض بها الماركسية الآن المسيحية، مثل فكرتى الأخوة وانعدام الطبقات... وفكرة الدولة غير الطبقية والبشرية غير الطبقية والتسوكونفت" (المستقبل - أ.ك.) الذى تنتظرنا فيه حياة باهرة هى أفكار المسيح وتعاليمه عن الأخوة البشرية الشاملة.. (٢٨).

لم يكن فيدينسكي أول من قدر المسيح كثورى واشتراكى. فلهذا التفسير تاريخ كبير.

منذ القرون الوسطى كانت الحركات الهرطوقية المعادية للإقطاعية وللكنيسة فى أوربا الغربية تستمد الإلهام من شخصية المسيح المتمرد الذى يدعو الجماهير إلى التألب على الأغنياء وتدمير النظام الاجتماعى القائم على سلطتهم وإنشاء نظام جديد على أساس المساواة الشاملة، بما فى ذلك المساواة الاقتصادية. وهذا التفسير لشخصية المسيح وجد له الهراطقة مادة كافية تماماً، ولاسيما فى العهد الجديد.

فى الأناجيل لا يدعو المسيح إليه كل الناس، بل الكادحين والمتعبين وحدهم. ولا يثير الأغنياء أى تعاطف عنده. أو قد حذرهم مراراً : الويل لكم، أيها الأغنياء. ! وهذا ما تشهد عليه أيضا الأقوال المتكررة عن صعوبة أو استحالة دخول الأغنياء فى ملكوت السماوات (كما يستحيل دخول الجمل فى سم الإبرة) إن المثل الإنجيلى المعروف حول الغنى وعازر يعرب بالدرجة نفسها عن موقف المسيح المعادي للأغنياء. وفى الواقع، فإن عازر المسكين، الذى كان فى حياته منطرحا عند باب الغنى، يصبح بعد الموت فى أعلى درجات النعيم (فى أحضان إبراهيم) أما الغنى فقد غاص إلى الأبد فى أسفل دركات الجحيم، حيث يتعرض، طبعاً، لمعاملة تناسب ذلك المقام.

واضطلعت بدور لا يستهان به فى تقدير المسيح كنصير وزعيم للفقراء جوانب من سيرته، مثل تحدره من أسرة نجار ونمط حياته المتواضع للغاية ومقتله على الصليب فى مجتمع أناس بسطاء مثله. ثم أن المسيح لم يجند تلامذه له من الأغنياء، بل من صيادى السلمك الفقراء.

والبرنامج الذى تقدم به، حسب ما هو وارد فى الأناجيل، يبدو وكأنه دعوة إلى الأعمال الثورية الحاسمة ضد المضطهدين. فقد قال بصراحة أنه أتى ليجلب إلى الأرض السيف، لا السلام، وأمر تلاميذه أن يقتنوا سيوفا لا تلزم، طبعا، إلا للتحرك المسلح، وإذ كان المساهمون فى الحركات الهرطوقية يهجمون بالسلاح على أصحاب الأقنان الدنيويين والدينيين، اعتبروا أنهم يسيرون على أعقاب يسوع ويتبعون تعاليمه.

كان فى وسعهم، طبعا، أن يجدوا فى تلك الأناجيل نفسها دعوات مناقضة بهذا تماما. ولكن فى هذه الحالات يقرأ الشخص فى الغالب ما يريد قراءته وما يوافق مصالحه وأهواءه

ومصالح وأهواء الفئة الاجتماعية التى يعبر عن أمزجتها، ولم تكن الجماهير الثورية المفعمة بالورع المسيحى تميل إلى أن تقتبس من العهد الجديد الدعوات إلى عدم مقاومة الشر، بقدر ما كانت تميل إلى اقتباس الكراهية المتمردة إزاء الأغنياء.

فى أواسط القرن التاسع عشر ظهرت فى أوربا الغربية حركة " الاشتراكية المسيحية" التى يعتبر ف. لا مينى مؤسسا لها. وهو كاهن كاثوليكى خرج على الكنيسة فى أواخر حياته. وقد وعظ فى مؤلفاته العديدة بتعاليم مفادها أن جوهر المسيحية يتلخص فى الدعوة إلى إحلال المساواة بين الناس والحرية في علاقاتهم المتبادلة. وكل الجوانب الأخرى لتعاليم المسيح تخضع، كما كان يعتبر لا مينى، لهذه الفكرة الأساسية لإعادة بناء المجتمع علي مباديء العدل و المساوة و الحرية وكانت شخصية المسيح نفسها تبدو لهذا الداعى البليغ والمتحمس إلى الاشتراكية المسيحية تجسيدا لتلك المبادئ السامية.

لقد كانت الاشتراكية الطوباوية، فى شخص ممثليها كابتيين كاين وفيلهيلم فيتلينغ، مرتبطة أيضا بالتفسير " الثورى – الاشتراكى" لشخصية المسيح. فقد كتب أولهما متطرفا، مثلاً، إلى المطالبة بمشاعية الممتلكات. " كان خلق هذا الدين الجديد يستند إلى ... مشاعية الملكات... فقد أوصى يسوع المسيح تلاميذه بالدعوة إليها والوعظ بها فى أرجاء الأرض ثم وعظ رسل الإله الجديد بهذا الدين الجديد فى روما والامبراطورية الرومانية لكل أنصاره الجدد المتعددين. وفيما بعد أقام المسيحيون المشاعيات وجمهورية شاسعة تمتد فى كل أنحاء الإمبراطورية وتقوم على ممارسة المساواة والأخوة ومشاعية الممتلكات (٢٩) . وفى الواقع لم تكن هناك أية جمهورية كهذه تقوم على ممارسة المساواة إلخ. المهم فى هذا الصدد أمر واحد، وهو أن كابي اعتبر أن المسيح بالذات هو واضع برنامج مشاعية الممتلكات.

فى قصيدة " اثنا عشر يرمز أ. بلوك إلى الشعب الكادح الذى يناضل فى سبيل تحرره بمجموعة من الحرسة الحمر المنطلقين عبر " الريح، الريح فى دنيا الله الواسعة، لتنفيذ مهمة ثورية، ووضع على رأس هذه المجموعة يسوع المسيح نفسه:

في المقدمة – بالرامية الدامية،

تحجبه الرياح العاصفات

ولا تؤذيه الطلقات

رقيق الخطوات

ألق المجوهرات

بتاج ورد مليح

يسير يسوع المسيح

إن المراجع الرسمية لمختلف الكنائس المسيحية قاومت طويلاً وبعناد التفسير " الثورى " لشخصية يسوع، وأعرب الفاتيكان مرارا عن إدانته الحازمة لمن يوافق عليه ويؤيده. وهناك عدة وثائق فى هذا الخصوص يعود تاريخها حتى إلى ثلاثينات وأربعينات القرن الحالى. ومما له دلائله فى هذا الخصوص الكلمة الإذاعية التى ألقاها البابا بيوس الحادى عشر فى شباط (فبراير) عام ١٩٣١. فقد دعا فيها المضطَهدين والمضطهِدين إلى أن يقتدو بالمسيح مكثرون بتكديس الثورات الروحية. أما في خصوص الخيرات المادية، فإن يسوع، كما أكد ظل الله على الأرض، قد فوض " الأغنياء، أى أصحاب الرساميل، بحفظها وتوزيعها، ووعظ الفقراء، بأن يطيعوا، الحكام طاعتهم لله نفسه.

كانت الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا قبل ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى تدحض بالأصرار نفسه أية محاولات لإظهار أقل عناصر الثورية في شخصية المسيح وتعاليمه، وكان اللاهوتيون فى العديد من الكتب والكراريس والمقالات، وفى الدورات التى كان تقام لطلاب الأكاديميات الدينية يمارسون " فضح الاشتراكية" والقضاء على الهرطقة الضارة حول المسيح – الاشتراكى.

ومع ذلك، فمنذ أواخر القرن الماضى لم يعد التفسير "الثورى" لشخصية المسيح بالتدريج ينظر إليه حتى فى الأوساط الكنسية لمختلف الطوائف المسيحية كأمر مستحيل

بصورة مطلقة. وحتى أنه جاء فى قرار مؤتمر الكنيسة الإنكليكانية عام ١٨٨٤. أن الكثير مما هو جيد وصالب في الاشتراكية يمكن العثور عليه فى وصايا يسوع المسيح. إن المجاملات للاشتراكية كانت هنا أمرا اضطراريا، بالطبع، إذ لم يكن فى وسع شخصيات الكنيسة ألا تأخذ فى الحسبان نجاحات الأفكار الاشتراكية بين أوسع الجماهير الشعبية فى البلدان كافة. بيد أن من الطريف كون أيديولوجيى الكنيسة الإنكليكانية وجدوا من الضرورى فى هذا الوضع البحث عن جذور هذه الأفكار فى تعاليم يسوع المسيح.

فى المدة الأخيرة بقيت المراجع الكنسية الرسمية لكل الطوائف المسيحية، ومن بينها الفاتيكان، تعظ بمفاهيم الاشتراكية المسيحية. وهذا الأخير لا يجد غضاضة فى الإشارة إلى المنشأة " البروليتارى" ليسوع المسيح وحتى أنه يدعو إلى الاحتفال على شرف أبيه النجار بيوم الأول من أيار (مايو)، ولكن لا كيوم لتضامن الشغيلة الدولى، بل كمجرد عيد العمل. هذا مع العمل أنه توجد فى الأوساط الكنسية فى صدد مسائل التكتيك والتوجه السياسيين خلافات جدية، وبناء عليها تفسر شخصية المسيح بصورة متباينة. وينطوى على أهمية جوهرية فى غضون ذلك واقع أن الدوافع التى تسبغ وفقها الصفة الثورية على المسيح والمسيحية هى متباينة أيضا لدى مختلف مجموعات الشخصيات الكنسية والاجتماعية.

البعض ينطلق من أنه لا معنى لأن تبقى الكنيسة بصراحة فى المواقع السابقة للدفاع عن الرأسمالية بلا تحفظ فى الظروف المعاصرة حيث لم تعد الاشتراكية مجرد حركة وأيديولوجيا، بل قوة اقتصادية وسياسة دولية جبارة. وشخصية المسيح الاشتراكى هى بالنسبة إليهم حجة ضد الاشتراكية المعاصرة. ما لزوم كل هذا، كما يقولون. إذا كان المسيح قد وعظ منذ ألفى سنة بالاشتراكية "الأصيلة" الحقيقية التى لا يبقى الآن سوى تحقيقها فى الحياة باتباع تعاليم الإنسان الرب، لا تعاليم الماركسيين ؟

ولكن هذا السؤال يتشوش كثيراً لدى أول محاولة للنظر إليه فى ضوء الممارسة التاريخية. ومن الوقائع، فإنه يجرى منذ ألفى سنة تقريبا الوعظ بتعاليم المسيح. الاشتراكى. واعتناقها، ولكن حياة البشرية لم تتحسن نتيجة لهذا بأية درجة من الدرجات ! ولكن للرد على هذا الاعتراض تجند حجج كلامية يمكن بواسطتها إغراق جوهر الأمر فى عبارات

لاهوتية ضبابية وخلق انطباع بأن الصعوبة قد صفيت: أن الله يعول على الإرادة الحرة لمخلوقاته، والناس لم يفهموا إلى الآن تعاليم المسيح كما ينبغي، إلخ.

وبعض الشخصيات الأخرى، المقدمة، في عصرنا، ومن بينها شخصيات دينية، تسترشد بإخلاص بمصطلح النضال من أجل السلام وتطور الشعوب التقدمي، وهي تستخدم شخصية المسيح لهذه الأهداف بالذات، فتفسره بروح ثورية – اشتراكية وقد كانت الشخصية الاجتماعية الإنكليزية الراحلة، القس هيوليت جونسون الممثل الأكثر نموذجية لهذه الجماعة. وكان يعتبر أن بناء المجتمع الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي يتفق تماما وروح المسيح الإنجيلي وقام بعمل دعائي كبير على النطاق الدولي في مصلحة السلام والاشتراكية.

ويعرب عن آراء جونسون كل من اللاهوتي اللوثري أميل فوكس، والإنكليزي ف. كلارك. وفي رأيهما أن مضمون النضال الذي يخوضه أنصار الاشتراكية في العالم المعاصر يتطابق مع تعاليم يسوع المسيح الواردة في الأناجيل. وحتى أنهما يؤكدان أن الشيوعيين ومن يقتفي أثرهم من أنصار الطريق الاشتراكي لتحويل المجتمع هم أتباع المسيح الحقيقيون الآن، بغض النظر عما إذا كانوا يؤمنون بالله وبالمسيح كشخصية إلهية أو لا. بل فإنهما يميلان إلى رفض إطلاق تسمية المسيحيين على أعضاء الكنائس المسيحية الاتقياء شكليا الذين يسترشدون في حياتهم بالقوانين الجشعة للرأسمالية والإمبريالية، حتى وأن اعتبروا وصوروا أنفسهم عبدة خاشعين للمسيح المصلوب. وهذه الآراء ترتبط موضوعيا بالدعوة إلى دعم التطلعات والحركات التقدمية في عصرنا.

ولكن هل توجد أسس تاريخية واقعية للنظر إلى المسيح الإنجيلي كاشتراكي ومتمرد وثوري ؟ إن كارل كاوتسكي في حينه قد جمع في كتاب " نشوة المسيحية " حججا في مصلحة هذا التفسير. ونستطيع انطلاقا منه أن نحكم على متانة الأساس الذي يقوم عليه هذا المفهوم إجمالا.

إلى جانب مجموعة أقوال المسيح الإنجيلية الموجهة ضد الأغنياء والثروة، والتي يجري عادة إيرادها في هذه الحالات، يوجه كاوتسكي أيضا اهتماما خاصا إلى نصوص

أعمال الرسل التى تشهد على أنه كانت توجد عند المسيحيين الأوائل ملكية مشاعية للخيرات المادية. ففى أبكر مراحل وجود المشاعية المسيحية كانت تتغلغل فيها شيوعية فعلية، وأن لم تكن محددة، ونفى للملكية الخاصة وتطلع إلى نظام اجتماعى جديد، أفضل تزول فيه كل التباينات الطبقية عن طريق توزيع الثروة (٣٠) وموعظة يسوع المسيح، التى تقبلها ونفذها تلاميذه، هى وحدها التى يمكن أن تكون مصدرا لهذه الروح الشيوعية.

يعترف كاوتسكى وبنوه مرارا، سواء فى هذا المؤلف أو فى مؤلفاته الأخرى، بالطابع الفج لهذه الأفكار الشيوعية والممارسة التى تطابقها. وعوضا عن مشاعية للممتلكات كان يوجد هنا من حيث الجوهر تقسيم توازنى لها بين أفراد المشاعية يجرى بصورة منتظمة إلى هذه الدرجة أو تلك. ولا مجال حتى للحديث عن الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج، فقد كانت تلك الشيوعية استهلاكية وتوازنية بحتة. ومع ذلك، فإن إعلان المبدأ الذى ينفى مؤسسة الملكية الخاصة هو بحد ذاته أمر هام، فى رأى كاوتسكى.

بغض النظر عن كيفية تقدير الأنظمة التى وجدت فى المشاعيات المسيحية الأولى، فإن استخلاص طابع مواعظ يسوع المسيح منها يعنى ارتكاب الشطط والمغالاة. إن الظروف التى عاشت فيها المشاعيات المسيحية الأولى داخل طوق السكان الوثنيين. قد حفزتها على التكاتف فى جماعات مغلقة إلى هذه الدرجة أو تلك ذات تعاضد داخلى واسع التنظيم. ويكفى للدلالة على أن القضية لم تتطرق إلى إعادة تنظيم المجتمع بأسره على أسس جديدة، بل اقتصرت على الأنظمة المشاعية الداخلية فقط واقع أن أفراد المشاعية أوصوا بأن يبيعوا ممتلكاتهم ويقدموا النقود إلى صندوق المشاعية. وإذا كان المقصود إعادة بناء الأنظمة الاجتماعية كلها فكان ينبغى، طبعا، أن يؤخذ فى الاعتبار أنه لن يبقى من يشترى الممتلكات.

استنبط كاوتسكى الطابع الثورى – المتمرد لمواعظ يسوع ونشاطه مباشرة من صفته كمخلص. ثمة، كما قال، احتمالان لا ثالث لهما : أما أن المسيح اعتبر نفسه مخلصاً، فكان عليه والحالة هذه أن يأخذ على عاتقه كل وظائف القائد السياسى والاجتماعى وحتى

العسكرى التى كانت ترتبط بهذا اللقب وأما أنه كان ينظر إلى نفسه كمعذب وشهيد مسالم. ولكنه اضطلع بدور المخلص بصورة محددة تماماً !

لا يستطيع كاوتسكى أن ينكر الجانب الآخر لشخصية – المسيح الإنجيلية الذى يصوره كداع إلى عدم مقاومة الشر، وإلى السلبية الاجتماعية. ويتساءل، كيف يمكن التوفيق بين هاتين الشخصيتين المتعارضتين أشد التعارض، لا المختلفتين فقط ؟ وتحل المسألة بإعلان أن عناصر الخلاص المحاربة فى شخصية المسيح هى العناصر الأولية، أما الصفات المناقضة لها، صفات عدم مقاومة الشر والانتظار السلبى فهى تراكمات أتت فيما بعد. لم يكن من الممكن أن تتجلى شخصية المسيح للناس بهذه الخصال المتنافرة فى وقت واحد.

من شأن هذا المفهوم أن يتمتع بالحق فى البقاء لو أنه برهن على أن تراكم مختلف عناصر شخصية المسيح جرى تاريخياً بالشكل الذى يقتضيه هذا الأمر، أى أن النصوص " المتمردة" فى الأناجيل ظهرت قبل النصوص الداعية إلى عدم مقاومة الشر. ولكن ما لم يبرهن عليه. وبالتالى، فإن المفهوم كله يبقى افتراضيا بحتا وغير معلل بشىء باستثناء المقايسات المنطقية.

والحجة الجوهرية الأخيرة فى مصلحة نظرية الطابع الاجتماعى – التمردى لمواعظ يسوع رأها كاوتسكى فى أن أى خلاص من نوع آخر ما كان له أن ينطوى على النجاح فى الأوساط غير اليهودية، وهل كان فى وسع المواعظ القومية الضيقة للخلاص اليهودى أن تلهم الشعوب الأخرى فى الإمبراطورية الرومانية ؟ كما يقول كاوتسكى، فلا يمكن فهم وتفسير نجاح المسيحية على النطاق الأممى إلا إذا افترضنا أنها لم تعمل بشعارات ومطالب قومية فحسب، بل طبقية أيضا. لقد اتحد الخلاص والشيوعية فى مواعظ يسوع المسيح، وإذ اتحد هذان العاملان ... أصبحا شيئا لا يقهر. وما كان إلا لأمنيات الخلاص، التى تتلخص فى إنقاذ كل المساكين أن تلقى صدى حيا بين فقراء الأمم جميعاً (٣١). لو أن المسيح لم يعمل كقائد اجتماعى للمضطهدين، بغض النظر عن انتمائهم القومى، بل كمخلص على النطاق اليهودي الضيق لما سلمت مواعظه، فى رأى كاوتسكى، من ذلك الفشل الرهيب الذى

منيت به اليهودية فى حروبها التحررية، ومن ذلك الانحطاط الذى وقعت بعدها فكرة الخلاص نفسها.

وهذا البرهان أيضا لا يتجاوز إطار التسليمات الافتراضية. هذا بالإضافة إلى أنه يخل بالتتابع المنطقى لأحكام كاوتسكى نفسه. فهو يعتبر أن الطابع الثورى لمواعظ المسيح الذى ورثه تلاميذه المباشرون قد تبدد بسرعة. تسنى للمخلص المطلوب الذى خرج من صفوف البروليتاريا أن يخضع روما والعالم بأسره. ولكنه لم يستو عليه من أجل البروليتاريا. لقد أدى دياليكتيك التاريخ إلى أن تصبح المسيحية حصناً للاضطهاد الاجتماعى، وكان هذا منطقيا تماماً. لم يكن المسيح المصلوب أول ولا آخر جامح وجه فى النهاية جيوشه، التى منحته النصر، ضد شعبه واستخدمها لقهره وإخضاعه. وفى هذا الصدد يتذكر كاوتسكى قيصر ونابليون الذين نبتا من انتصار الديمقراطية أيضا (٣٢).

ولكن إذا قبلنا الطرح القائل بأن مواعظ يسوع ما لبثت أن فقدت بعد موته طابعها الثورى (وهذا بحد ذاته يبدو معقولا)، فلا يجوز تفسير نجاحها بين السكان فى الإمبراطورية الرومانية بطابعها هذا بالذات، لأن انتشار المسيحية بين الأوساط غير اليهودية لا يعود أبدا إلى فترة وجودها المبكرة، بل إلى الوقت الذى يفترض أنها فقدت ثوريتها فيه.

حينما قال المطران فيدينسكى فى النقاش مع لوناتشارسكى أن الجميع يريدون أن يكون المسيح فى معسكرهم، رد لوناتشارسكى: " أما نحن فلا نريد. نحن لا نحتاج إلى المسيح" (٣٣). وهذا صحيح تماما من حيث الجوهر، ولكنه، كما نوه لوناتشارسكى نفسه، لا يؤثر فى طابع حل المعضلة العلمية حول حقيقة المسيح التاريخية. وكما فى أية مسألة علمية أخرى، من الهام لنا أن نستوضح الحقيقة هنا أيضا.

لقد وجه كلاسيكيو الماركسية الاهتمام مرارا إلى محاولة إيجاد صلة من القربى بين الشيوعية والمسيحية المبكرة، وذلك، من جهة، لا سباغ " الصفة المسيحية" على التعاليم الشيوعية، ومن الجهة الأخرى، لتصوير المسيحية وشخصية مؤسسها فى صورة ثورية – شيوعية. ونجد نمطا نموذجيا لهذه المحاولة فى كتاب هـ رولفيس الذى صدر مؤخراً " يسوع والبروليتاريا" (٣٤) وهو يهدف إلى البرهان على أن الحركة العمالية المعاصرة ليست

إلا فى صدد هذه المحاولات.. " يقول إحدى البديهيات المفضلة أن المسيحية هى الشيوعية.... وأنصار هذا الرأى يحاولون البرهان على هذا باستشهادات من الكتاب المقدس تقول بأن المسيحيين الأوائل عاشوا على أسس مشاعية. إلخ. وهنا يعلن إنجلس أن كل روح تعاليم الكتاب المقدس. " معادية تماما للشيوعية" (٣٥) إن الشيوعية العلمية لا تحتاج إلى تغطية دينية ولا إلى أية تغطية أخرى.

البطل المعذب الجذاب ؟

(كما يراه أ. رينان)

فى النصف الثانى من القرن الماضى كانت شخصية المسيح لدى الرأى العام للمثقفين الأوربيين تمر من خلال التصوير الذى أعطاه الكاتب والعالم الفرنسى أرنيست رينان فى كتابه " حياة يسوع " الذى صدر لأول مرة فى عام ١٨٦٣. منذ أن كان رينان على قيد الحياة (توفى فى عام ١٨٩٢) طبع الكتاب عشرات المرات بلغات مختلفة بينها الروسية. وقد ساعد على نجاحه المنقطع النظير بهذا العرض الأدبى، ولكن اضطلع دور هام أيضا واقع أن رينان استطاع أن يرسم بطريقته الخاصة لوحة كاملة وساطعة للإنسان يسوع بكل حيوية الشخصية البشرية وتناقضها الحى. ولم يتسن للأدبيات العلمية عن المسيح إلا فيما بعد، وبصعوبة كبيرة، التحرر من سحر تلك الصورة التى أبدعها رينان وسلوك طريق البحث التاريخى الموضوعى من جديد.

من المميز، بالنسبة إلى وصف رينان نفسه، أنه رفض فى شبابه منصب كاهن كاثوليكى وكرس حياته للعلم، إلا أنه ينبغى مراعاة أن الاهتمامات العلمية كانت دوما تتشابك فى نشاط رينان مع التطلع إلى التصور الفنى للماضى. ولم يكن من النادر أن يدخل تبحره التاريخى والفيلولوجى الواسع فى صراع مع موهبته الفنية الرائعة، مع العلم أن اتجاهه العلمى لم يكن المنتصر دائما، وقد انتصرت ذاتية الفنان على تجرده العلمى فى " حياة يسوع " أيضا. ومع ذلك، فإن تحليل شخصية يسوع الرينانية ينطوى على أهمية كبيرة، حتى ولو بسبب التأثير الذى مارسته فى الرأى العام زمنا طويلاً. ولكن يكون ن خطل الكلام أن

ننوه هنا بأن الكنائس المسيحية لكل الطوائف تقريبا (باستثناء بعض فروع البروتستانتية) وقفت من الكتاب المذكور موقفا سلبيا شديداً. وبعد صدوره هبت عاصفة حقيقية من التهجمات عليه وعلى مؤلفه.

وليس فى هذا ما يدعوا إلى العجب إذا أخذ فى الاعتبار أن المؤلف رفض بحزم تناول شخصية يسوع المسيح من وجهة نظر مقولة ما فوق الطبيعة. ولا يوجد فى مؤلفه مكان للحبل بلا دنس، ولا لقيامه المسيح وصعوده، فهو يبدأ بطفولته وينتهى بموته. وقد صاغ رينان موقفه هذا بصورة قاطعة تماما فى مقدمة طبعة كتابه الثالثة عشرة: " إن مجرد التسليم بما فوق الطبيعة يجعلنا خارج التربة العلمية، وهذا ما يسمح بتفسير غير علمى بالمرة لا يستطيع أن يعترف به أى فلكى أو فيزيائى أو كيمياوى أو جيولوجى أو فيزيولوجى، كما لن يعترف به المؤرخ أيضا. نحن ننفى ما فوق الطبيعة على الأساس نفسه الذى ننفى وفقه القنطور والغيبوغريف. إذ لم يرهما أحد. فى يوم من الأيام. أنا أنفى المعجزات التى يتحدث عنها الإنجيليون" (٣٦).

إن تعليل نفى الظواهر الخارقة بأنه لم يرها أحد لا تبدو مقنعة كثيرا، ثمة حجج دامغة أكثر بكثير فى مصلحة هذا النفي . بيد ان من الهام في هذا الصدد كون رينان سعى إلى البقاء فى مواقع المذهب العقلانى. وننوه بأنه كان من حيث أراءه الفلسفية قريب إلى الإيجابية.

وهكذا لم تجذبه فى شخصية يسوع المسيح خصائص صانع المعجزات، بل كان ينكرها، وإلى جانب خصائص الإنسان الرائعة، التى رأها رينان فى يسوع، انطلق رينان من الدور الجبار الذى اضطلع به هذا الإنسان فى التاريخ، حسب رأيه. واعتبر رينان ظهور المسيحية الحدث الرئيسى فى التاريخ العالمى. واعتبر أن يسوع المسيح هو صانع هذا الحدث.

ولا يرفض رينان حتى الاعتراف بيسوع " ابنا لله " فهو يعتبر أن الوعى العالمى " أطلق هذا اللقب على المسيح بإنصاف تام، لأنه جعل الدين يقوم بخطوة لا يمكن مقارنتها بشىء، ولن يكون لها، على الأرجح، نظير فى يوم من الأيام(٣٧).

ولكن لتقدير هذا الإنسان العظيم وقسطه في التاريخ حق قدرهما لابد، حسب قناعة رينان، من إزالة تلك الترسبات العديدة التي شوه بها الكنسيون واللاهوتيون شخصية المسيح.

في أوقيانوس التفسيرات، التي أوجدتها على امتداد الفي سنة تقريبا كتب الباحثين الأتقياء في سيرة المسيح، يستحيل إيجاد ولو أثر للسعي إلى استنباط الحقيقة التاريخية. كان من الأهم بكثير بالنسبة إلى المسيحيين، كما نوه رينان، البرهان على أن يسوع قام بكل ما ورد في نصوص الرسل المزامير التي كان يعتبر أن لها علاقة بالخلاص. لا شيء يمكنه مقارنته بالتصرف الكيفي الذي مورس لدى تطبيق نصوص العهد القديم على وصف حياة يسوع. ويورد رينان أمثلة مقنعة في هذا الخصوص، ويقول أنه حينما كان اللاهوتيون اليهود يعلنون أن لا شيء في نصوص العهد القديم يمت بصلة لما صوره المفسرون المسيحيون كان يقال لهم أنهم شوهوا نصهم بدافع الحق وانعدام الضمير.

أن رينان نفسه لم يحتج إلى أساليب كهذه. نحن لا نريد أبدا أن نقول بهذا أن كل ما في محاكماته قائم على أساس علمي راسخ. بل على العكس، ففيها الكثير من الآراء الكيفية والذاتية والافتراضية والمغلوطة أخيرا. ولكن كانت مخيلته الفنية تكفيه لتعليلها. وكل ما فعله أنه أعرض عن أخبار الإنجيل التي بدت له غير معقولة ومستحيلة (ولاسيما قصص المعجزات والأحداث الخارقة عموماً) وجمع الباقي بخيط واحد لعرض مترابط وملاء الفراغات بتخيلات، وأحيانا بمجرد كلام رشيق وبليغ. وهكذا استطاع أن يبدع صورة جذابة ومحببة لبطل تراجيدي عاش وتألم وقتل من أجل فكرة خلبت بعد موته العالم بأسره. أما درجة تطابق هذه الصورة مع الواقع التاريخي فأمر أخر سوف نتحدث عنه لاحقا.

كان يسوع، كما صوره رينان، ابن زمنه وشعبه، ونتاج اوسط الجغرافي والتاريخي الذي ترعرع فيه وتكون كفرد. لقد اعتنق أيديولوجيا عصره، بما في ذلك أوهامها. ولو لا هذا لما استطاع ان يحقق أي نجاح لان كل ما هو عظيم كما يقول رينان، ينجزه الشعب، والشعب تستحيل قيادته دون مشاطرة أفكاره . يلمح رينان بوضوح إلى أنه حتى ولو لم يؤمن المسيح بكل ما وعظ به الشعب، وحتى ولو استخدم الخداع في بعض الحالات، فليس في

هذا ما يحط من شأنه في عيوننا. فالخداع لم يكن يضطلع دوما بدور سلبي في التاريخ. " ليس ثمة من عمل عظيم لم يقم على أسطورة. (٣٨)

الذنب في هذا يقع، كما يقول، على البشرية نفسها التي ترغب في أن تخدع. ومع ذلك فإن طرح المسألة هذا ينبغي كما يعتبر رينان، أن يعزى إلى شعوب الشرق القديم. فقد كانت عندها مفاهيم عن الصدق والكذب مغايرة تماما لما عندنا. " إن النزاهة والخداع في وعينا ذي المنحى الواحد مفهومان ينفي أحدهما الآخر. وفي الشرق توجد بين الواحد و الاخر ألوف الممرات والتدرجات.... وبالنسبة إلى الإنسان الشرقي تنطوي الحقيقة الفعلية على مغزى زهيد جداً، فهو يرى كل شيء من خلال موشور أو هامة ومصالحه وانفعالاته" (٣٩) وانطلاقا من هذا يمكن أن يعزى إلى يسوع سلوك ليس صادقا ومخلصاً باستمرار، من غير أن يكون هذا مجالا للتشكيك في تكوينه الخلقي.

يطبق رينان هذا التناول على مسألة المعجزات التي تقول الأناجيل أنه يسوع اجترحها، فهو يسلم بانه توجد في هذه الأخبار أساطير كثيرة ألفتها مخيلة المؤمنين فيما بعد، ولكنه لا ينفي أن بعضها يتفق وما جرى في الواقع. وهو يعتبر أن التمييز بين القصص المختلقة والحقيقية مستحيل في هذه الحالة. ولكن وجود وصف " صادق" للمعجزات لا يشهد على حقيقة هذه المعجزات الخارقة نفسها، فالحديث يقتصر على المعجزات التي وافق يسوع على أن يؤدي فيها " دورا نشيطا " هذه الصيغة المراوغة مدعوة إلى الإعراب بشكل " مقبول عن فكرة أن يسوع كان يوافق أحيانا على التظاهر باجتراح المعجزات، مستخدما لهذا وسائل ليست شريفة تماما، حسب مفاهيم زمننا.

ماذا كان يستطيع أن يفعل، كما يصرح رينان، إذا كانت المعجزات في زمنه تعتبر سمة أكيدة للألوهية، وعلامة الرسالة و النبوة ؟ كان يسوع أمام هذا الخيار. " إما أن يتخلى عن رسالته وإما أن يجعل نفسه صانع معجزات" وأثر الأمر الأخير فرضخ لروح زمنه. وهذا يعني أنه اذعن فقط للإكراه الذي جابهه عصره به، وأصبح صانع معجزات وراقية " على الرغم منه فقط".

وبالمناسبة، لم يكن يسوع نفسه يجد غضاضة فى أن يكون عرضة لهذا الإكراه، يعلن رينان بتناقض صارخ مع مفهومه لنفسه أن يسوع من جهته كان يؤمن بالمعجزات التى اجترحها، بل لم تكن عنده أيضا أدنى فكرة عن نظام الطبيعة وقوانينه، ولم تكن معارفه فى هذا الخصوص أعلى مما لدى معاصريه. ويعتبر رينان أن يسوع لم يكن يشاطر معاصريه تصوراتهم عن المعجزات فقط، بل وعن الله وإبليس والملائكة والأرواح الشريرة. وفى هذا الصدد لم يكن يسوع يختلف عن مواطنيه فى شىء (٤٠) كان يوجد هنا إجمالا جمع بين الخداع وخداع الذات يشكل عموما الصفة المميزة للأغلبية الساحقة من الأديان.

قد يكون مما ساعد على خداع الذات عند يسوع كونه قد أفلح فى بعض المعجزات، وهذا ينطبق على الشفاء ويتحدث رينان فى هذا الصدد عن التأثير الذى تمارسه فى جملة المريض العصبية شخصية الطبيب نفسه والأساليب التى يستخدمها. أحيانا لمسة واحدة من شخص معين للمريض تساوى كل ما يوجد من عقاقير طبية. " إن السرور والارتياح لرؤيته ينطويان بحد ذاتهما على تأثير شاف، وليس هذا بالأمر الزهيد. (٤١).

هذا التأثير هام على وجه الخصوص بالنسبة إلى الأمراض العصبية التى كان ينظر إليها فى الأزمنة القديمة كنتيجة لحلول الشيطان فى جسم المريض. والهزة العصبية الناجمة عن لسمة إنسان يتمتع بسمعة الشافى قد تشفى المريض فعلا. وكان لابد لهذه الحالات أن تعزز فى يسوع الإيمان بالمغزى الخارق لشخصيته وتدفعه إلى متابعة ممارسة المعجزات.

أن يسوع رينان، من حيث طبعه الشخصى، هو أيضا إنسان زمنه وشعبه. وهو كجليلى أصيل لم يسع أبداً خلافا لليهود، إلى إظهار ورع استعراض وتزمت خلقى. " لم يكن يتجنب المرح، وكان يذهب إلى ولائم الأعراس بطيبة خاطر" (٤٢). كان إنسانا بسيطا ومرحا وطيبا من الشعب، لا يعرف الغطرسة الصدوقية ولا النفاق الفريسى، كان يتصف إلى درجة من الدرجات براحة الفكر وخلو البال الملازمين لسكان الأماكن الخصبة ذات المناخ المعتدل والجيد، كما هو شأن الجليل، موطن يسوع المسيح.

وحتى أن أحد تعاليم المسيح الأساسية المعبر عنه فى رفض العمل على أساس أن زنبق الحقل يلبس أفضل من أغنى إنسان فى حين أن زهوره لا تفعل شيئاً، يميل رينان إلى

تفسيره بتأثير المناخ فى موقف المسيح. " إن العمل فى مناخ كهذا عقيم، ولا تستحق نتائجه ما يبذل فيه... وهذا الازدراء بالعمل، الزدراء الذى يسمو بالروح إلى أقصى حد حينما لا يقوم على الكسل، قد أوحى ليسوع بهذه الموعظة الرائعة لا تكنزوا لكم كنوزا فى الأرض .. " (٤٣).

ولما كان يسوع إنسانا بسيطا من الشعب، فإنه لم يتمتع بثقافه خاصة. لم يكن يعرف أبدا اللغة اليونانية التى كانت شائعة بين الزعماء الصدوقين ذوى الثقافة الإيلينية، كما ولم يكن مطلعا على الأدب اليونانى. بل إن رينان يعتبر أن يسوع لم يكن أيضا ضليعا في الشريعة اليهودية وكان بعيدا عن المدارس الحاخامية التى بدأت فى زمنه تنشر ذلك التلاعب الكلامى الذى نجم عنه التلمود فيما بعد. هنا يكمن، فى رأى رينان، أحد الجوانب القوية لشخصية يسوع: لقد حافظ فكره على تلك السذاجة الغضة التى تضعفها دائما الثقافة الواسعة والمتنوعة. إن النقص فى الثقافة وانعدام المران اللهوتى كانا على أى حال عائقا قويا ليسوع فى نشاطه الوعظى.

كان بفطرته إنسان ذكيا وفطنا ومحدثا رائعا. ولكن حينما دخل خلية الوعظ على الملاء اتضح أن هذا قليل. كان لابد له أن يصبح شارحا وحقوقيا ومفسرا ولاهوتيا. كان ينبغى خوض مناقشات " صاخبة" ومعارك " كلامية" لا نهاية لها. ويغتم رينان لحالة بطلة فى مثل تلك الظروف، فحينما كان ينتقل من الدفاع إلى الهجوم لم يكن دائما فى المستوى المطلوب. كنا نفضل إلا نراه أحيانا فى دور الجانب المهاجم. (٤٤).

بيد أن فطنته الفطرية كانت توفر له أحيانا إمكان الخروج منتصرا من المواقف الصعبة، ولكن رينان ليس أبدا من المعجبين بالقوة المنطقية لحجج يسوع فى تلك الحالات، إذ كانت ضعيفة للغاية. ومع ذلك كان يسوع يجد أحيانا منافذ لامعة ودقيقة توفر له إمكان إحراز النصر. ويتذكر رينان فى هذا الصدد كيف وجد يسوع مخرجا حينما سئل عما ينبغى فعله مع امرأة أخذت فى الزنى. ويعرف الجميع جواب يسوع. ونذكر بأنه يتخلص فى نصيحة تتسم بالذكاء والطيبة. " من كان منكم بلا خطيئة، فليتقدم ويرمها بحجر".

كان الواعظ بالدين الجديد إنسانا دمثا وطيبا. " كانت موعظته مستحبة ولطيفة تعبق بـالفطرة وأريـج الحقـول. كـان يحـب الزهـور ويستخدمها فـي تشـابيهه الرائعـة والحافلـة بالـدروس. وفـي مواعظـة يـأتي دائمـا علـى ذكـر طيـور السـماء، والبحـر والجبـال والعـاب الأطفـال" (٤٥). وكـان يسـوع يسحر النـاس، ولاسيما النسـاء، بجاذبيتـه اللطيفـة وبمظهـره الخارجي المستحب، كما يفترض رينان. وفي الوقت نفسه كان يغدو في اللحظات الحاسمة عنيفا ومتوعدا. وكان، وهو الهادئ واللطيف في علاقاته العادية، يتبدل لدى أقل معارضة. حينذاك كانت تغادره الوداعة الفطرية، وتبعث حدته الهلع حتى لدى الرسل.

يعرب رينان عن إعجابه بقوة التهكم الذي يصبه يسوع على أعدائه. " أن رموز هذه السخرية العالية بمهارتها هي وصمات حارقة على جسد المنافق ومدعي الإيمان. إنها رموز لا تضاهي، رموز تليق بابن الله. الله وحده يستطيع أن يقتل على هذا النحو. إن سقراط وموليير لا يكادان يخدشان الجلد. أما هو، فإن ناره وغضبه يحرقان حتى العظم. (٤٦). لا شك في أن رينان يبالغ بشدة هنا : لا يمكن العثور في الأناجيل الا على مواضع قليلة تبرر ولو بدرجة من الدرجات هذا المديح لقوة تهكم أقوال يسوع.

ما هي الأغراض التي تهدف إليها كل هذه الخصائص لعقل ذلك البطل ومزاجه التي رآها رينان في يسوع المسيح ؟

كان يسوع مؤسسا لدين جديد يقوم، والحق يقال، على أساس قديم، وهو اليهودية. كان يهوديا ولم يكن يهوديا في الوقت نفسه. كانت اليهودية موجهة " إلى أبناء إبراهيم". ولكن يسوع أعلن أن كل إنسان طيب بغض النظر عن انتمائه القومي يسير خلفه، خلف يسوع، يصبح بهذا أبناً لإبراهيم. " إنه يعلن حقوق الإنسان لا حقوق اليهودي دين الإنسان لا دين اليهودي، تحرير الإنسان لا تحرير اليهودي (٤٧). لقد بذل محاولات كثيرة في الديانة اليهودية وفي الحياة الاجتماعية لبلاد اليهودية من أجل النهوض بالجماهير باسم تطلعات دينية وسياسية جديدة، ولكنها من حيث جذريتها أبعد من أن تقارن بأفكار يسوع. وهذه المحاولات جميعها اتخذت تحت شعار " الشريعة" اليهودية. كان يسوع أول من وقف ضدها.

كانت الأيديولوجيا الجديدة. " ديناً في غاية النقاء، بلا شعائر، وبلا هيكل، وبلا كهان" (٤٨). ورأى رينان في مضمون هذا الدين عنصرين إثارا فيه موقفين متباينين.

هناك، من جهة، التنبوء، بنهاية العالم القريبة والدعوة إلى التوبة في انتظار يوم الدينونة، وهذه " فكرة مزيفة، شاردة، مستحيلة" (٤٩). ومن الجهة الأخرى، الموعظة الجبلية وتبجيل الضعيف وحب الشعب وحب الفقر وتعظيم كل ما هو مهان وصادق وساذج (٥٠). هذا الجانب من تعاليم المسيح يثير لدى رينان أشد التعاطف. ويعرب عن إعجاب خاص بتلك الأساليب التي استخدمها المسيح لإبلاغ العالم بتعاليمه الخلقية، وذلك " بفن ممثل لا يشق له غبار". ويدعو رينان إلى " أن يغفر له إيمانه بالقيامة الباطلة، وبالمسيرة الظفرة إلى السماء". (٥١). فليس هذا، في رأيه، هو الأمر الرئيسي في تعاليم المسيح، بل التعاليم الخلقية الحية والحيوية المرتبطة باراء اجتماعية محددة.

من الطريف أن رينان المطنب في الكلام والذرب اللسان عادة يغدو مختصر القول حينما يقتض الأمر عرض تلك التعاليم. ما الذى وعظ به ألمسيح من الناحية الا جتماعية؟ وعظ بالإيفيونية البحتة أي بتعاليم ينقذ حسبها الفقراء وحدهم وتحل حسبها مملكة الفقراء... (٥٢). ما معنى إنقاذهم، مم يجرى إنقاذهم، أمن عذاب الجحيم أم من مصائب الأرض الناجمة عن العوز ؟ من الواضح أنه ينبغي اختيار الاحتمال الثاني. وهكذا، وضع يسوع هدفا له قيادة الفقراء والمحرومين إلى التحسين الجذري لقسمتهم وحياتهم. ولكن برنامج المسيح الاجتماعي يبدو عند رينان شحيحا جدا مع كل قدرته على تضخيم أقل تلميح إلى مفهوم كامل.

إن أيديولوجي الفقراء وقائدهم لا يعجبه، طبعا، الظلم الاجتماعي وسيطرة الأغنياء الاقتصادية والسياسية. هو يسعى إلى القضاء على الغناء والسلطة. إنه ضد أية سلطة كانت، وهو في هذا المعنى فوضوى صريح. ويتابع رينان قائلا أن كل شخص من المسؤولين يبدو له عدوا طبيعيا لا ناس الرب، ويعتبر الحكومة المدنية مجرد سوء استعمال. وهذا الموقف السلبي للمسيح من السلطات الدنيوية يفسره رينان إلى درجة معينة بعدم إطلاعه لأنه إنسان

خرج من الشعب ولا يفهم شيئا فى السياسة (٥٣). ولكن مهما كان الأمر، يبقى كون يسوع ضد كل السلطات أمرا واقعا.

ولكن موقفه هذا إزاءها لم يؤد إلى محاولة الإطاحة بها. لقد تنبأ لتلاميذه كما يشير رينان، بأنهم سيتعرضون للملاحقات والتعذيب، ولكن لم تظهر عنده أية فكرة للمقاومة المسلحة. ويتسم بالسلبية نفسها موقفه من النظام الاجتماعى القائم. لم يلحظ عنده أبدا أى تطلع إلى أن يشغل مكان السلطات والأغنياء (٥٤) ولم يدع الفقراء السائرين خلفه إلى امتلاك الثروات. لماذا؟ يبقى هذا غامضا عند رينان، لأنه يحاول تجاهل هذا الجانب من تعاليم يسوع، ويطلب من القارئ إن يغفر لمؤسس المسيحية هذا الأمر تلك القيادة المزعومة إياها. لقد أزدرى يسوع خيرات هذا العالم والسلطات الدنيوية، لأنه اعتبر كل هذا تافها وباطلا فى مواجهة نهاية العالم الداهمة حتما.

وبالمناسبة لم يكن هذا الازدراء عنده، حسبما جاء فى الأناجيل، ثابتا بما فيه الكفاية. لقد دعا معاصريه إلي أن يؤدوا لقيصر ما لقيصر. أما فى خصوص ثروة أصحاب العبيد، فيمكن أن نجد فى الأناجيل امثالا ومحاكمات كثيرة تعتبر هذه الثروة ظاهرة طبيعية تماما. وهنا أيضا يبدو رينان وحيد الجانب وغير موضوعى.

وإذ يحاول رينان، بدون نجاح يذكر، بالمناسبة، إن يجمع معا التصوير الإنجيلى لتعاليم المسيح، لا يبسط (وهو أمر يستحق التقدير) اللوحة النفسية لمعاناة يسوع وشعوره على امتداد التاريخ القصير لنشاطه.

كلما كانت مواعظ يسوع تحوز المزيد من النجاح وتجند المزيد من الأنصار، كان يجد نفسه فى وضع يزداد صعوبة. أنه لا يعرف من حيث الجوهر ما الذى يفعله مع هذه الجماهير من الناس المستعدة للسير وراءه. وما يلبث أن يفقد السيطرة على الوضع. أن يسوع، الذى انجذب.. بضغط الحماسة المروع ووجد نفسه تحت تأثير مقتضيات مواعظة التى تبعث على المزيد والمزيد من الإثارة، لم يعد حراً فى تصرفاته واصبح ملكا لدوره، وللبشرية بمعنى من المعانى (٥٥). لقد سبح فى التيار الذى جذبه.

إن الصراع في وعيه وسلوكه بين مبدأين - الآخرة والدنيا - انتهى بانتصار الأول. ولم يكن هذا المبدأ يتطلب المقاومة والنضال الدنيوى، بل الموت المضنى، وفى مواجهة هذا الأفق عاش يسوع أزمة نفسية رهيبة. أحيانا كان يمكن القول أن تفكيره قد التبس ... وينبغى التنويه بأن المقربين إليه كانوا يقولون فى بعض اللحظات أنه خرج عن طوره، أما أعداؤه فاعلنوا أن الشيطان مسه". كانت نوبات الكآبة المميتة تنقلب أحيانا إلى حماسة عارمة حينما " يصاب بالدوار تحت تأثير الرؤية العظيمة لملكوت الله التى تتقد باستمرار أمام ناظريه" (٥٦). وأخيرا، يتخذ قراره بالإقدام على الموت.

هذا القرار يحدث انقلابا فى سلوكه أيضا. منذ تلك اللحظة تنتهى كل ازدواجية وكل مناورة تكتيكية. " نراه من جديد سالما وبدون أقل خدش. لقد نسيت الآن كل حيل صاحب الحجج وسذاجة صانع المعجزات وطارد الشياطين. ولم يبق سوى بطل الانفعالات الذى لا يضاهى... (٥٧). وهنا أيضا يبسط رينان قصص الإنجيل. ففيها ينتاب " بطل الانفعالات الذى لا يضاهى" تخاذل كامل. إن رينان ينوه بأن قد استولى عليه فى لحظة من اللحظات الخوف والشك وأوصلته إلى حالة من الضعف أسوأ من أى موت، ولكنه يعزو هذه اللحظة إلى فترة تسبق القرار البطولى للمسيح بأن " يشرب الكأس حتى الثمالة" وبعد هذا لم يبدي المسيح، كما يقول، تردداً فى أى شىء.

لقد أبدع رينان، إجمالا، صورة سيكولوجية ساطعة ومتباينة الألوان لإنسان ذى مصير تراجيدى، إنسان فذ للغاية. إن يسوع كما صوره رينان شخصية عظيمة المستوى، ولكن يتسم بالمستوى نفسه أيضا ما يلازمها من انفعالات بشرية. صرف وتناقضات وضعف. إن شخصية تبدو، كما رأها رينان، معقولة من الناحية السيكولوجية. وهى بدرجة من الدرجات معقولة تاريخياً، مع أن النقاد لاموا المؤلف بالإجماع تقريبا على أنه صور يسوع على نمطه وشاكلته كباريس من عهد الإمبراطورية الثانية، متحمس وعاطفى على نحو عاصف، لبق وذكى وغير ثابت فى أقواله وأفعاله. ومع كل ذلك لا يسعنا إلا أن نرى فى بناء رينان تطلعا دؤوبا إلى رؤية شخصية يسوع فى ضوء الظروف التاريخية والجغرافية للشرق القديم.

والأهم هو أن هذا البناء يقوم على المخيلة الفنية للكاتب البارز أرنيست رينان أكثر بكثير مما يقوم على الشهادات الموضوعية للوثائق التاريخية.

المريض نفسيا ؟

(كما يراه ج. ميلييه وا. بينو – سانغلي وي. مينتس)

تصعب معرفة أول من إعراب في الأدبيات عن هذا الرأي الجرئ. ونحن نجده قد صيغ لأول مرة بصورة واضحة في " وصية" جان ميلييه، الكاهن الكاثوليكي الفرنسي الذي عاش في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، والذي لم يعرف إلا بعد موته أنه كان ملحدا راسخا في الإلحاد.

كان موقفه من كل دين، بما في ذلك المسيحية، سلبيا ومعاديا بلا هوادة. قد تبدو اللهجة التي تحدث بها عن الدين والمسيحية وعن المسيح حادة بإفراط وتعابيره حتى مقذعة. ولكن لهذا ما يبرره. فقد عاش في زمن سيطرة الكنيسة الكاملة والمطلقة إن لم يكن على عقول الناس، فعلى حياتهم ومصائرهم. وأقل وقوف صريح ضد مسلمات المسيحية كان يمكن أن يجعل الإنسان وقودا لنيران محاكم التفتيش. وقد اضطر ميلييه نفسه إلى أن يكتم قناعاته كل حياته وأن يؤدي في غضون ذلك واجبات كاهن في الريف. فليس مما يدعو إلى العجب أن يتراكم عنده حقد يضبط بصعوبة ولم يكن يترك له منفسا إلا حينما يخلو إلى نفسه مع مخطوطاته. أما في المجال الاجتماعي لذلك الزمن فكانت تزداد احتداما التناقضات بين الأرستقراطية الإقطاعية المعتمدة على الكنيسة والجماهير الشعبية التي رفعت رأسها. كان ذلك، باختصار، جو. ما قبل العاصفة عشية الثورة البرجوازية الفرنسية.

لم تكن المسيحية تبدو لميلييه وحدة، بل ولايديولوجيي التنوير الفرنسي الآخرين، أيديولوجيا معادية بشدة وبلا هوادة، فكانوا يتحدثون عنها بكراهية لا حدود لها. لقد انهال

فولتر وغولباخ وديدور ورفاقهم على المسيحية والمسيح بسيل من الهزاء والتهكم الساخر العنيف والفضح الشديد. وبهذه الروح أيضا تحدث جان ميلييه عن المسيح.

إنه لم يقتصر على تسمية يسوع المسيح " إنسان تافها مجردا من الموهبة والتفكير والمعارف والمهارة، إنسانا محتقرا تماما فى المجتمع" (٥٨)، بل نعته بأن " متعصب هزيل ولئيم مشؤوم" إلى جانب وصفه بأنه " طائش مجنون" يمكن التفكير فى أن ميلييه لا يقصد هنا إلا المغزى المقذع لهذا التعبير، ولا يعنى إنسانا ذا نفسية مختلفة. ولكن العرض الاحق يشهد إنه كان يقصد بالذات المرض النفسى والجنون بالمعنى الإكلينيكى للكلمة. وليس من النادر فى غضون ذلك أن يستخدم مصطلح " المتعصب" بمثابة مرادف لكلمة " المجنون" ويعكب ميلييد، مثلاً، على " برهان وإظهار أنه (المسيح – أ.ك.) كان حقا طائشا ومتعصبا مجنونا"(٥٩).

وللبرهان على هذا يورد ميلييه ثلاث مجموعات من الحجج. " أولا، الرأى الذى تكون لدى الشعب عنه. "ثانيا، أفكاره وأحاديثه، ثالثاً، تصرفاته ونمط أعماله. (٦٠).

يكشف ميلييه فى الأناجيل مواضع كثيرة ينجم أن المحيطين بيسوع كانوا يعتبرونه فى جملة من الحالات غير سوى من الناحية العقلية. فى كل مرة كان يقول لهم فيها " فظاظة وحمقا وهراء، كانت تساور الفريسيين والكتبة الشكوك فى أنه ممسوس. وحتى أن بعض تلاميذ المسيح، حينما " قال لليهود أنه يعطيهم جسده ليأكلوه ودمه ليشربوه، انفضوا عنه وتركوه، مستنتجين بحق أنه " ليس أكثر من مجنون ! ؟(٦١). كانت تظهر بين المستمعين إلى يسوع، والحق يقال، خلافات فى صدد تقدير شخصيته. " كان يقول البعض أنه طيب، ويقول آخرون. كلا، إنه يغرر بالشعب، أما الغالبية فاعتبرت أنه مجنون ومخبول، وقالت. أنه ممسوس فاقد العقل...(٦٢). وكانت الشكوك تنتاب أيضا أصحابه وأقرباءه فى أنه مختل التفكير، فقد اتبعوه يوما، كما جاء فى الأناجيل، ليعيدوه إلى البيت " لأنه، كما قالوا، فقد عقله"

بهذه الروح يفسر ميلييه لقاء يسوع وهيرودس أنطيباس. كان أمير الربع (التيترارخ – أمير إحدى الولايات الفلسطينية – السورية الأربع) يفترض أنهم سيأتون إليه بصانع معجزات

يريه الكثير من الأمور المشوقة، وانتظر قدومه بفارغ الصبر. ولكنه، وقد تحادث معه، عرفه على حقيقته ورده من حيث أتى. أما اليهود الذين رافقوا يسوع، فقد سخروا منه سخريتهم من مجنون تخيل نفسه قيصرا، فوضعوا في يده عصا عوضا عن الصولجان، وقاموا بتشريفات ساخرة أخرى. " كل هذا يشهد بصورة قاطعة على أن الشعب كان ينظر إليه فعلا نظرته إلى مجنون ومخبول ومتعصب(٦٣). إن أفكار يسوع وأقواله الواردة في الأناجيل تعطى ميلييه الأساس لأن يؤكد صواب هذا الاستنتاج.

ويورد تصريح المسيح الذى يشهد على أنه كان ينظر إلى نفسه كمخلوق مدعو إلى اجتراح أعمال لم يعهد لها نظير ولا مثيل من قبل. يجب أن يصبح ملك اليهود ويحكمهم إلى الأبد وأن ينقذ العالم كله فى الوقت نفسه، ويجب أن يخلق سماوات جديدة، وأرضا جديدة، حيث سيحكم مع رسله الذين سيجلسون على اثنى عشر عرشا ويقاضون البشرية كلها، وكان ينوى أن يهبط من السماء على رأس مجموعة من ملائكته، وكان يعتبر نفسه قادرا على أن يبعث كل الموتى ويحمى من الموت كل الناس الذين سيؤمنون به. وخلاصة القول، " توهم نفسه ابنا قديرا وأزليا لإله قدير أزلى" ويقارن ميلييه هذه الخيالات بما يمكن أن يخطر على بال دون كيشوت، ويؤكد أن " خيالات وأفكار" الأخير، " مع كل خلوها من الاتزان، وكل زيفها، لم تكن أبدا سخيفة إلى هذه الدرجة المفرطة" (٦٤). إن الوسيلة التى فسر بها المسيح نبوءات العهد القديم، بما فى ذلك نصوص النبى أشعيا لا تكشف كذلك، فى رأى ميلييه، إلا عن الاتجاه المريض لتفكيره.

ورأى ميلييه برهانا آخر على جنون يسوع فى تناقض مواعظه وتعاليمه. يقول. " ينبغى أن يكون المرء أهوس ومجنونا ليطلق هذه الأقوال ويلفظ تلك المواعظ التى يناقض بعضها البعض ويفند بعضها البعض" (٦٥). كانت رسالة المسيح تتلخص، حسب قوله، فى تعليم الناس الحكمة وتنويرهم بضوء الحقيقة، ولكنه فضل ألا يتحدث مباشرة، بل بالأمثال والاستعارات، وفسر هذا بالسعى إلى عدم إعطاء الشعب مجالا ليفهمه. وعظ بحب الناس وفى الوقت نفسه طلب أن يكره أنصاره آباءهم وأمهاتهم وأشقاءهم وشقيقاتهم وكل محبيهم.إن الحجج التى أوردها يسوع فى مناقشاته مع خصومه تخلو، فى رأى ميلييه، من

المنطق والبرهان بحيث يمكن لها أن تكون بحد ذاتها شهودا على خلل البناء المنطقى للتفكير. فلدى الاعتراض، مثلا، على أن شهادته على نفسه ليست مجردة من التحيز ولذا تخلو من القوة، قال يسوع أن شهادته صحيحة لأنه يعرف من أين أتى وإلى أين يذهب، أما أعداءه فلا يعرفون، وإلى آخره على هذه الشاكلة. فهل يمكن لإنسان سليم التفكير أن يعتبر مثل هذه الحجة برهانا؟

إن سلوك يسوع نفسه مجرد من الثبات وعقيم بابسط ما فى الكلمة من معنى بحيث يدفع إلى التفكير فى اختلاله العقلى. ولا يمكن تفسير الكثير من تصرفاته ومعاناته إلا كمحصلة لهلوسة و "خيال مريض". فقد رأى من الجبل، الذى أخذ الشيطان إليه يسوع، " ممالك العالم كلها". ولكن " لا يوجد فى الأرض جبل يمكن أن ترى منه ولو مملكة واحدة، أى أنه رأى كل شىء فى مخيلته و "هذه الهلوسة وخداع المخيلة أمر لا يتصف به إلا المعتوه وذو الخيال المريض والمتعصب" (٦٦).

لا يسعنا إلا أن نعتبر حجج ميلييه غير مقنعة إجمالا. إن حجته الرئيسية تتلخص عمليا فى أنه لو ظهر فى الوقت الحاضر شخص فى الأرض أخذ يتكلم ويتصرف على النحو الذى تصف به الأناجيل المسيح لاعتبر مجنونا ولا شك. وميلييه يكرر هذه الصيغة مرارا، ولكنه لا يأخذ فى الاعتبار أن زمنه يختلف تماماً عن الزمن الذى عاش فيه المسيح أو كان يمكن أن يعيش فيه. إن المنورين الفرنسيين كان يعوزهم بالذات التناول التاريخى للظواهر التى ينظرون فيها، وكانوا يقيسون كل شىء بمقياس زمنهم، وبمقياس الأخلاق الاجتماعية التى يعرفونها. هذا فى حين أن ما كان يبدو عشية الثورة الفرنسية كمظهر للجنون كان يمكن له قبل ذلك بثمانية عشر قرنا أن يتطابق تماما مع معايير السلوك والوعى المتعارف عليها حينذاك.

ومع ذلك فإن الرأى القائل بأن يسوع المسيح كان مريضا نفسيا قد وجد فى زمننا أنصارا له، ولكن لا بين الفلاسفة والمؤرخين، بل بين الأطباء النفسانيين والسيكولوجيين. وقد حاول الطبيب النفسانى الفرنسى الكبير أ. بينى - سانفل .تعليل هذا المفهوم بأكثر ما يكون من التفصيل، فكتب مؤلف من مجلدين بعنوان " جنون " المسيح " (٦٧). ونشر

على أثره الطبيب السوفيتي ي . مينتس مقاله بعنوان (يسوع المسيح) نموزج للمريض النفسي ، مستخدما مواده إلى درجة كبيرة، وأحيانا نصوصه. ينطلق المؤلفان في " تشخيصهما" من المعطيات الواردة في الأناجيل عن يسوع، عن سلوكه ومنشئه وحالته البدنية والصحية. ويستشهد بيني – سانغلي، إلى جانب ذلك، بالمعلومات التي يمكن أخذها في صدد هذه المسألة من مؤلفات الكتاب المسيحيين الأوائل، والاستنتاج العام، الذي يتوصل إليه والذي ينضم إليه ي. مينتس أيضا، يتلخص في أن يسوع المسيح كان يعاني مرضا نفسانيا معروفا في الطب النفساني باسم البارانويا.

يورد مينتس تعريفا لهذا المرض مقتبسا من الطبيب النفساني الألماني الشهير كريبيلين: " يتصف هذا المرض بأنه يتطور لدى الإنسان، على أساس ميل سيكوباتي خاص مع بقاء الإدراك والتفكير السليم، نظام راسخ للهذيان" (٦٨). وتتلخص خاصية البارانويا مقارنة بالأمراض النفسانية الأخرى في كون المريض يحتفظ على امتداد فترة طويلة بعد بدء المرض بثبات وقوة النشاط العقلي، وهو يفكر ويتصرف بصورة منطقية وبشكل سديد إجمالا في المجالات كلها باستثناء المجال الذي يصيبه بمرض. ولهذا يمكن للمصاب بالبارانويا، خلافا للذين يعانون أمراضا نفسانية أخرى، أن يبقى وقتا طويلا، وفي بعض الحالات إلى آخر حياته دون أن يعرف بأنه مريضا نفسانيا. أما حياته فيمكن أن تصاغ " في نظام متسق ومتسلسل وواضح يصل لملامح. الابداع(٦٩).

إن التصورات الهذيانية للمصاب بالبارانويا تتركز عادة حول فكرة ملحة ما وترتبط، كقاعدة عامة، بشخصية المريض خاصة. فهي تبدو للمريض مركزا لكل ما يجري في العالم، وطبقا لمضمون الهذيان، أما هدفا لكل ما يخطر على البال من ملاحقات ودسائس ومكائد ربما من جانب البشرية كلها، وأما صاحبة أعظم واسمى رسالة في العالم تنطوي على مغزى حاسم بنسبة إلى التاريخ العالمي بأسره. وقد يكون عند المصاب بالبارانويا، حسب رأي كريبيلين، هذيان ملاحقة أو غيره أو هذيان شهواني، أو هذيان اختراع أو منشأ رفيع. وفي خصوص يسوع المسيح يعتبر المؤلفان المذكوران أن من المؤكد تقريبا أو من المحتمل

جدا على الأقل أنه كان مصابا بأعراض البارانويا التى كان مضمونها جنون العظمة المرتبط بتأليه الذات وبتصور أنه، كمخلص، مدعو إلى إنقاذ البشرية كلها عن طريق تعرضه للعذاب.

فما هى الأسس التى يريانها مسوغا لهذا الاستنتاج ؟

كان يسوع، كما تقول الأناجيل يعتبر نفسه ابن الله المخلص المدعو إلى إنقاذ العالم. وكان يتكلم باستمرار عن حالته السامية. وكان كل التاريخ السابق يبدو له بمثابة عدمة لظهور شخصيته الخاصة. وكل ما قاله الأنبياء يوما يخصه بالذات، وهذا يتفق تماما والطرح المألوف للمصابين البارانويا. كل العالم حافل برموز تخصهم على وجه الحصر ويضاف إلى هذيان العظمة الأنانى عند يسوع هذيان الملاحقة والنهاية المقدرة، فهو يعود باستمرار إلى مسألة عذابه الحتمى، المقبل. وبناء على هذا فإن امزجته ونشاطه العصبى السيكولوجى تكشف عن تقلقل مميز بين القطب المرح للنهوض النفسى، من جهة، وقطب اليأس والكآبة الشديدة والتدهور الانفعالى الكامل من الجهة الأخرى. ويشار ، بين أمور أخرى، إلى نوبة الكآبة التى استولت على يسوع فى ضيعة جثمانية، فليس من النادر أ، تحل فترات السوداوية هذه لدى المصابين بالبارانويا مكان الاندفاع والنهوض.

إن المعجزات، التى جرت كما يقال، حول يسوع أو اجترحها بنفسه، يفسرها بينى ومينتس بمثابة هلوسة. واعتماده فى الأردن رافقه، كما جاء فى الأناجيل، " انفتاح السماوات" وظهور " روح الله " على شكل حمامة، وكذلك صوت من السماء، وكل ذلك نتاج هلوسة بصرية وسمعية. علاقاته المعقدة بالشيطان فى البرية فى خلال إقامته هناك أربعين يوما (التجريب إلخ). كانت كذلك نتاجا للهلوسة التى لابد أن تكون قد ساعدت على شدتها حالة الإنهاك الذى عاناه يسوع نتيجة للجوع أمدا طويلاً.

إن الحوادث والظواهر التى يمكن أن تفسر بفرضية الهلوسة كثيرة فى الأناجيل، ويستخدمها المؤلفان المشار إليهما بطيبة خاطر لتعليل فرضيتهما. بيد أنه ينبغى التنويه بأن معطيات علم الطب النفسانى تشير إلى أن البارانويا لا تتسم بأعراض الهلوسة. وبعض تعاريف هذا المرض الواردة فى المراجع الخاصة تشير بشكل خاص إلى أن هذا المرض مرتبط "

بالهذيان من هلوسة، أو تقول أنه يجرى " عادة بدون هلوسة، وهكذا تبرز حلقة ضعيفة في لوحة " مرض" يسوع الأكلينيكية بالذات.

إن سلوك يسوع الذى تصفه الأناجيل يبدو لبينى ومنينس مطابقا بالضبط لأغراض البارانويا الكلاسيكية. وكما يقول مينتس، وصفت لوحة هذا المرض إلى هذه الدرجة من الدقة بحيث لا يستطيع إلا الأطباء النفسانيون وأطباء الأعصاب أن يرسموا ذهنيا لوحة مماثلة.

ومن هنا يستنتج فى الوقت نفسه أن الإنجيليين وصفوا حياة يسوع ويسوع نفسه نقلا عن الطبيعة، إذ لم يكن فى وسعهم، فى الواقع، أن يكونوا خبراء نفسانيين مؤهلين بحيث يتخيلون لوحة للمرض واقعية بأعراضها !

يبحث الطبيبان النفسانيان عن دعم لفرضيتهما حول القصور النفسى ليسوع فى التصورات عن ضعفه الجسدى. إذ تشير صوره العديدة فى الإيقونات وعلى الصلبان إلى أن بنيته الجسدية كانت واهنة، مما يشهد على المرض. تقول الأناجيل أنه لم يكن قادرا على حمل صليبه إلى الجلجثة. وكان، إذ يعانى الاضطراب والقلق، يعرق بغزارة، وحتى أنه يعرق دما. وكان معتلا بالوراثة أيضا. فقد ولد وعاش كل حياته تقريبا فى الجليل التى كان سكانها يمارسون زراعة الكروم فى الغالب، ويرجع أن سكان الجليل، ومن بينهم والداه، كان يشربان النبيذ بكميات كبيرة. وبالتالى، ثمة مسوغات لآن يعزى إلى يسوع إفراط كحولى موروث.

لا يسعنا إلا التنويه بأن هذين الرأيين لا يستندان إلى أسس جدية. فكل صور يسوع ظهرت فى وقت متأخر جداً، ولا يمكن اعتبار أية منها مطابقة للواقع من قريب أو بعيد. وسنورد فى أحد الفصول اللاحقة مادة تشهد أن تصور يسوع ذى الجسم الضعيف والواهن قد جوبه فى التقاليد المسيحية على امتداد عدة قرون بصورة الإنسان الرب القوى ذى البنيان الجبار. أما فى خصوص الشك فى الإدمان على الكحول فيمكن على هذا الأساس أى بدون أى أساس، جعل هذا الشك يشمل كل سكان البلدان ذات زراعة الكرمة وصناعة الخمور المتطورتين.

وكحجة على قصور يسوع الجسدى، وبالتالى النفسى، يورد بنينى ومينتس كذلك تصور احتمال عجزه الجنسى. إذ أن مينتس مثلا، لا يرى البرهان على ذلك فى كون الأناجيل لا تتحدث عن أى مظهر كان لميل جنسى عند يسوع فحسب، بل وفى كونه بقى أعزب حتى موته. لقد عاش فى بيت أبويه حتى بلوغه الثلاثين على الأقل، ولكنهما، على ما يبدو، لم يحاولا تزويجه. فى حين أن هذا يعتبر خطيئة كبرى حسب القوانين اليهودية!

وإذ يقتفى بينى ومينتس أثر ميلييه، يستشهدان بأن معاصرى يسوع كانوا يعتبرونه ممسوسا. ويجرى إيراد نص من إنجيل مرقس. "وبلغ الخبر ذويه فخرجوا ليمسكوه، فقد قيل، أنه ضائع الرشد. (٣ / ٢١). وصدر ى. مينتس مقالته بنص من أنجيل يوحنا: " فقال كثير منهم. إنه به مسا من الشيطان، فهو يهدى" (١٠ / ٢٠). وهكذا يعتبر المؤلفان أن شكوك معاصرى يسوع كانت مبررة تماما. ولو ظهر فى زمننا إنسان يتصرف على غرار يسوع " لسلم .. إلى يد الطبيب النفسانى لوضعه فى مصح للأمراض العقلية ... (٧٠).

إن فرضية بينى - مينتس لا تنطبق على يسوع المسيح وحده. فهما يعتبران أنه ربما كان كل مؤسسى الأديان والأنبياء وزعماء الحركات الدينية مصابين بالبارانويا. ويدخل فى هذه الطائفة كل من بوذا وزرذشت ومحمد وكريشنا وإلخ. وتاريخ الأديان هو، من وجهة النظر هذه، تاريخ تضليل أفراد من المجانين لملايين الناس المعافين وعدوى المصابين بالبارانويا للجماهير الشعبية الواسعة. لا ضرورة هنا لتفنيد هذا التاريخ " المجنون" للأديان بصورة شاملة. أما فى خصوص شخصية يسوع، فإن ارتجال وتهافت التصورات التى تبنى عليها نظرية " مرضه النفسانى، أمر واضح تماماً.

أحد أنبياء اليهودية ؟

(كما يراه ل. بيكوأ. ما يروا. كارمايكل)

أصبحت أمرا مألوفا منذ زمن بعيد، فبدت بحكم هذا دقيقة لا جدال فيها المعارضة المباشرة بين المسيحيةو اليهودية، بين يسوع نفسه وكل أنبياء العهد القديم اليهود الذين تنبأوا بظهور المسيح، ولكن بمثابة ظاهرة جديدة تماماً وخارقة. بيد أنه يوجد في الأدبيات مفهوم يقول بأن يسوع ما هو إلا إحدى الحلقات في سلسلة الأنياء اليهود.

نشرت مجلة " شبيغل" الألمانية الغربية في عام ١٩٦٦ مجموعة أقوال لعدد من الشخصيات الدينية والأدبية العبرية المعاصرة تؤكد انتماء يسوع إلى اليهودية (٧١). يعلن منظر سيدية الجديدة الشهير م. بوبير أنه كان منذ شبابه ينظر يسوع كأخ عظيم له. ويؤكد كل المؤلفين الآخرين الذين يستشهد بأقوالهم أنهم الآن أيضا ينظرون على هذا النحو إلى قضية الإنسان الذي يعتبر مؤسسا للمسيحية.

وهذا ما يكتبه، مثلا، الحاخام ل. بيك. " إن يسوع عبري خصال طبعة كلها. مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يترعرع إلا على تربة عبرية، عليها فقط، لا في أي مكان آخر. يسوع شخصية قوية بحق، كل تطلعاته وأعماله، أفكاره وشعوره، أحاديثه وصمته تحمل جميعها طابع العبرية، المثالية العبرية، و كان ولا يزال في العبرية، وما كان حينذاك في العبرية وحدها. كان عبريا بين العبريين. ما كان يمكن أن ينشأ كهذا من أي شعب آخر، وما كان يمكن أن يعمل وسط أي شعب آخر، و كان يستطيع أن يجد رسلا في أي شعب (٧٢). إذا ضربنا الصفح عن الروح القومية المكثفة التي تغلغل في الاستشهاد الذي أوردناه، فإن

مضمونه يتلخص من حيث الأساس فى أن يسوع لم يكن عبريا ويهوديا فقط، بل بقى كذلك.

وحتى أنه لم يكن، من وجهة النظر هذه، آخر أنبياء اليهود من حيث الزمن. فالكاتب ش. بن – خورين يعتبر يسوع سلف مؤسسى وأيديولوجى الخاسيدية، وهى حركة دينية بين العبريين ظهرت فى القرن السابع عشر فى غاليتسيا. يقول : " إن مكان يسوع هو ... بين الذين أحدثوا ثورة فى القلب، إلى جانب الرابى إسرائيل بال – شيم وقادة الخاسيدية العظام الآخرين. وكل ما فى الأمر أنه كان فى وضع ابن ضال صوره فى هذه الأمثلة الشهيرة. " إنه نفسه الابن الضال الذى عاد بعد ألفى سنة من التجوال فى الغربة إلى بيت أبيه، إلى شعبه العبرى، وإسرائيل القديمة تدعوه" (٧٣). إذن بأية صفة عاد أو يجب أن يعود " إلى شعبه العبرى" ؟ طبعا، بصفة إله أو حتى مخلص، بل مجرد " آخ عظيم".

يطلب أيديولوجيو اليهودية المعاصرون فصل " المسيح العبرى" عن المسيحية. يكتب المدعو ك. برونير. " لا يشبه يسوعنا يسوع المسيحية الرسمية إلا كما تشبه كوكبة الدب الأكبر الحيوان الذى يحمل التسمية نفسها. ومن هنا هذا الطب. " ارجعوا لنا يسوعنا !" (٧٤).

ليس المقصود، طبعا، " انتزاع" يسوع من المسيحية، بل التقارب بين الدينين إلى أقصى حد ممكن. ومنذ القرن الماضى طالب الكاتب العبرى ك. مونتيفيورى بتقريب اليهودية. إلى المسيحية، ومهادنتها للإنجيل، مع العلم أنه رأى الأساس لهذا فى أنه ينبغى النظر إلى العهد الجديد، أو الأناجيل على الأقل، كجزء من اليهودية، وإلى المسيح كنبى فى إسرائيل، وفى الوقت الحاضر يوجد فى الولايات المتحدة الأمريكية معبد خاص هدفه التقريب بين اليهودية والمسيحية. وفى عام ١٩٤٧ أقيمت فى مدينة زيليسبيرغ السويسرية" جمعية الصداقة اليهودية المسيحية" التى يقوم مؤسسها جول إسحاق بدعاية بسيطة إلى فكرة وحدة اليهودية والمسيحية. والأساس التاريخى الذى يقوم عليه هذا المفهوم هو المبدأ القائل بأن يسوع لم يكن إلا واحدا من أنبياء اليهودية.

نجد عرضا مسهبا لهذا المفهوم فى مؤلف المؤرخ الألمانى " ماير" منشأ المسيحية" الذى، صدر فى ثلاثة مجلدات. وسنورد أفكاره الأساسية التى تخص هذه المسألة (٧٥)

يعتبر ما يـر أن عقيدة يسوع الدينية لم تتجاوز إطار أراء الفريسيين المعاصرين لـه. والعنصر الأساسي لهذه العقيدة والتصور الثنائي لمملكة الرب بما فيها من جموع الملائكة، ولمملكة الشيطان المواجهة لها بما فيها من حشد الإبالسة، وهؤلاء الأخيرون يدبرون المكائد للناس بلا كلل، فيسكنون فيهم ويرسلون الأمراض ويكشفون عن وجودهم في " الممسوسين" متحدثين جهارا على ألسنتهم. وكان الفريسيون ويسوع على حد سواء يؤمنون بالحياة الآخرة ومجازاة الناس بجنات النعيم أو عذاب الجحيم. وكانوا يعترفون على حد سواء بحتمية قيامه الموتى ويوم الدينونة. وكان يسوع يعلل عادة أحكامه التي يعظ بها بالاستشهاد بأنبياء العهد القديم. فقد برهن، مثلاً، على قيامة الأموات باستشهاد من سفر الخروج. وكان يصر على أن " الشريعة كلها" ينبغي أن تنفذ. وإجمالاً، فإن يسوع، حسب رأي ما ير يقف تماما على تربة اليهودية، ولا تتجاوز مداركه إطارها. وهذا ما تؤكده أيضا كيفية وصف الأناجيل لسلوكه وعلاقاته بالمحيطين به، وكذلك طابع الإرشادات التي يعلمها للرسل

ويقول ما ير أن الوثنيين كانوا سواء عند أنبياء العهد القديم أو عند يسوع مجرد إضافة إلى العالم اليهودي. وهم لا يستطيعون نيل نصيبهم من النعيم إلا إذا أمنوا أي إذا انتقلوا إلى اليهودية من حيث الجوهر. وكان يسوع نفسه لا يتجنب الاتصال بالوثنيين وحدهم، بل بالسامريين أيضا. وحينما توجهت إليه امرأة كنعانية تسأله شفاء ابنتها، إجابها أنه " لا يحسن أن يؤخذ خزر البنين فيلقى إلى جراء الكلاب". وهو قول لا يقبل التأويل أبدا. اليهود أولاد الله، أما الشعوب الآخرى فكلاب. وإذ اعتبر يسوع رسالته عالمية، لم يشك في أنه لن يجتمع حوله اليهود وحدهم في نهاية المطاف، بل الشعوب الأخرى كلها. إن الأناجيل لا تتضمن، والحق يقال، أية معلومات تشير إلى أن يسوع قام أو كان ينوي أن يقوم بوعظ الوثنيين. وعلاوة على ذلك، كان يوجه رسلة مباشرة. " لا تسلكوا طريقا إلى الوثنيين ولا تدخلوا مدينة للسامريين، بل اذهبوا نحو الخراف الضالة من آل إسرائيل. وقد انتهك الرسل بفظاظة هذا الحظر المباشر، فهم، إذ رأوا فشل دعايتهم بين اليهود، ركزوا طاقة نشاطهم التبشيري على الشعوب الأخرى. ولكن هذا لم يكن ينبع إبداً من موعظة يسوع.

لا يعمم ما ير تطابق أراء يسوع مع إيمان الفريسيين وعقيدتهم إلا على مسلمات التعاليم الدينية وحدها. أما في خصوص فهم " جوهر الشريعة الداخلي وما يقوم على هذا من فهم لموقف الإنسان من الله"، فإنه يجد تعارضا مباشرا بين أراء يسوع، من جهة، وأراء الفريسيين، من الجهة الأخرى بيد أن هذا لا يخص قبول " الشريعة " أو نفيها، بل التباين في عمق تفسيرها.

لقيت أراء ما ير التي تم إيرادها تطويرا لها وتعليلا جديداً من نواح كثيرة في كتاب المؤلف الأميركي أ. كارمايكل " موت يسوع المسيح" الذي صدر في عام ١٩٦٣ وما لبث أن ترجم إلى عدة لغات (٧٦).

يلفت كارمايكل الأنظار إلى أن أنصار يسوع المسيح في أسفار العهد الجديد كلها يعتبرون أنفسهم يهودا بإصرار. ويستشهد بعدد من النصوص من هذا النوع ويعير اهتماما خاصا في هذا الصدد لأعمال الرسل. ومما له دلالته، على سبيل المثال، مشهد اصطدام الرسول بولس بمسيحيي أورشليم، قالوا له: ترى ، أيها الأخ، كم ألف من اليهود أمنوا وكلهم حافظو على الشريعة. بيد أنهم شرعوا على الفور في لومه على أنه يعلم العبريين المنتشرين بين الوثنيين " إلا يختنوا أولادهم ولا يتبعوا السنة" وينشب في صدد هذه المسألة صراع حاد، ولكن ما يهمنا هنا هو أن المسيحيين لاموا الرسول بولس على الاستهتار بقوانين اليهودية، فاضطر إلى أن يبحث لنفسه عن مبررات. أما الجيل الذي تعلم من يسوع مباشرة فكان يعتبر نفسه من باب أولى مرتبطا باليهودية وتعاليمها.

إن الصراع بين الاتجاهين في المسيحية – الذي كان يسعى إلى عدم قطع صلته باليهودية (البطرسية)، والذي أعلن القطيعة معها بجراة (البولسية) حقيقة معروفة للجميع. ولكن كار مايكل يوجه الانتباه على نحو معقول تماما على أن هذا يشهد على الطابع اليهودي تماما للمرحلة الأولى للمسيحية، بالتالي على الطابع إياه لموعظة المسيح نفسه.

ويتوصل كارمايكل إلى استنتاج قريب من هذا في مسألة التقيد بشعائر اليهودية أيضا. وهو يستشهد بذلك الموضع في الأعمال حيث يعلن الرسول بطرس باعتزاز أنه لم يدخل فمه قط نجس أو دنس، قاصدا بذلك على نحو واضح الطعام الذي حرمته تعاليم العهد

القديم على اليهود. ثم يتحدث عن الرؤى التى لمحت لبطرس بضبابية إلى عدم أهمية هذا المنع. ولكن هذا كان مرتبطا بمرحلة أخرى فى تطور المسيحية، أما الفترة الأولى لهذا التطور فلم يكن ثمة حديث عن ليبرالية كهذه.

وبالمناسبة كان يسوع، كما يعتبر كار مايكل، ضد التدقيق فى فرائض اليهودية الستمئة والثلاثة عشر بالنسبة إلى سلوك الإنسان فى الحياة. أو على الأصح كان يسوع، فى رأيه، لا يعتبر التقيد بهذه الفرائض ضمانة ضرورية وكافية لدخول ملكوت السماوات. وفى هذا الصدد يمكن تذكر أقوال الأنجيل التى تفيد أن ليس الإنسان للسبت، بل السبت للإنسان، وأن ما يدخل الفم لا ينجس، بل ما يخرج من الفم الخ. وما كان يفصل يسوع عن الفريسيين قبل كل شيء هو هذا الموقف الليبرالى بالذات إزاء قواعد الطقوس الدينية المعدة بدقة.

يقيم كارمايكل تأكيده حول الطابع اليهودى البحت لموعظة يسوع على رد الفعل الذى أثارته هذه الموعظة من جانب الرومان. من المعروف أن السلطات الرومانية كانت متسامحة جدا عموما إزاء مخالفيهم فى الدين ولم تكن، كقاعدة عامة، تلاحق معتنقى الأديان الأخرى. ولم تكن تهمها الأعمال والحركات الدينية بقدر ما كانت تهمها الأعمال والحركات السياسية. فلماذا الرومان اعتبروا من الضرورى التنكيل بيسوع طالما أنه كان " مجرد " مؤسس لدين جديد ؟ من الواضح أنهم فعلوا هذا، كما يقول كارمايكل، لأنه لم يكن يشكل بالنسبة إليهم خطرا دينيا، بل اجتماعيا.

ولم يكن فى وسعه أن يكون خطرا عليهم من هذه الناحية إلا إذا بقى على تربة اليهودية وحافظ على صلته بالشعب اليهودي وترأسه كليا أو جزئيا بمثابة زعيم دينى سياسي.

يبدو يسوع للمؤلف فى صورة نبى بالمعنى القديم يلهمه الله ويدعو الشعب إلى السير على درب الإله ليكون مستعدً لملكوت السماوات. بيد أن المسيح عزل نفسه بدرجة من الدرجات داخل اليهودية عن الأوساط السائدة والحاكمة للسكان العبريين. وقد حاول الاعتماد على الذين يسمون " الأمغاريتس، أى الناس غير المتعلمين، الجهلة، الأميين. وبتعبير أخرى، كان المسيح زعيم حركة ديمقراطية لجماهير العبريين الواسعة، فدعاها إلى

اتباعه كنبى على مستوى واحد مع أنبياء العهد القديم الذين يعرفهم الشعب بالاسم على الأقل.

وإذا كان الأمر كذلك، فهذا معناه، كما يستنتج كارمايكل، ما أن يسوع أتى من أجل إسرائيل فقط، ولا مجال فى زمنه لأن يكون الأمر على نحو أخر. وبعد موته فقط، فى خلال تطور المسيحية اللاحق فقدت الحركة طابعها السابق وأدخلت رتوش فى منابعها اليهودية تماما لأغراض دينية.

لا تخلو حجج كارمايكل من المغالاة واختيار الوحيد الجانب. أن الاتجاه اليهودي هو السائد فعلا فى نص الأناجيل. ولا يسلط يسوع نيرانه على اليهودية، بل على الفريسيين والكتبة لأنه يعزى إليهم، كما يمكن أن يفهم من الأناجيل، أثم تشويه شريعة موسى. وأنه لصحيح أن الكثير من إرشادات يسوع موجه نحو تحسين تنفيذ هذه الشريعة. وفى الوقت نفسه تحتوى الأناجيل أيضا على أثار لمعارضة يسوع تعاليم العهد القديم بتعاليمه. يقول للرسل. سمعتم أنه قيل للأولين ...، ويستشهد على الفور بهذه الوصية أو تلك من وصايا " موسى" العشر، ولكنه يعارضها بوصية من عنده. " أما أنا فأقول لكم ..." لقد قيل – لا تقتل ! – أما يسوع فيحرم حتى الغضب على إنسان أخر. قيل – لا تزن ! – ويسوع يحرم حتى النظر إلى المرأة بشهوة. العهد القديم يسمح بالطلاق، أما يسوع فإنه، إذ يستشهد بهذا السماح، يندد به على الفور من حيث الجوهر. ويرفض أيضا وصية جوهرية للعهد القديم، وهى " العين بالعين، والسن بالسن". وعوضا عن تنفيذ هذا التوجيه القاسى والذى لا يقبل التأويل أبدا، يعلم يسوع الناس على ألا يقاوموا الشرير وأن يعرضوا لمن يلطمهم على خدهم الأيمن الخد الأخر. ولا مجال للشك فى أن يسوع هنا يعارض بتعاليمه يهودية العهد القديم. أما كارمايكل فيضرب الصفح عن هذا الجانب الأخرى من العملة.

يمكن القول، طبعا، أن تلك المواضع فى الأناجيل التى لا تتفق مع هذه الفرضية أو تلك، والمقصود فى حالتنا هذه فرضية كارمايكل، قد ظهرت فى فترة متأخرة وأدرجت بعد أن انفصلت المسيحية عن اليهودية. ولكن هذا التأكيد يحتاج إلى براهين مستقلة عن هذه

الفرضية. وكارمايكل لا يوردها، متغاضيا في الوقت نفسه عن المواد التي تعارض مفهومه، الأمر الذي ليس في مصلحته.

ولا يقنع كذلك رأيه القارئ بأن الرومان لاحقوا المسيح لبواعث اجتماعية فقط، لا لبواعث دينية. فمن المعروف كما تقول الأناجيل، أن بيلاطس حتى عارض طلب إعدام يسوع ولم يوافق عليه إلا تحت ضغط الجموع الذين أقنعهم الشيوخ اليهود، فهم الذين أسبغوا أهم مغزى عن جانب المسألة الديني. ومن الجهة الأخرى، فإن خطر يسوع الاجتماعي – السياسي على مصالح الإمبراطورية الرومانية لم يكن ليضعف بل ازداد لو تلقت المطالب السياسية أساسا أيديولوجيا في دين جديد أو، على الأقل، في تيار اصلاحي لدين قديم.

وينفي كارمايكل بلا مسوغات كافية ادعاء يسوع الإنجيلي فضيلة المخلص. إذ تورد الأناجيل أقوالا كثيرة ليسوع يعرب فيها بوضوح كاف عن ادعائه هذا. إن ملامح المخلص في شخصية يسوع لا تجعله بحد ذاتها خارج نطاق الدين اليهودي. وهكذا! فإن اعتراف كارمايكل بها ما كان ليعارض مفهومه العام.

يبدو من الواضح على أي حال أن الشخصية التقليدية – الإنجيلية ليسوع المسيح لا تتفق وصورة الحاخام النبي اليهودي الذي ظهر للعالم تحقيقا لنبوءة العهد القديم وحاول فقط أن يدعم الأسس الدينية لليهودية التي كانت قد تزعزعت في زمنه.

الكوكب السماوي المجسد ؟

(كما يراه أ. نيمويبفسكي وأ. دريفس وآخرون)

ولد يسوع، حسب التقليد المسيحي، في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر). وفي الديانات القديمة الأخرى ولد الإلهان - المنقذان تموز - أدونيس وميترا في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) كذلك. فهل هذا التاريخ محض مصادفة ؟ وهل تطابقه في أديان مختلفة من قبيل المصادفة ؟ لعله جرى في ذلك التاريخ حدث هام في الطبيعة أو المجتمع ؟

نعم، إن هذا الحدث جرى ولا يزال يجري سنويا إلى الآن. ففي ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) يبدأ طول النهار بالازدياد. وهو ما يسمى بانعطاف الشمس، أي انعطافها نحو الصيف. وبتعبير آخر. " تولد" الشمس في تلك الليلة، إذ تجتاز تحت الأفق خط الزوال الأسفل في برج الجدي. والشمس هي مانحة الخير للبشرية، وهي التي تنقذها من برد الشتاء وكل العلل المرتبطة به، أنها لا تمنحها الدفء فحسب، بل تمنحها أيضا الخضرة اليانعة والحبوب والعنب والفاكهة، وتحمي وتمون كل شيء حي. أنها المنقذ. أما كان في وسع الشعوب القديمة أن تنظر إلى الشمس نظرتها إلى إله منقذ، وإلى الإلهة المنقذين الذين يتراوون لها في صورة بشرية نظرتها إلى الشمس؟ ولعله ينبغي أن نجعل هذه النظرة تشمل يسوع المنقذ أيضا ؟

هذا الافتراض يعززه واقع أن الجو الذي تصفه الأناجيل لولادة يسوع يخضع للتفسير في ضوء الكيفية التي تراءت بها نجوم السماء في عشية ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ٧٥٤

من يوم تأسيس مدينة روما، أى تلك الليلة التى ولد. فيها يسوع المسيح، حسب التقليد المسيحى.

فى ذلك الوقت كان يتلألأ فى الجزء الشرقى من الأفق البرج المسمى بالعذراء. لعل هذه "العذراء" هى التى ولدت الطفل الإلهى؟ وعلى مقربة من خط الزوال الأعلى فى برج السرطان تتألق نجوم المهد، أ وليس هو " المهد" الذى وضع فيه الطفل المولود ؟ وها هو نفسه ، على الأفق الغربى يتلألأ برج الحمل، وقد سمى يسوع بالحمل مراراً فى العهد الجديد. وغير بعيد يقع درب التبان، أنه الرعاة. أ ليسوا هم " الرعاة " أنفسهم الذين علموا بمولد ابن الرب، فقاموا بحجتهم لينحنوا له ؟ وهناك، على ما يبدو، كانت توجد أيضا القوى الشريرة التى تدبر المكائد للإله المولود. تحت الأفق، تحت قدمى برج العذراء مباشرة كمن برج رأس الحية الذى لابد و أن يكون الملك هيرودس نفسه. لعل كل تاريخ ميلاد المسيح عبارة عن تفسير رمزى للوحة نجوم السماء فى إحدى ليلى الشتاء فى الفلسطين ؟

ولكن إذا كان ذلك كذلك فمن المستبعد أن يكون تاريخ ميلاد يسوع شذوذا عن كل الجوانب الأخرى فى سيرته. ينبغى، بالتالى، البحث عن معادل سماوى نجمى لكل الملحمة الإنجيلية، وقد اتضح أن إيجاد ذلك ليس بالأمر الصعب.

نبدأ من " البشارة". ظهر رئيس الملائكة جبرائيل، كما هو معروف من الأناجيل، لمريم العذراء وأبلغها أنها ستلد مخلصا، وحسب فكرة النص الإنجيلى جرى على الفور " الحبل والدور الذى يؤديه، كما جاء فى الأناجيل، "روح مريم" الذى لم يكن الأب الفعلى لابن الرب.

كل ما قيل يطابق قصة البشارة والميلاد التى وصفها إنجيل لوقا. و نحصل على شىء مغاير إذا حولنا تفسير هذه الأحداث فلكيا وفق وصف أنجيل متى. ولكننا " نحصل" أيضا بيد أنه ينبغى ألا نعتبر روح القدس ولا رئيس الملائكة جبرائيل رمزا للشمس، بل يسوع المولود نفسه، وهذا أفضل، لأنه أقرب إلى طابع الحدث، فالشمس هى التى تولد، فى هذا الشرح يفسر جبرائيل باعتباره القمر.

ويبدو بوضوح خاص الطابع السماوى لقصة ميلاد المسيح بالشكل الذى يعرض به سفر الرؤيا هذه القصة. "ثم ظهرت أية بينه فى السماء. امرأة ملتحقة بالشمس والقمر تحت قدميها، على رأسها أكليل من اثنى عشر كوكبا، حبلى تصرخ من ألم المخاض. وظهرت فى السماء أية أخرى. تنين عظيم أشقر ... ووقف التنين قبالة المرأة الماخض. وظهرت فى السماء أية أخرى: تنين عظيم أشقر... ووقف التنين قبالة المرأة الماخضة ليبتلع ولدها حين تضعه. فوضعت ولدا ذكرا وهو الذى يسوق الأمم بعصا من حديد... فطرد إلى الأرض التنين العظيم ... فأوتيت المرأة جناحى نسر عظيم... (الرؤيا ، ١٢/١-٩) فى الرؤيا، كما هو معروف، لا يوجد عرض واضح لسيرة يسوع المسيح، وهكذا فإن الولد الذى وصف ميلاده هنا لم يذكر بالاسم، ولكن ينبغى، طبعا، أن يؤخذ فى الاعتبار أنه ليس إلا يسوع. والقول الذى استشهدنا به يمكن بسهولة أن يفسر بواسطة لوحة السماء ذات النجوم. المرأة الملتحقة بالشمس هى، طبعا، برج العذراء، أنها تنتظر ولادة الطفل. وهناك برج التنين وحتى الجناحان اللذان زودت بهما أم الرب لهما تفسيرهما. لم يكن من النادر فى الرسوم القديمة أن يصور برج العذراء على شكل امرأة مجنحة.

بلا دنس بالإنسان الرب. فإذا كان قد ولد فى ٢٥ كانون الأول (ديسمبر)، فمن الواضح أن تاريخ الحبل ينبغى أن يعتبر ٢٥ أذار (مارس). وعلى الرغم من أن الحبل كان بلا دنس، ألا أنه استغرق فترة الأشهر التسعة المألوفة لدى البشر. وهكذا فما الذى جرى فى السماء بتاريخ ٢٥ أذرا (مارس) ؟

فى هذه الليلة تدخل الشمس فى خلال حركتها المرئية السنوية عبر بروج الأفلاك فى برج العذراء. وإذا اعتبرنا أن الشمس هى روح القدس أو، فى أسوأ الأحوال، رئيس الملائكة جبرائيل نفسه، فإن دخولها فى العذراء سيكون على وجه التحديد أساسا سماويا للقصة الدنيوية حول نشوء الطفل يسوع فى بطن مريم العذراء.

وإذا تتبعنا أنجيل لوقا فإن الموازاة تبدو هنا أقرب وأشد الحاحا. فقد قيل هناك أنه " فى الشهر السادس أرسل الله الملاك جبرائيل... إلى العذراء... ويمكن بنظرة إلى السماء تفسير الحاجة إلى الأشهر الستة هنا. يرى بعض العلماء أن "بيت" جبرائيل يقع، من وجهة

نظر المنجمين القدماء، في برج السمكة. ولكن يصل رئيس الملائكة إلى برج العذراء يجب أن يجتاز نصف دائرة الفلك، أي ستة أبراج، والشمس تمكث، كما هو معروف، شهرا في كل برج. ولهذا فإن عليها (أو على جبرائيل الذي يرمز إليها) أن تمضي في جولتها ستة أشهر بالذات.

ولكن أين توارى يوسف التعيس، زوج أم الله ؟ أن له مكانا في السماء ذات النجوم. إذ يوجد قرب العذراء برج العواء. إنه يرافق العذراء دوما، ولكن علاقته بها مع ذلك غير مباشرة، والعواء لا يدخل دائرة الفلك، فهو يقع خارجها ويحضر كل تقلبات العرض السماوي – الأرضي ولكن بصفة مراقب غريب، وأن كان مستحبا ولطيفا. وهذا يتفق.

يمكن إيجاد مواز سماوي لكل الوقائع الواردة في الأناجيل لسيرة يسوع. وهذا، مثلاً، مشهد "التقريب"، أخذ الطفل يسوع إلى الهيكل، حيث قابلة الشيخ سمعان مع النبية جنة. وهذان الزوجان بالذات هما نقطة الانطلاق لكل الاستقصاءات هنا. فمن في السماء يستطيع أن يضطلع بدورهما ؟ برج التوأمين الذي لم يكن من النادر أن يصور على شكل زوجين مسنين. امرأة ورجل. يدخل القمر في لحظة من حركته السنوية برج التوأمين الذين "يستقبلانه". إن العلماء الذين يتخذون مواقف الشرح الفلكي للأناجيل يتتبعون الأسطورة حتما بأدق تفاصيلها ويجدون تفسيرا "سماويا" لكل هذه التفاصيل. لماذا يحمل سمعان يسوع على ذراعيه، ما هو أصل اسمي مقتبلي الرب، لماذا يشير الإنجيل بهذه الدقة إلى منشأ جنة وبعض جوانب سيرتها. "ابنة فانوئيل من سبط أشير، "عاشت مع زوجها سبع سنوات بعد بكارتها، ثم بقيت أرملة فبلغت الرابعة والثمانين من عمرها ... (لوقا، ٢/٣٦). لكل هذا تفسيره الفلكي.

في إنجيل يوحنا، قابل يسوع امرأة من السامرة وتحدث معها. وحينما طلب منها دعوة زوجها، فإجابت أن لا زوج عندها، قال لها." اتخذت خمسة أزواج، وأما الذي يصحبك اليوم فليس بزوجك" (يوحنا، ١٨/٤). إنه أمر عادي ومحتمل تماما، ولكن الباحثين عن التفسيرات الفلكية يجدون له شرحا فلكيا في غاية التعقيد. السامرية هي برج العذراء، طبعا.

ويمر عبرها على التوالى خمسة من الكواكب - الأزواج. عطارد، المريخ، الزهرة، المشترى، زحل. ثم يأتى دور القمر، وهذا الأخير لا يضطلع بدور " الزوج ".

يقول يسوع فى إنجيل متى: من منكم إذا سأله ابنه " سمكة أعطاه حية ؟" (متى ١/٧). ليس المقصود هنا كما. يقول المفسرون الفلكيون، سمكة حقيقية أو حية حقيقية، بل برجا السمكة ورأس الحية. ولكن ليس من المفهوم لماذا يبحث عن مغزى غامض مرتبط بالأجرام السماوية، عوضا عن المعنى المباشر الذى لا يثير الالتباس. وفى إنجيل لوقا يعطى يسوع الرسل"سلطانا تدوسون به الحيات العقارب وكل قوة للعدو" (لوقا، ١٩/١٠) ويوصى بفهم هذا الموضع على نحو فلكى. فوق برجى رأس الحية والعقرب يوجد برج هرقل، ومن السهل تصور ذلك الجبار يدوس الأول بقدم والثانى بالأخرى.

لماذا ليسوع ١٢ رسولاً ؟ للسبب نفسه الذى جعل للأب الأكبر يعقوب ١٢ ولدا أصبحوا فى ما بعد المؤسسين لأسباط إسرائيل الإثنى عشر. المقصود فى الحالتين هو أبراج السماء الأحد عشر التى كان أحدهما مزدوجا، وهو التوأمان. والشمس فى حركتها المرئية السنوية تمر عبر كل هذه الأبراج على التوالى وهكذا، فإن الشمس - يسوع تدور حول الأبراج - الرسل.

يمكن للمثلين الذين سنوردهما لاحقا أن يبينا أية تفسيرات فلكية عجيبة ومصطنعة يلجأ إليها أنصار المنهج الذى أتينا على ذكره.

جاء فى الأناجيل أن يسوع أطعم جمعا من خمسة آلاف رجل سمكتين وخمسة أرغفة، وقبل ذلك أعرب الرسل عن نيتهم أن يشتروا لهذا الغرض خبزا بمئتى دينار. أما التفسير السماوى لهذه المعجزة التموينية فهو على النحو التالى. أن برج العذراء الذى يصور بفتاة تحمل سنابل قمح فى يدها حينا يقع فى الأفق الشرقى يوجد مقابلة فى الغرب برج السمكتين، وتقطع الشمس المسافة بين هذين البرجين فى غضون ١٩٥ - ١٩٦ يوما (أى قرابة ٢٠٠ يوم)، ومن هنا الدنانير المئتان. أما الأبراج المذكوة الخمسة الواقعة على هذا الطريق - أوريون، العوا، العناز، زساوس، قيفاوس، فتعنى الخمسة آلاف رجل....

والأعجب من هذا هو التفسير الفلكي لذلك الموضع من أنجيل يوحنا، حيث يعلن يسوع أنه يستطيع أن يبنى الهيكل فى ثلاثة أيام، فيعترض محدثوه بأن هذا الهيكل بنى فى ٤٦ سنة. ويستند المفسرون الفلكيون هنا إلى أن الرقم الأخير لا يطابق الواقع عمليا، بل يقدمون تفسيرهم. إذ قسمت، كما يقولون، دائرة قبة الفلك إلى أربعة أجزاء، فتنال هذه الأجزاء التسميات اليونانية المطابقة. الشمال – أركتوس، الغرب – ديوسيس، الشرق – أنا تولى، الجنوب – ميسيمبريا. والأحرف الأولى لكل من هذه التسميات تتضمن المعانى العددية التالية. ٢ = ١ ، د = ٢,٤ = ١، م = ٤٠، والحاصل ٤٦ ...

وبالوسائل نفسها تفسر أيضا خيانة يهوذا للمسيح. كان اسم يهوذا عند العبريين القدماء يرمز إلى الأسد، ومن الواضح، بالتالي أن المقصود هو برج الأسد. والشمس – يسوع تدخل برج الأسد – يهوذا، ثم تتوجه إلى برج الميزان، والميزان كان دوما رمزا للقضاء. ومن "بيت القضاء" يتوجه إلى برج العقربة أو إلي " بيت الموت ". وهكذا، فإن نقطة بداية طريق يسوع إلى الموت هى يهوذا، فهو برج الأسد. ويسهل هنا اكتشاف مصدر الثلاثين من الفضة السيئة الذكر أنها تلك الأيام الثلاثين التى يحتاجها يسوع – الشمس للانتقال من برج الأسد إلى برج العذراء الواقع على الطريق إلى برج العقرب. لعل القارىء قد ضاع فى متاهة الرموز وتفسيراتها. وعزاؤه الوحيد أن الأمر ليس أسهل على المؤلف. ونورد فى الختام هذا التفسير البسيط. لماذا قام يسوع بعد صلبه بثلاثة أيام ؟ لا شيء إلا لأن القمر بعد أن يصبح هلالاً يغيب ثلاثة أيام بالذات. ثم يظهر و"ينبعث" من جديد....

يمكن فهم تعقد وتكلف الشروح الفلكية إذا وضعنا أنفسنا مكان مؤلفيها الذين لا هدف لهم إلا أن يجدوا مهما كلف الأمر أساساً سماوياً لكل حادثة فى الإنجيل تقريبا. لقد وضع المؤرخ والكاتب البولندى أ. نيمويفسكى تفسيرا فلكيا لمئة نص إنجيلي. وكتب المؤلف الألمانى أ. شتوكين تعليقات فلكية لكل العهد القديم تقريبا. ويوجد عدد كبير من الكتب المكرسة للبرهان على أن الأناجيل كتبت وفق مخطط تكمن فى أساسه حركة الشمس أو القمر (متى وفق الشمس، ولوقا وفق القمر) عبر أبراج دائرة الفلك.

أرسى أساس هذه النظرية العلماء الفرنسيون من أواخر القرن الثامن عشر، ثم انضم إليهم عدد كبير من الباحثين الغربيين والروس، بينهم علماء كبار مثل غ. فينكلير، أ. بيريمياس، أ. دريفس، أ. نيموييفسكى. وفى الأدبيات العلمية الروسية اتخذ الثورى – عضو منظمة "نارودنايا فوليا" والعالم المتعدد المواهب ن. موروزوف مواقف فلكية متطرفة. وقد خالف في بعض الأمور منظرى الفرضية الفلكية الرئيسيين. فهم يعتبرون المسيح أسطورة بحتة لا يعدو كونه، من وجهة نظرهم، كوكبا مجسدا. أما موروزوف فيعترف بوجود أصل تاريخى لهذه الشخصية، ولكنه ينقله إلى ثلاثة قرون إلى الأمام ويجعله واللاهوتى المسيحى باسيليوس الكبير شخصا واحدا. ولكن هذا لم يكن جوهريا، لأن موروزوف يجد فى سيرة المسيح، التى أرستها التقاليد المسيحية، الرموز الفلكية نفسها التى وجدها الأنصار الأساسيون لهذا المفهوم.

على الرغم من بعض الأفكار السليمة الواردة فى مؤلفات أنصار الاتجاه الفلكى للباحثين فى حياة المسيح، لا يمكن اعتباره إجمالاً حلاً صحيحا لقضية منشأ شخصية المسيح. إن المبالغات العديدة والتقريب الكيفى بين ظواهر لا يجمعها أى جامع والتلاعب المنطقى الذى يتخذ فى بعض الأحيان أشكالا بهلوانية مباشرة تجرد جميعها الفلكية من المغزى العلمى الجدى.. أما الأمر الرئيسى، فهو انعدام المنطقية تماماً. فى نقطة انطلاق كل طروحات المنهج الفلكى الذى تنعكس بناء عليها فى الأساطير والخرافات الدينية وقائع وأحداث لم تجرى فى حياة الناس الواقعية فى الأرض، بل فى أعماق الكون الخفية، البعيدة عن الإنسان نسبياً، بين النجوم والكواكب التى كان يمارس دراسة طرقها " منجمون" ومنفردون من علماء وكهنة.

أى "الوجوه" يعتبر حقيقيا ؟

مرت أمامنا مجموعة كاملة من أشكال لصور المسيح مرتبطة بفهم متباين ومتضارب فى أحيان كثيرة لشخصيته وتعاليمه ودوره فى التاريخ. ومن الواضح أن عرضنا لا يستنفد كل الأشكال القائمة، بيد أن استنفادها، كما يبدو، أمر مستحيل. ولكن إذا اقتصرنا على المجموعة التى أتينا على ذكرها وطرحنا السؤال الوارد فى عنوان هذه الفقرة، فكيف نجيب عنه ؟

الجواب صعب جدا. وقد حاول المؤلف، قدر الإمكان، إلا يعطى تقديرا حاسما لأية من النظريات التى قمنا بذكرها ووصفها، مقتصرا على بعض الملاحظات حول التناقضات الداخلية التى تعانيها هذه النظرية أو تلك، أو حول بعض الحقائق التى لا تتفق معها وفى ما عدا ذلك أردت أن أترك للقارئ المجال ليتمعن بنفسه فى جوهر الأمر، مستخدما معلومات المؤلف وبعض التصورات "المساعدة" التى كان لابد من الأعرب عنها. ولكن ما هو الجواب عن السؤال المطروح، إذا لم نشأ التخلص منه ؟

إنه ليستحيل أن نجد فى النظريات المذكورة واحدة تخلو هفوات جذرية وعيوب داخلية تجعل الموافقة عليها أمرا مستحيلا. وأكثر هذه العيوب نموذجية. النظرة الوحيدة الجانب وتفسير المسألة فى ضوء بعض المعطيات وتجاهل الأخرى المناقضة للأولى. ويمكن هنا المقارنة برسم صورة جانبية لشخص لا تناسق فى وجهة أو فاقد لإحدى عينيه. إذا رسمنا له صورة جانبية فإن هذه الصورة لن تكون صحيحة من أى جانب أخذت. والأسلوب الوحيد الصحيح فى هذه الحالة هو رسم صورة أمامية. ولكن ستبدو الصورة حينذاك

معوجة أو الوجه خاليا من الاتساق! نعم، ولكن هذا سيكون تصويرا واقعيا. ومعضلة كل الأشكال التى أوردناها لصورة المسيح تتلخص على وجه التحديد فى كون المؤلفين يتناولونه من جانب واحد، فهم يستخدمون ملامح معينة لصورته واردة فى العهد الجديد ويتناسون الملامح الأخرى أو يعلنون أنها غير جوهرية.

بالنسبة إلى ل. تولستوى ليست جوهرية ولا مقبولة تلك الخصال فى وصف يسوع التى يتصرف فيها كإنسان غاضب وغير متسامح لا يستخدم أحيانا الكلمات المقذعة فحسب، بل يعمل أيضا بالسوط والتهديد ويتوعد باستخدام السيف. أما أ. فيدينسكى، فعلى العكس من ذلك، يهمه طمس دعوات يسوع إلى عدم مقاومة الشر ومدحه " البؤساء روحيا " ودفاعه عن السلبية. ويترك ك. كاوتسكى جانبا أقوال يسوع التى يدعو فيها إلى إعطاء ما لقيصر لقيصر، أما المطران أ. خرابوفيتسكى فيغمض العين عن تنديد المسيح بالثروة والأثرياء. ولعل هذا التناول "الجانبى" يتجلى عند كل المؤلفين الذين أوردنا أراءهم فى شخصية المسيح. وهو لا يناسب، طبعا، الحل العلمى الموضوعى للمسألة.

(ينبغى تفسير شخصية المسيح بكل تناقضها بغض النظر عما إذا اعتبرناها وليدة خيال دينى أو شخصية تاريخية حقيقية).

الهوامش:

(١) المطران ماكارى. اللاهوت المتحجر الأرثوذوكسى. سان بطرسبورغ، ١٩٠٦، ص ١٨٧.

(٢) ف.م. دوستويفسكى. المؤلفات الكاملة، المجلد ٨، موسكو، ١٩٧٣، ص٤٥٠.

(٣) المصدر السابق، المجلد ١٠، ١٩٧٣، ص ١٩٧.

(٤) المصدر السابق، المجلد ١٤، ١٩٧٦، ص ٢٢٤ وما يليها.

(٥) ف.م. دوستويفسكى. يوميات الكاتب. سان بطرسبورغ، ١٨٧٧، ص٢٩٠.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) ل.ن. تولستوى. المؤلفات الكاملة، المجلد ٢٣، موسكو، ١٩٥٧، ص٢١٩.

(٩) المصدر السابق. المجلد ٢٣، ص٢٠١.

(١٠) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص ٨٠٩.

(١١) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص٨٠٤.

(١٢) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص٨١٠.

(١٣) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص٨٧٣.

(١٤) المصدر السابق، الجلد ٢٣ ص١٧٢.

(١٥) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص١٩٧.

(١٦) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص٤٠٠.

(١٧) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص٢٩٢.

(١٨) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص ٢٩٥.

(١٩) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص ١٨٧.

(٢٠) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص٨٢١.

(٢١) المصدر السابق.

(٢٢) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص ١٨٧.

(٢٣) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص٨٠٧.

(٢٤) المصدر السابق، المجلد ٢٤، ص ٨٤١.

(٢٥) المصدر السابق، المجلد ٢٣، ص ٣١٥.

(٢٦) المصدر السابق.

(٢٧) أ.ف. لوناتشارسكي. المسيحية أو الشيوعية. مناقشة. لينينغراد، ١٩٢٦، ص٢٧.

(٢٨) المصدر السابق، ص ٣٠.

(٢٩) E. Cabet. Voiyage en Icarie. Paris, ١٨٤٢, P. ٤١٧ – ٤١٨.

(٣٠) K. Kautsky. Der Ursprung des Christen – tums. Berlin – Stuttgart, ١٩٢٣, S. ٤٣٣. Ibid. S. ٤٠٣.

(٣١) Ibidem.

(٣٢).

(٣٣) راجع. أ.ف. لوناتشارسكي يتحدث عن اللادينية والدين. موسكو. ١٩٧٢، ص٢٥٧.

(٣٤) R. Rolfes. Jesus und das Proletariat. Dusseldorf. ١٩٨٢.

(٣٥) ك. ماركس وف. انجلس. المؤلفات، المجلد ١، ص ٥٣٢.

(٣٦) E.Renan. Vie de Jesus. Paris, ١٩٧٤.

Preface de la treisiem edition, p. ٣٨. Ibidem.

(٣٧) Ibid., p. ٢٨٥.

(٣٨) Ibid., p. ٢٨٤.

(٣٩) Ibid., p. ٢٨٧.

(٤٠) Ibid., p. ٢٨٩ – ٢٩٠.

(٤١) Ibid., p. ٢٣٨.

(٤٢) Ibid., p. ٢٢٤.

(٤٣) Ibid., p. ٣٥٧.

(٤٤) Ibid., p. ١٦٨ –١٦٩.

(٤٥) Ibid., p. ٣٤٠ – ٣٤١.

(٤٦) Ibid., p. ٢٦٢.

(٤٧) Ibid., p. ٣٠٧.

(٤٨) Ibid., p. ٣٠٥.

(٤٩) Ibid., p. ٣٠٥ – ٣٠٦.

(٥٠) Ibid., p. ٣٠٦.

(٥١) Ibid., p. ٢٣٢.

(٥٢) Ibid. , p. ١٩٢.

(٥٣) Ibid., p. ١٩٥.

(٥٤) Ibid., p. ٣٣٠.

(٥٥) Ibidem.

(٥٦) Ibid. , p. ٣٧١.

(٥٧) J. Meslier. Le testament. Amsterdam, ١٨٦٤, v. ٢, p. ٤١.

(٥٨) Ibid., p. ٤٢.

(٥٩) Ibidem.

(٦٠) Ibid., p. ٤٤.

(٦١) Ibidem.

(٦٢) Ibid. , p. ٤٦.

(٦٣) Ibid. , p. ٦٨.

(٦٤) Ibid., p. ٥٥.

(٦٥) Ibid., p. ٦٣.

(٦٦) A. Binet – Sangle. La folie de. Jesus Crist, Paris, ١٩١٠.

(٦٧) " الأرشيف الأكلينيكي للعبقرية والموهبة "المجلد ٣، الإصدار ٣، لينينغراد ، ١٩٢٧، ص٢٤٤.

(٦٨) المصدر السابق.

(٦٩) المصدر السابق.

(٧٠) " Der Spiegel", ١٩٦٦, Nr. ٩, S. ٨٤.

(٧١) المصدر السابق.

(٧٢) المصدر السابق.

(٧٣) المصدر السابق.

(٧٤) Ed. Meyer. Ursprung und Anfange des Chri – stentums. Stuttgart, Bd. ٢, ١٩٢١, S. ٤٢٠ –٤٥٣.

(٧٥) العرض والاستشهادات هنا بناء على كتاب كارمايكل من سلسلة مواد من نصه مترجمة إلى الألمانية في مجلة (١٣-٦ .Nr ,١٩٦٦) "Der Spiegel" اسم الكتاب في الأصل هو:

Y. Carmi chael. The Dearth of Jesus. London, ١٩٦٣.

٣ - هل وجد فى الواقع ؟

إن مسألة ما إذا كان الشخص، الذى دخل التاريخ باسم يسوع المسيح، قد وجد فى الواقع بقيت أمدا طويلا مادة لمناقشات حامية وضارية. ويبدو إن حدة هذه المناقشات قد خفت فى العقود الأخيرة. ومع ذلك فإن مسألة تاريخية المسيح أو أسطوريته لا تزال إلى الآن تثير الجدل فى الأدبيات العلمية والمبسطة. ولا نستطيع، طبعا، تجنبها فى هذا الكتاب، فهى مرتبطة بموضوعة ارتباطاً وثيقا.

ينبغى تناول حلها بصورة موضوعية تماما، بدون أى حكم مسبق، وبدون المبالغة والمغالاة اللتين تنبعان عادة من محاولة الإيحاء إلى القارئ باستنتاج مقرر سلفا مهما كلف الأمر.

مواقف وحلول غير مقبولة

نفى لا أساس له وفقا لاعتبارات أيديولوجية مزيفة

هل ترتبط النظرة اللادينية بنفى تاريخية المسيح بالضرورة ؟ كلا، أبدا.

فى وقت مضى أسبغت الأدبيات الصادرة فى الاتحاد السوفيتى على هذه المسألة مغزى يتسم بالمغالاة. أن جملة من الكتب والكراريس الصادرة فى العشرينات والثلاثينات أكدت بلهجة جدال حادة أن يسوع كشخصية تاريخية لم يوجد أبدا ولا يمكن ان يوجد، وأن كل من يعترف به يسير فى ركاب رجال الدين. يمكن فهم الشكل الذى كان منطق النضال الادينى فى ذلك الحين يدفع به المساهمين فى هذا النضال إلى حدود أبعد بعض الشىء مما تسمح به مقتضيات الموضوعية العلمية. ولكن، من بعد مضى عدة عقود، تتوفر لنا الإمكانية الكاملة لأن نبحث فى المسألة ضمن أطر هذه المقتضيات.

وفى الواقع، لماذا لا يمكن أن يوجد يسوع كشخصية تاريخية ؟ لقد وجد فى أوقات مختلفة أناس مختلفون بأسماء كثيرة، وقد يكون أحدهما شخصا يحمل اسم يسوع أو يشوع ومن المعروف أن هذا الاسم كان منتشرا على نطاق واسع بين العبريين القدماء. والناس هم الذين يؤسسون كل حركة دينية أو أية حركة اجتماعية أخرى، ولا يمكن أن تستثنى المسيحية من ذلك. لقد كان هناك أناس أسسوا هذا الدين. فلماذا لا يكون شخص اسمه يسوع واحدا منهم، أو حتى الرئيسى بينهم ؟

وأنه لأمر أخر كون هذه الصورة الإنسانية العادية قد اكتست لاحقا، بعد موته، ملامح " تأليه" مشوه خرافي في تصورات المؤمنين. ولكنه لا ينجم عن هذا أنه لا مجال للوجود ذلك الإنسان نفسه الذى حيكت حوله بعد موته الكثير من الأساطير والخرافات.

أما فى خصوص علاقة هذه المسألة باللادينية والمادية، فإن المعارضة المباشرة هنا وفق مبدأ "أما اللادينية وأما الاعتراف بتاريخية المسيح" هى محصلة سوء تفاهم. إن الاعتراف بالمسيح الآلة يتناقض مع المادية واللادينية – هذا لاشك فيه. ولكن لا توجد مطلقا أقل مسوفات لطرح المسألة على النحو نفسه فى صدد وجود يسوع الإنسان. فنحن لا نعتبر تأكيد تاريخية محمد أو القديس فرنسيس لا سيزى، مثلا، موجها ضد اللادينية ! إن إمكان وجود الإنسان يسوع فى الواقع التاريخى أمر لا يتطرق إليه الشك وما يهم علم التاريخ هو أمر أخر. هل توجد أسس لاعتبار أنه وجد ؟

هذا السؤال يكمن فى مجال علم التاريخ بالذات ؟ وإذ ننوه بهذا، نريد القول أنه لا ينطوى على مغزى عقائدي فلسفي، وأن الاهتمام الذى يثيره تاريخى – ملموس. ولكننا لسنا معنيين على الإطلاق سواء فى القضايا الفلسفية أو التاريخية بتشويه الحقيقة وإدخالها في أحكام نظرية معدة سلفا. وبالتالى، فإن المهمة تتلخص هنا أيضا فى أن نزن بموضوعية كل الحقائق المعروفة للعلم، ومحددين، إلى جانب ذلك، ما هى المسوفات التى تجعلنا نتوقع اكتشاف وقائع جديدة يمكن أن تساعد على تغيير التصورات المتكونة عندنا.

يجب علينا في هذه الحالة أن نعين الاستنتاجات التى يمكن التوصل إليها فى مسألة تاريخية وأسطورية يسوع المسيح، معتمدين على الحالة الراهنة لعلم التاريخ وعلى المصادر التى يعمل بها بيد أنه ليس من المستبعد أبدا أن تغير اكتشافات علمية فى المستقبل اللوحة التى ترتسم الآن وتجعلنا نتوصل إلى استنتاجات مغايرة لتلك التى نتوصل إليها حاليا.

والتأكيد غير المدروس وغير القائم على البراهين ليس أفضل من النفى بلا أساس ومسوفات.

تأكيد لا أساس له وفقا لاعتبارات كنسية - لاهوتية

حضرت مناقشة جرت فى حينها بين أ. لوناتشارسكى والمطران فيدينسكى حول مسألة شخصية المسيح، وكان الدافع إلى المناقشة ظهور كتابين لباربيوس مكرسين للمسيح(١).

فى إحدى أمسيات خريف عام ١٩٢٧ غصت صالة المسرح التجريبى فى موسكو بالحضور. كان الجمهور متنوع المشارب والألوان، وكان ذا وجهين فى ناحية واحدة. فمن جهة، أتى إلى المناقشة مثقفون غير مؤمنين بأغلبهم أو يسعون على أى حال إلى أن يدركوا بتجرد فحوى النقاش الذى كان يبدو علميا وحافلا بالعبر من الناحية العقائدية. ومن الجهة الأخرى، كان هناك الكثير من المؤمنين، بل ومن ممثلى رجال الدين الأرثوذكسى وغير الأرثوذكسى. وعلى الرغم من أن فيدينسكى كمرتد عن الأرثوذكسية التيخونية لم يكن يتمتع بشعبية لدى الفئات الأساسية لرجال الدين الأرثوذكس الروس، فقد كان هنا على أى حال يتحدث بمثابة معاد للتطاولات اللادينية على التعاليم الكنسية حول شخصية المسيح، ولذا حظى بدعم كل الحاضرين من المؤمنين ورجال الدين.

لم يتحدث المطران كنصير مطلق للموقف الذى كان يتخذه باربيوس. وقد أشار منذ البداية إلى أن المسيح بالنسبة إليه " إله مطلق مولود فى جسد"، أما الآخرون فقد ينظرون إليه كعالم، وكشخصية اجتماعية ناجحة أو فاشلة، وكداع خلقى إلخ. ويبدو أنه كان يضع ضمن إحدى هذه المجموعات باربيوس الذى لم يكن يسوع بالنسبة إليه طبعا، " إلها مطلقا" ومع ذلك أعرب فيدينسكى عن وده للشيوعى واللادينى باربيوس لأنه يعترف بالوجود التاريخى للمسيح، ولأنه، إذ ينظر إلى شخصيته بشكل صحيح أو غير صحيح، يصرح

بحبه له. يمكن فهم فكرة فيدينسكى فهو كأنما يقول أنه حتى هذا أمر حسن فى عصرنا الملحد. أن فيدينسكى، وقد أبدى معارضته لباربيوس فى طروحاته الفلسفية العامة، وضع مهمة له تعزيز المبدأ القائل بالوجود التاريخي ليسوع المسيح.

لا يقوم الخطيب بتحليل المصادر التاريخية، ولا يدحض اعتراضات خصومه المحتملين، بل ولا يحاول حتى مناقشة الحجج التى صاغها مقدم التقرير. ويختار فيدينسكى الاستشهاد بأصحاب الحجة والرأى منهجا أساسيا ليوحى بآرائه إلى المستمعين. وتنطلق من شفتيه بصورة متلاحقة أسماء غارناك، سودين، غوتليب كلين، سوريل، أدوارد ماير والكثيرين غيرهم من المؤرخين والفلاسفة واللاهوتيين الذى اعترفوا بالوجود التاريخي للمسيح. ومنطلق هذه "الحجج" يبدو على الشكل التالي. لقد اعترف أناس مشهورون كهؤلاء، فكيف تستطيعون الإنكار ؟!

كان هذا يبدو غير مقنع حتى لأنصار فيدينسكى، وقد تكدروا بعض الشيء، ولم يكن يدب فيهم النشاط إلا فى أكثر مواضع كلمة الخطيب إثارة، حينما يطلق نكتة ذكية، أو يجرى مقارنة جريئة وساطعة ويستخدم بمهارة سلاح السخرية المرهفة، هنا كانوا ينطلقون بالتصفيق. ولكن ينبغى البرهان على شيء ما والتفنيد المنطقى لشيء ما ! ليس معروفا إلى أى من المعسكرين ينتمى ذلك الذى أطلق من الشرفة تحديا لفيدينسكى فى اللحظة التى كان يتحدث فيها عن قناعته الراسخة بخطأ لوناتشارسكى.

– برهنوا !

هنا قام الخطيب بمناورة تبدو كأسلوب لصد هجوم العدو، ولكنها كانت فى الواقع مجرد تغطية لاستسلامه المباشر. فقد رد فيدينسكى على الصوت الذى طالبه بالبرهان قائلاً:

– البرهان من كل الجوانب يجب أن يكون المستمعون، لا الخطيب وحده، مسلحين بكل المعارف الفيلولوجية واللاهوتية. ولكن قاعتنا ليست ندوة لكلية التاريخ والآدب.....

لم يكن يستطيع أن ينكر معارف خصمه الفيلولوجية، ولكنه قام بتلميح واضح أن لوناتشارسكى ليس لاهوتيا. أما فى خصوص المستمعين، فإن المطران لا يشك فى فهمهم

للاهوت فحسب، بل للفيلولوجيا أيضا. ولهذا فلا حاجة لأن يقوم هنا بالبرهان على أرائه، ويكفي أن يتفضل بعرضها على نحو مبسط. وليؤكد أنه لا ينبغي أن يلقى بالدر أمام حيوانات من النوع المعروف، يستشهد فيدينسكى بشخص أخر مسموع الكلمة، أنه أ. خفولسون الذى ألف كتابه المعروف الذى يحمل هذا العنوان الذى يبعث على الفضول. " هيغل وغيكيل وكوسوت والوصية الثانية عشر". ليست للأسماء التى يجرى تعدادها فى هذا العنوان تلك الأهمية التى تنطوى عليها الإشارة إلى "الوصية الثانية عشرة" التى تلزم المرء بالا يكتب ولا يتحدث عما لا يعرفه تماما. وهذا ما يجب فى تلك الحالة أن يعنى، بالنسبة إلى فيدينسكى، إن اللاهوتيين وحدهم هم يستطيعون إطلاق الأحكام حول شخصية المسيح.

كان هذا، قبل كل شيء، خاطئا من حيث الجوهر. حتى ولو كان الحديث يجرى عن المسيح الإله، فإن إعطاء اللاهوتيين هنا حق احتكار التفكير أمر لا يقدم عليه إلا الناس المؤمنون بتعصب. من يملك حقا معنويا أو أى خلق آخر فى أن يحرم أى شخص من إمكان التفكير فى ما ينبغى له أن يؤمن به، أو فى ما إذا كان عليه أن يؤمن عموماً ؟ ولكن فى النقاش الذى نتكلم عنه هنا لم يكن يجرى الحديث عن المسيح الإله، بل عن المسيح الإنسان : هل وجد فى الواقع التاريخى، وكيف كان فى حالة وجوده. الكلمة الفصل هنا يجب أن تكون، طبعا، للمؤرخين، لا للاهوتيين. والكثيرون من كتاب المؤلفات المسيحية – استخدموا، مع كونهم لاهوتيين من حيث المهنة، أساليب التحليل التاريخى، فأصبحوا فى هذه الحالة مؤرخين، وعندئذ فقط حققوا نتائج تنطوى على قيمة علمية. وطالما أن الأمر كذلك، فإن ادعاءات فيدينسكى احتكار اللاهوتيين للمسألة موضوع المناقشة لا تستند إلى أى أساس بالمرة.

ودع أنصار وجهة النظر الكنسية المطران بالتصفيق. بيد أن هذا ما كان فى وسعه أن يخفى واقع أن اللاهوتى تملص من النقاش فى جوهر المسألة.

ينبغى القول، لتسجيل حقيقة أكيدة، لا للانتقاد أو الفضح، إن الناس الذين يتخذون مواقف الدين المسيحى، لا بد وأن يسعوا، إذا لم يريدوا التخلى عن هذه المواقف، إلى الذود عن تاريخية يسوع بغض النظر عن الكيفية التى يبدو فيها هذا الأمر فى ضوء

المعطيات التاريخية الموضوعية. إن الوجود الدنيوى للإنسان، الذى تجسد فيه على مدى عقود الأقنوم الثانى للثالوث الإلهى، وموته وقيامته هى وقائع يشكل الاعتراف بها أساس نظام مسلمات المسيحية، ولا وجود للدين المسيحى بدون المسيح كشخصية تاريخية.

ومن المفهوم أن يحاول أيديولوجيو هذا الدين الذود مهما كلف الأمر عن الوجود التاريخى لمؤسسه. وحيث أن الحجج الفعلية للبرهان على هذه الموضوعة لا تكفى يضطرون إلى اتخاذ موقف " نفى ضرورة هذه البراهين نفسها. وطبيعى أن تأكيد تاريخية المسيح بلا أساس أمر غير مقبول شأن نفيها بلا أسا

أمن الممكن أنه لم يوجد ؟

ليس من النادر أن يعبر عن الوجود التاريخي ليسوع المسيح فى هذه الصيغة بالذات. ليس من المعقول أنه لم يوجد، لأنه يستحيل فى هذه الحالة تفسير بعض الحقائق التى لا شك فيها. فما هى هذه الحقائق ؟

تتلخص إحداها فى الانطباع الذى تحدثه فينا شخصية يسوع المسيح نفسها وفى هذا الصدد كتب أ. يوليخير أحد اللاهوتيين البروتستانت الليبراليين. " كلا، أن جاذبية الحياة التى انقضت لتوها، الجاذبية التى لا تزال تشع من شخصية يسوع التى رسمها أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى بخطوطهم الخشنة تسخر من كل فرضية تريد تصويره كمجرد محصلة لعوامل تاريخية – دينية وحتى كبطل لرواية تاريخية مزيفة. إن انطباع الشخصية الخارقة هى على أى حال أقوى من الصعوبات الجمة التى نصطدم بها لدى دراسة تاريخ "التقاليد حول يسوع. ليست الفكرة ولا الحلم، بل الإنسان العظيم على نحو خفى هو الذى يقف هنا، كما فى كل مكان، عند منعطف التاريخ(٢). وهكذا، يكمن فى أساس أراء يوليخير تصور يقول بأن أى " منعطف للتاريخ" لابد وأن يرتبط بنشاط شخصية عظيمة.

حتى ولو لم نفهم وجهة النظر هذه بالمعنى المثالى القائل بأن نشاط الشخصية العظيمة هو سبب لأى انعطاف تاريخى، بل بالمعنى الأقرب إلى مفاهيمنا والقائل بأن الضرورية الموضوعية – التاريخية الناضجة تجد تعبيرها فى الأفراد البارزين، وفى نشاطهم، فإن الاعتراف بتأكيد يوليخير هذا لا يلزم على أى حال بالموافقة على موضوعة تاريخية

المسيح. إن ظهور المسيحية لم يجر بدون أفراد بارزين، ولكن ربما لا ينبغى أن نقصد هنا يسوع المسيح، بل الرسول بولس أو يوحنا المعمدان أو دعاة القرن الثانى ؟

الجانب الثانى لحجة يوليخير التى أوردناها يتلخص فى القيمة والحيوية الفائقتين لصورة المسيح نفسها، كما يقول. إن اختراع صورة كهذه أمر مستحيل. " الخيال اليهودى الذى يقال أنه أوجد يسوعنا بكل كمالة وبكل شخصيته الخارقة من شأنه أن يكون أعظم لغز أعطانا إياه تاريخ إسرائيل، أو على الأرجح لغزا نصنعه لأنفسنا بأنفسنا بسبب العناد على وجه الحصر(٣). يمكن هنا، طبعا، تجاهل الإشارة إلى العناد، أو يجب، على الأرجح، توجيهها إلى يوليخير نفسه، إلى أخوانه فى التفكير. أما فى خصوص مسألة سطوع وكمال شخصية المسيح فى عدد المسألة التى ننظر فيها، فينبغى التوقف عندها.

لقد أوردنا تصورا فى هذا الصدد مفاده أن وسائل الفن نافيه لتخيل قريب من الواقع فنيا يمكن بواسطته ابتكار أكثر الشخصيات سطوعا وحيوية. والإبداع الجماعى للجماهير الشعبية لا يتخلف فى هذا الخصوص عن أدب الكتاب المحترفين، بل قد يتفوق عليه من حيث الأمكانات. أن الكثير من شخصيات المؤلفات الملحمية الكبرى للنتاج الشعبى ربما لكل شعوب، التى درست فى هذا المجال، ذات دلائل من حيث نظمتها وسطوعها وصدقها الحياتى. فلماذا ينبغى اعتبار الخيال الفنى لمجموعة كاملة من شعوب البحر الأبيض المتوسط في القرون الأولى للتقويم المسيحى ضعيفة بحيث ننكر عليها قدره إبداع شخصية المسيح ؟

هذا بالإضافة إلى أنه لا يجوز بحال من الأحوال الاعتراف أن الإشارة إلى تكامل هذه الشخصية أمر لا يقبل الجدال. كتب المؤلف الألمانى لوتسيلبير غير منذ أواسط القرن الماضى.

أساس تماما للرأى الذى يزعم أنه ما كان فى وسع الأناجيل حال من الأحوال أن تصور شخصية المسيح لو لم توجد قبل ذلك فى الواقع، وأن صفات شخصية يسوع الإنجيلى فريدة بحيث تعجز الأسطورة عن تخيلها وتسجيلها. وذلك لأن هذه الشخصية التى تصورها الأناجيل يستحيل اعتبارها شخصية ذات حدود واضحة ومقنعة. بل على العكس، فأما، نا هنا

شخص يطلق الكلام على مواهنة، منطلقا من أراء متباينة تماما، وقد صور، كما هو معروف، في أول إنجيل على نحو مغاير تماما لصورته في أخر أنجيل. ولا يمكن إلا بصعوبة قصوى أن تكون من الأوصاف الواردة في الأناجيل كلاماً متسقا، ولهذا لا يحق لنا قطعا ان نتحدث عن الواقعية التاريخية لشخصية المسيح على أساس أصالة الصورة الإنجيلية. (٤)

ذلكم مدى ما قد يكون عليه الانطباع من ذاتية ومدى خطر الاعتماد على هذه الذاتية لدى حل المعضلات العلمية ! وينبغي الاعتراف لوجه الإنصاف أن لوتسلبيرغير أكثر موضوعية في هذه الحالة. فكيف يمكن رؤية تكامل ما في شخصية مسيح الإنجيل إذا كانت محيوكة من تناقضات متواصلة؟ !

نستميح القارئ عذرا على ما قد تسببه الاستشهادات الطويلة من ملل، ونورد نبذة مسهبة من كتاب أ. نيموييفسكي الذي يعطي وصفا واضحا وصحيحا إجمالا للتناقض الذي تتسم به شخصية المسيح الإنجيلية. فهو يقول أن ممثلي مختلف المعسكرات والمدارس السياسية والدينية والأخلاقية تتكلم على لسان يسوع. "إسرائيل، معتنقة مبدأ "العين بالعين" تعلن أنه يكال لكم بما تكيلون، وأنه لا ينبغي سلوك طريق اوثنيين، بل يجب الذهاب نحو الخراف الضالة من أل إسرائيل. الفقير يهتف أنه لا ينبغي لعازر، وهو في السماء، حتى أن يبل طرف أصبعه في الماء ليبرد لسان الغني الملتهب في السعير... الدبلوماسي يفترض أنه يجب الجمع بين حذاقة الحيات ووداعة الحمام. السادة يعلنون أنه لا يجوز إجلاس العبيد إلى المائدة قبل أن يأكلوا هم أنفسهم. وشريحة العلماء تعلن أن التلميذ ليس أعلى من المعلم. والمحرض المتحمس يصرخ أنه يجب على المرء أن يتخلى من أجل فكرته عن أبيه وأمه وزوجته وأشقائه وشقيقاته وحتى عن شخصه. ويعلن السياسي أن الفتن السياسية الداخلية المفرطة هي سبب فناء الأسر والمدن والدول. الناسك معذب الذات يعظ بأنه يجب التخلص من كل المغريات بواسطة خصي الإنسان لنفسه. إذا وضعنا كل هذه المطالب على لسان واحد، فيجب أن نجد لهذا رجلا متحذلقا أشبه بشخصية جماعية لا تنطق إلا بالأمثلة (٥) فهل يمكن والحالة هذه التحدث عن المسيح كشخصية متكاملة ؟!

أن تصور جاذبية خاصة وخارقة لهذه الشخصية تفترض الاعتراف بأنها تقوم على أساس واقعي هو أيضا تصور ذاتي بحت. إذ أن يسوع الإنجيل لا يحدث في الجميع انطباعا كهذا. ويمكن أن نجد في الأدبيات الكثير من الملاحظات الانتقادية الحادة في صدد رياء المسيح وتأففه. وضيق صدره وخور عزيمته إلخ. لن نطلق هنا حكماً على درجة جاذبية هذه الشخصية، الأمر، لا يقتصر على أن هذه المسألة لا تنطوي على أهمية سواء بالنسبة إلى العلم عامة، أو بالنسبة إلى إلقاء الضوء على القضية التي نبحث فيها خاصة.

ثمة حجة أخرى تعلل بواسطتها الموضوعة القائلة بأنه من غير المعقول أنه لم يوجد. لو أن المسيح لم يوجد لاستحال تفسير منشأ المسيحية، أن الناس هم الذين يؤسسون أية حركة اجتماعية، بما في ذلك الحركة الدينية، ولابد أن هناك أناسا نهضوا بالمسيحية في مهدها. ولما كانت هذه الحركة منذ البداية جبارة بمضمونها، فلابد أن يكون قد أسسها إنسان يتمتع أيضا بالعظمة والأصالة. المسيح هو كذلك الذات، كما نعرفه من الأناجيل. وهو الذي كان يستطيع تأسيس المسيحية، ويستحيل تصور شخصية أقل شأناً تضطلع بأمر كهذا

المسيحية لا يمكن، بالطبع، أن تظهر بدون أناس بجسد وعيهم وإرادتهم ونشاطهم هذه الظواهر الاجتماعية. وقد وقف عند مهد المسيحية، ولاشك، أناس، لا بل أناس كبار وبارزون وموهوبون. ولكن هل من الحتمي أن يكون الرئيس بينهم هو ذلك الشخص بالذات بالاسم ونفسه الذي نعرفه من العهد الجديد، ذلك الذي جرت معه الحوادث التي وصفتها الأناجيل، والذي تتطابق تواريخ حياته وموته مع تواريخ حياة وموت يسوع المسيح الوارد ذكره في الإنجيل؟ قد يكون هذا، وربما لا يكون. وإذا كان ذلك كذلك، فإن الحل القسري لمسألة تاريخية المسيح على أساس واقع وجود المسيحية يصبح مجردا من الأساس. ربما وجد، وربما لم يوجد.

كلا، يجب التخلي عن كل وجهات النظر التي تتخذ مسبقا وسلفا، قبل النظر في المادة الملموسة. أن الوزن الدقيق الذي توفره لنا الوقائع التاريخية هو وحده الذي يمكن أن يؤدي إلى حل صحيح للمسألة.

حينا تكون المادة الواقعية، التى يمكن رسم لوحة صادقة بواسطتها، زهيدة جدا، يظهر عادة عدد كبير من الأشكال البعيدة الاحتمال أو غير الصادقة أو المستحيلة أصلا. وتحليلها حافل بالعبر أيضا.

المستحيل والممكن.

الظنون

يوجد اتجاه كامل فى الأدبيات التى تبحث فى المسيحية ينظر إلى المسيح بمثابة ... هندى. ويسمى كتاب أحد ممثلى هذا الاتجاه ت. بلانغى "المسيح هندى ؟" ورغم أن علامة الاستفهام الملحقة بالتأكيد الوارد فى العنوان تجعله عرضة للشك بعض الشىء، إلا أن المضمون الأساسى للكتاب تنفي هذا التأكيد بالذات.

يعتمد ت. بلانغى على مواد عدة أبحاث تاريخية للكاتب الفرنسى للمعروف ل. جاكوليو تلقى، كما يقول، ضوءا جديدا تماما. على قضية منشأ شخصية المسيح والمسيحية عموما. وهو ينضم إلى استنتاج جاكوليو القائل بأن المسيحية الأولى لم تكون إلا بوذية نقلها مبشرون بوذيون إلى روما.

يقوم هذا التأكيد على أساس مقارنة الوصف الإنجيلى لحياة المسيح بالأساطير البوذية والهندوسية حول شخصيتى بوذا وكريشنا. ويجرى إيراد العديد من المقارنات التى تخلق انطباعا أن لم يكن لتطابق كامل، فلتشابه قريب على أى حال.

تقول تعاليم البراهمانين أن الأقنون الثانى من الثالوث الإلهى (براهما، فيشنو ، شيفا) تجسد فى الصورة البشرية لكريشنا، الذى أطلق عليه تلاميذه فيما بعد اسم إيزيسوس (أو أيسنو، جيسنو). وفى التعاليم المسيحية تجسد فى صورة بشرية أيضا الأقنون الثانى من

الثالوث، الإله الابن، الذى أطلق عليه اسم ولقب شبيهان بنظيريهما البراهمانيين. كريشنا يمكن أن يلفظ خريسنا، أما خريستوس فيمكن أن يلفظ كريستوس.

وقد ظهر هذا وذاك إلى العالم من أجل إنقاذه. وكلاهما ولدته عذراء، وكان ميلاد هذا وذاك يرمز إلى معجزة، وفى الحالتين كان الرعاة أول من أتى ليسجد لهما. وتتكرر. ملاحقة الملكين الشريرين لهما (كانسا وهيرودس)، قتل الأطفال، إنقاذ الملاك للمولودين الإلهيين، العناصر الأساسية لنشاط المخلصين. وكلاهما يجمع حوله طائفة من العلماء ويجترح معجزات شفاء المرض وبعث الموتى ويطرد الشياطين من الممسوسين ويموت نتيجة مكائد الكهنة وحقدهم، مع العلم أن موتهما ترافقه أمارات لحداد الطبيعة، وكلاهما يرتفع بعد أداء رسالته إلى السماوات.

والمقارنة بسيرة بوذا ذات وقع ليس أقل من ذلك إن لم يكن أكثر.

الحبل بلا دنس أيضا. الولادة تجرى فى المغارة أيضا، وينبىء به نجم يقوم إلى المولود الإلهى ثلاثة مجوس أو ملوك ليسجدوا له. وثمة أيضا رعاة وصوت من السماء وجند سماويون. ولكن ميلاد بوذا محاط بأساطير أفخم وأفخر من ولادة المسيح " الطبيعة تهكل كلها ويلقى المولود نفسه خطبة كاملة يعد فيها بالقضاء على الشيطان وجنوده وبإسعاد الشعوب جميعا إلخ... ويقدم الملوك والأمراء قصورهم الرائعة ليقيم فيها الطفل الإلهى. ويقوم الشيخ اسيتا بدور سمعان مقتبل الرب الوارد فى الأناجيل. وخلافا للقصص الإنجيلية والبراهمانية، فإن الملك بيمباسارا، الذى يبلغ بولادة بوذا، لا يوافق على ملاحقته، بل، على العكس، يغدو من اتباعه. وبعد ذلك يجرى كل شىء لبوذا كما فى الأناجيل. حمل الطفل إلى الهيكل، قصة بقاء الصبى حين بلوغه الثانية عشرة من العمر فى الهيكل وكيف فقده أبواه، الصوم والتجربة فى البرية، الاعتماد، ونمط الحياة بأسره (العزوبة، التشرد) . ويصل التشابه حتى إلى التفاصيل. مثلا، التلميذ المفضل عند بوذا اسمه أناندا، وعند يسوع اسمه يوحنا، ويتشابه اسما الخائنين. يهوذا وديفادا.

يؤكد بلانغى، منضما إلى مؤلفين آخرين كثيرين اتخذوا الموقف نفسه أن هذا التطابق كله لا يمكن أن يكون محض مصادفة. لابد أن أحدا اقتبس من الآخر. ولكن الأساطير

البراهمانية وجدت قبل ظهور المسيح بثلاثة آلاف سنة، الأساطير البوذية وجدت قبل المسيحية بخمسمائة سنة، وهكذا فلا مجال لافتراض أنها اقتبست مضمونها من الأناجيل. ثم أن المؤلف لا يقدر الأناجيل نفسها بمثابة مصدر تاريخي ويسبغ أهمية أكبر على الكتب المقدسة للهندوسية والبوذية. وهو لا يشك إجمالا في أن أخبار الأناجيل مقتبسة من المصادر البراهمانية والبوذية، مع العلم أنه يعتبر أن أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى أخذوا من المصادر الأولى، ويوحنا من المصادر الثانية.

كل هذا لا يؤدى عند بلانغى إلى نفى حتمى للوجود التاريخى ليسوع فى فلسطين. ويقول أنه ربما كان هناك فى الواقع شخص اسمه يسوع قام بدور قائد شعبى، ولكن وصف حياته فى الأناجيل لا يمكن أن يتفق والحقائق التاريخية، لأنه منقول من الأساطير الهندية. إن الملامح الأساسية لحياته واردة بأكملها فى سيرة كريشنا، والخلق السامى عند بوذا، والإضافات الضرورية فى كتب العبريين، فى العهد القديم الذى تحدث كثيرا عن مسيح منتظر. وهكذا تكون "الإضافات" هى الأصل، أما الأساس فمصدره الهند. ويسوع الإنجيل ليس عبريا، بل هندى.

للتسليم بإمكان اقتباس عبريى القرون الأولى بعد الميلاد للمواضيع الدينية والفولكلورية الهندية يجب أن نستوضح كيف يمكن أن توجد حينذاك اتصالات بين فلسطين والهند. وإذ يستند المؤلف إلى بعض أخبار بلينوس الأكبر ويوسف فلافيوس، يشير إلى أنه كانت توجد تجارة نشيطة فى الأزمنة القديمة بين روما والهند، وأنه كانت تتجه إلى الهند سنويا أساطيل كاملة من المراكب التجارية التى تحمل من هناك ما لا تقل قيمته عن ٥٠ مليون سيستيرتيوس من الجواهر والأحجار الكريمة الأخرى، وكذلك الحرير والعاج والأصبغة إلخ. وكانت تأتى من الهند إلى مصر سفن يتسع كل منها لخمسمائة راكب مع بضائعهم، وكان يوجد فى الإسكندرية دائما الكثير من التجار الهنود. وكانت العلاقات التجارية ناشطة بشكل خاص بين الغرب وسيلان التى كانت مركزا للبوذية على وجه التحديد. لا يصعب فى وضع كهذا تصور إمكان التبادل الأيديولوجى النشيط بين الهند

وبلدان الإمبراطورية الرومانية. وهذا معناه أن اقتباس الأساطير البراهمانية والبوذية لبناء شخصية يسوع المسيح ولتكوين التعاليم المسيحية أمر واقعي تماما.

هل هناك مسوغات جديدة لاعتبار هذا المفهوم قابلا للتصديق والاعتراف، على هذا النحو، بالمنشأ "الهندي" لشخصية يسوع ؟

أعتقد أن لا يستحيل التسليم بأن آثار هذا المنشأ، إذا كان هذا شأنه فعلا، قد انمحت تماما في الأدبيات المسيحية المبكرة، إذ لا يوجد فيها أقل تلميح إلى الهند وتاريخها، وإلى شخصيات هذا التاريخ، وإلى الآلهة والشخصيات الأخرى في ميثولوجيتها، وإلى عباداتها وطقوسها. ولا يمكن لهذا، بالمناسبة، أن يحدث إلا إذا كانت الأدبيات المسيحية المبكرة قد ألفت كلها على نحو منظم خاص، وإذا كان قد نفذ بالنظام نفسه أمر أصدره أحد ما بالاتلاف المبرمج لأي تلميح إلى المواد الهندية. ولكن لا مجال حتى لمجرد الحديث عن تنظيم كهذا، لأن ظهور الأناجيل وأسفار العهد الجديد الأخرى كان عملية عفوية تماما، شأن كتب الرسل وغيرهم من المؤلفين المسيحيين الأوائل.

والتطابق المتكرر في المواضيع لا يعطي أيضا مسوغات للبحث هنا عن اقتباس أكيد. فظاهرة المواضيع المتنقلة في الفولكلور العالمي وكيفية تكرر المواضيع الميثولوجية أمر معروف. وقد أورد د. فريزير في كتابه " الفولكلور في العهد القديم" عددا كبيرا من الأمثلة على التشابه بين قصص العهد القديم والحكايات الفولكلورية والميثولوجية المنتشرة عند شعوب مختلف مناطق العالم. وحسب قرابة مئة وخمسين أسطورة عن الطوفان فقط. وإذا اتبعنا منهج بلانغي، فينبغي أن نعتبر أسطورة الكتاب المقدس عن الطوفان مقتبسة من استراليا، ومن أمريكا الجنوبية، ومن أفريقيا الوسطى والشيء نفسه ينطبق على التصور القائل بأن الآلة خلق الإنسان من تراب أو طين.

ثمة نظرية تقول بأن شخصية يسوع المسيح ليس مصدرها جنوب أسيا، بل أواسط أسيا. وقد وضعها الرحالة والأثنوغرافي الروسي غ. بوتانين، ودعا إليها ونشرها بحماسة الأثنوغرافي الياقوتي غ. كسينوفونتوف.

في عام ١٩١٢ ألقى بوتانين في جمعية دراسة سيبيريا في بطرسبورغ تقريبا في موضوع " منشأ المسيح ". أن صاحب التقرير، وقد أعرب عن اقتناعه بأن المسيح لم يوجد في الواقع أبدا، أعلن أنه اكتشف عددا كبيرا من الأساطير الموازية للأساطير الإنجيلية في الفولكلور التركي – المنغولي لشعوب أواسط أسيا. ويورد على الفور جملة من هذه الأساطير والحكايات التي تساهم فيها اثنتا عشرة شخصية التي تشبه الحكايات الإنجيلية بمضمونها. ويكتشف في الوقت نفسه مواضيع مماثلة في الساحات الإسكندينافيه، وفي الحكايات الالتائية. والإعدام عن طريق الصلب، مثلاً، موجود في فولكلور كل شعوب شمال أسيا.

وهكذا، فإن أسطورة المسيح منتشرة أوسع انتشار. ربما في العالم بأسره. فما هو منشؤها ؟ يجيب بوتانين بثقة. " توصلت إلى استنتاج أن الموضوع الأساسي لهذه الأساطير والحكايات كلها منشؤها أواسط أسيا وأوردوس" (أردوس منطقة في غرب الصين – أ.ك.) ومن غير أن يكلف المؤلف نفسه بأي تعليل وجيه، يتوصل إلى هذا الاستنتاج. "وهكذا نرى(؟) أنه تكمن في أساس الأسطورة الإنجيلية عن المسيح أسطورة شامانية من أسيا الوسطى، وأن شخصية المسيح نفسه صورت على غرار شخصية وجدت قبل ذلك بقرون عديدة في أعماق أسيا"(٦).

إنه يعتبر نفسه بدرجة من الدرجات ملزما بأن يوضح كيف أمكن لأسطورة شامانية الوصول إلى الأراضي المسيحية. الحل العام لهذه المسألة يبدو عنده بسيطا للغاية. يمكن للأساطير التي ألفت في الشرق أن تنتقل عن طريق الخزر إلى جنوب روسيا ومن ثم إلى الغرب والجنوب. وقد كان هناك نموذجان لتلك الأساطير. بعضها يصور البطل في مظهر جيد ونبيل، وبعضها الآخر، على العكس، في مظهر شرير – كاريكاتوري. الأولى انتقلت إلى أسفار العهد الجديد والثانية إلى أخبار التلمود عن المسيح، بما في ذلك تولدوت أيشو. ويعلن المؤلف بصورة قاطعة ولكن بدون أي تعليل. " اعتبر هذه الأسطورة العبرية (الواردة في كتاب – تولدوت أيشو" الذي يعود تاريخه إلى القرون الوسطى – أ.ك.) أسطورة ظهرت قبل المسيحية" (٧). أعتقد أن هذه الفرضية الخيالية لا تحتاج إلى تفنيدها الخاص ولو لسبب واحد وهو أنها لا تقوم على شيء عمليا.

وقد حاول كسينوفونتوف، نصير بوتانين، أن يسبغ عليها ما يشبه التعليل، أنه ينظر إلى العبادة المسيحية وأسطورة المسيح كشكل من أشكال الشامانية ويحدد عدة سمات متوازية ملازمة سواء لأى شامان، أو لشخصية يسوع المسيح. الشامان يولى رسالة الخلاص، والمسيح مخلص أيضا. فى الشامان تسكن الأرواح الطيبة، ويسوع يمثل تجسدا بشريا للروح القدس تلخص وظيفة الشامانات الاجتماعية الرئيسية فى معالجة الناس بوسائل سحرية، ويسوع، كما تقول الأناجيل، يمارس الشفاء أكثر من أى شىء أخر. وبعض العلماء المؤرخين... يضعونه فى عداد الطائفة العبرية القديمة لمن يسمون بالمداوين" (٨). الشامانات يتمتعون بموهبة التنبوء والتكهن، والمسيح نبى أيضا. ولعنصر الإنقاذ عند المسيح نظير فى "توقعات الإنقاذ عند شعوب السهوب التى تنتظر الآن فى شخص المنغول المعاصرين الولادة الثانية لعظيمهم جنكيز خان، الابن الوحيد للسماوات الزرقاء والمرسل من الأعلى" (٩).

أن التعليل الذى يعطيه كسينوفونتوف للفرضية القائلة بأن منشأ الأساطير الإنجيلية من شمال أسيا يمثل، طبعا، نموذجا للسطحية والكيفية. إذ يمكن إجراء مقارنات كهذه بالعشرات من الأديان والأساطير المنتشرة فى كل أرجاء الأرض وعند مختلف الشعوب وكما فى صدد " حججج" بوتانين، يمكن القول هنا أيضا أنه ينبغى، باستخدام هذا المنهج، اعتبار صورة المسيح مقتبسة من كل شعوب الأرض دفعة واحدة. وليس من المفهوم فى ظل حل كهذا للمسألة ما الذى يضطرنا إلى أن نعترف بقدرة الإبداع الميثولوجى المستقل للجميع باستثناء الشعوب التى ظهر بينها اتباع المسيحية الأوائل.

" سيرة " المسيح الإنجيلية

لأمر معقد جدا بالنسبة إلى المعطيات عن سيرة يسوع إذ لا وجود لها عموما فى كل أسفار العهد الجديد، باستثناء الأناجيل، وكل شيء يقتصر على تلميحات وملاحظات معينة وإشارات إلى بعض الأحداث والظروف التى لا تتحدث عنها أى شيء ملموس ولا يحتوى إلا الأناجيل على سيرة يسوع، وهى ناقصة ومتناقضة من نواح كثيرة. يبدأ إنجيلا متى ولوقا وصف حياة المسيح من لحظة ميلاده، أما الإنجيلان الآخران فمن سن ناصجة تماما، حينما يأتى على يوحنا للعماد.

ولكن حتى الإنجيلان الأولان، فإنهما بعد الحديث عن الحبل بلا دنس وميلاد يسوع، يشيران بشح إلى طفولته، بصورة خاطفة تقريبا، وعلى نحو متناقض. يقول متى أن الأبوين ينقذان الصغير من كيد الملك هيرودس بأن يهربا به إلى مصر ولا يعودان إلا بعد موت هيرودس، ويقول لوقا أنهم توجهوا على الفور تقريبا إلى الناصرة، حيث أمضى يسوع طفولته وفتوته وشبابه حتى بلوغه الثلاثين من العمر. ولا يصف لوقا إلا مشهدا واحدا فقط يعود إلى هذه الفترة من حياة يسوع حينما يظهر وهو صبى فى الثانية عشر من العمر فى الهيكل فى أورشليم، ويدهش الجميع بحكمته وعلمه.

لا تعطى الأناجيل معلومات مفصلة ومتتابعة عن سيرة يسوع إلا فى الفترة القصيرة الأخيرة من حياته، حينما " يُعلم " ويجترح المعجزات، ثم يتعرض للملاحقات ويُقتل ويقوم. يصعد إلى السماء. ليس من السهل، كما هو واضح، أن نستخلص من هذه الأخبار معطيات تاريخية جديرة بالثقة عن حياة يسوع. أن المنطق الداخلى نفسه للرواية الإنجيلية يخلو من

التتابع والانتظام فى الكثير من النقاط الجوهرية. ويتصرف بطلها الرئيسي يسوع المسيح بتناقض عجيب. وسلوكه فى الحياة، كما تصفه الأناجيل، لا يخضع فى كل شىء لتفسير معقول.

يعتبر يسوع نفسه واعظا ومعلما للناس الذين يجب أن ينورهم بالحقيقة الإلهية ويقودهم وراءه. من أى أناس ؟ أنهم العبريون، حسب منطق الأمور. لقد وعد الله بأ، يقيمه ركن الخلاص فى بيت الملك داود. ولكن إنجيل متى نفسه يختتم بالأمر الذى أعطاه يسوع إلى الرسل. "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس" (متى، ٢٨ / ١٩). أى أن رسالته موجهة إلى الشعوب كلها لا إلى إسرائيل وحدها.

هل ظهر يسوع ليدعو الناس إلى " الشريعة" الإسرائيلية القديمة التى فرضها الإله يهوه والمتجسدة فى العهد القديم، أو إلى دين جديد حمله إليهم بنفسه ؟ وهنا أيضا نجد حلين متناقضين. الشريعة القديمة منيعة. "لأن تزول السماء والأرض أسهل من أن تسقط نقطة واحدة من الشريعة" (لوقا، ١٧/١٦)، " لا تظنوا أنى جئت لا بطل كلام الشريعة والأنبياء. ما جئت لا بطل بل لأكمل" (متى، ١٧/٥) وأيضا : "أى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (١٨/٥). ولكن يعقب ذلك على الفور ما هو مناقض تماما.

فى الفصل نفسه من إنجيل متى ترد على لسان يسوع معارضة منتظمة بين تعاليمه الخلقية و"شريعة" العهد القديم. وللمبدأ هكذا. "سمعتم أنه قيل... أما أنا فأقول لكم ..."، هكذا يتحدث عن القتل والزنى والطلاق واليمين، وعن المقاصصة " العين بالعين" إلخ. لا يأمر بتنفيذ الشريعة، بل على العكس، بسلوك يتعارض معها. وبعض المشاهد الأخرى، التى وصفتها الأناجيل، تكشف كذلك عن موقف يسوع السلبى من تعاليم العهد القديم. حينما سمح الرسل لأنفسهم يوم السبت بقلع السنبل فى الحقل، وبهذا خرقوا تحريم العمل فى السبت (وهو أثم رهيب فى العهد القديم يعاقب عليه بالموت) وحينما بلفت المحيطون بيسوع أنظاره إلى هذا، يجيب، متذرعا، والحق يقال، بسابقة للملك داوود، إن " السبت

جعل للإنسان، وما جعل الإنسان للسبت" (مرقس، ٢٧/٢) ويسمح لنفسه بأن يمارس الشفاء في السبت، وهو، حسب المفاهيم القديمة، اثم لا جدال فيه.

يجوب يسوع البلاد برفقة الرسل، حيث يعظ بتعاليمه ويجترح المعجزات. وحتى أنه يوضح في بعض الحالات أنه يقوم بالمعجزات لكي "يظهر مجد الله" وكل هذا يجرئ كقاعدة عامة، عند تحشد كبير للناس. ولكن لماذا ينبه مرارا شهود أعماله إلى أن يبقوا ما رأوه وسمعوه طي الكتمان. قال للأبرص الذي شفاه. "إياك أن تخبر أحدا بشيء" (مرقس ٤٤/١). ثم يبدأ شيء أشبه بلعبة. لقد عصى الذي شفي الأمر المعطى له، "فانصرف وأخذ يرفع الصوت ويذيع الخبر". وبالنتيجة "صار يسوع لا يستطيع أن يدخل مدينة علانية، بل كان يقيم في ظاهرها في أماكن مقفرة". بيد أن تلك الأماكن لم تكن، كما يبدو، مقفرة إلى تلك الدرجة، لأن الناس صاروا "يأتونه من كل مكان" (٤٥/١) لم يكن ثمة مبرر للاعتزال، ولاسيما أنه "عاد بعد بضعة أيام إلى كفر ناحوم"، حيث وعظ واجترح المعجزات أمام حشد كبير من الناس (مرقس ،   ١/٢) . ويمنع يسوع رسله من أن يقولوا للشعب أنه المسيح، أي المنقذ (مرقس، ٣٠/٨ ، لوقا ، ١٨/٩). وفي حالات أخرى يطلق على نفسه هذا الاسم علانية.

يتخذ يسوع قرارات مشوشة في اللحظات المسؤولة من حياته. في عشية اعتقاله ولدى التنبوء به، قال للرسل: "من كان لديه مال فليأخذه. ومن كان لديه فرود فليحمله. ومن لم يكن لديه سيف فليبع رداءه ويشتره.. فقالوا: ربنا ههنا سيفان. فقال لهم. حسبكم" (لوقا، ٣٦/٢٢ ، ٣٧) يبدو وكأن المسألة واضحة. ينبغي الاستعداد للمقاومة. ولكن الأحداث تأخذ منحنى أخر. حينما اجتمع الذين كان عليهم أن يعتقلوا يسوع، ورأى الرسل ما أوشك أن يحدث قالوا. ربنا، أنضرب بالسيف ؟ وضرب أحدهم عبد عظيم الأحبار فقطع أذنه اليمنى. فأجاب يسوع. قفوا عند هذا الحد ولمس أذنه فأبرأها" (لوقا، ٤٩/٢٢ – ٥١). واتضح أنه لم تكن هناك حاجة إلى شراء السيوف، وحتى السيفان المتوفر أن لم يلزما.

يقول أ. رينان بحق في هذا الصدد وغيره. "لا مجال هنا للبحث عن منطق ولا تتابع" (١٠). وبالفعل، تبدو شخصية يسوع وسلوكه في الأناجيل مناقضين للمنطق. فهل هذا حجة ضد تأريخيته ؟ من المستبعد.

في كل الأزمنة كان الإنسان في سلوكه الحياتي يخل في أحيان كثيرة جدا بقواعد المنطق، ولا يزال يفعل هذا إلى الآن. وقد يفعل تحت تأثير المزاج المسيطر عليه ما لا يتفق مع آرائه وقناعاته. وحتى القناعات نفسها يمكن أن تكون متقلبة ومتناقضة. ويحدث أن يسمح الإنسان لنفسه بفعل ما يحظره على الآخرين، ولا يفعل، على العكس من ذلك، ما يفرضه على الآخرين. من المستبعد أن يعتبر هذا السلوك لائقا وشريفا ولكنه، للأسف، يحدث في الحياة وفي أحيان ليست بالنادرة. ولا يصعب تصور أن يسوع الحقيقي تأريخيا كان يتحرف على هذا النحو بالذات.

أما الوضع والوسط الطبيعي والاجتماعي – التاريخي للذات وصفتهما الأناجيل كمسرح لنشاط يسوع فأمر آخر. لتقدير الأناجيل نفسها كمصدر تاريخي من الهام جدا أن تحدد إلى أية درجة كانت دقيقة، أو قريبة من الواقع على الأقل، في تصويرها لذلك الوضع. وهنا نصطدم قبل كل شيء بكون مسيرة وتتابع الأحداث المرتبطة بحياة المسيح قد صورا في مختلف الأناجيل بشكل غير متناسق تماما وعلى نحو غير دقيق أو خاطئ في حالات عمليا.

ولد يسوع، حسب الأقاصيص الإنجيلية، في بلدة بيت لحم الواقعة جنوب أورشليم. ولتفسير كيف استطاع والداه المقيمان بعيدا في الشمال، في الناصرة، أن يكونا في بيت لحم لحظة ولادته، يقال أنهما قدما في ذلك الوقت إلى بيت لحم خصيصا ليحضرا إحصاء السكان. وعن هذا قال لوقا: "في ذلك الزمان، أمر القيصر أغسطس بإحصاء جميع أهل المعمورة وجرى هذا الإحصاء الأول إذ كان قيرينيوس حاكما في سورية. فذهب جميع الناس ليكتتب في مدينته، وصعد يوسف أيضا من الجليل (الأب القانوني ليسوع –أ.ك.) من مدينة الناصرة، إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم فقد كان من بيت داود وذريته .. (لوقا، ٢/١/ ٥).

أوجدت مسألة هذا الإحصاء مجموعة كاملة من الأدبيات وقد حسب المؤرخ الألماني المعروف أ. شورير عدد المؤلفات العلمية المكرسة خصيصا لنص لوقا الذي أوردناه، فوجد أنه وصل حتى بداية القرن الحالي إلى ٥٥ مؤلفا. وهو يعمم مضمونها في فصل كبير من دراسته المكونة من ثلاثة مجلدات. فما هي استنتاجاته ؟ " لا يعرف التاريخ شيئا عن إحصاء

عام (لجميع أهل المعمورة – أ.ك.) في الدولة زمن أغسطس" (١١). لم يكن يوسف ملزما لحضور الإحصاء الروماني بالتوجه مع مريم إلى بيت لحم" (١٢). "لم يكن يمكن أصلا أجراء إحصاء روماني في فلسطين في عهد هيرودس. (١٣). " لا يعرف يوسف فلافيوس شيئا عن إحصاء روماني في فلسطين في عهد هيرودس. وهو، علاوة على ذلك، يتحدث عن إحصاء في السنة السابعة بعد الميلاد (بعد ثلاث أو أربع سنوات من موت هيرودس – أ.ك.) كشيء جديد لم يعهد له نظير " (١٤). " إن إحصاء في عهد قيرينيوس لا يمكن أن يجرى في عهد هيرودس، لأن قيرينيوس لم يكن أبدا واليا على سورية في حياة هيرودس" (١٥). وهكذا تنهار تماما كل رواية ميلاد يسوع في بيت لحم. في حين أن مغزاها ليس أبدا ذا طابع شخصي.

ما كان لبعض الأحداث التي وصفتها الأناجيل أن تمر من دون ان يؤرخها المعاصرون. ونحن لا نعني. "أحداثا" مثل الزلازل وكسوف الشمس في كل أرجاء الأرض لحظة صلب المسيح، فهذه ميثولوجيا طبعا. لا يمكن أن يجرى الحديث إلا عن المجزرة الجماعية لأطفال بيت لحم التي ارتكبها هيرودس، معولا على أن يكون بينهم يسوع المولود حديثا. أن أدبيات ذلك الزمن تتحدث كثيرا عن شرور ذلك الملك المتعطش للدماء. ولكن لا يوجد حرف واحد عن ذلك العمل !

إن ميلاد يسوع في بيت لحم أمر كان يحتاج إليه الإنجيليون ليستندوا إلى نبوة العهد القديم المعروفة. "أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين الوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل " (سفر ميخا، ٢/٥). وإذا كان من بيت داود، فمن الهام، طبعا، أن يولد في بيت لحم بالذات، لأن مهد ذلك البيت كان في تلك المدينة، حسبما جاء في العهد القديم. ولكن رواية الأحصاء لم تكن، كما رأينا، امرأ مطابقا للتاريخ.

وليس الأمر أفضل بالنسبة إلى المكان الأخر المرتبط بسيرة يسوع، إلى الناصرة، حيث يقال أنه أمضى طفولته وشبابه، فهذه المدينة لم تكن في ذلك الحين موجودة أصلاً. ومع كل الحفريات التي قام بها علماء الأثار الغربيون في المكان، الذي كان ينبغي أن تقع فيه

الناصرة فى تلك الأزمنة، لم يعثروا على شيء باستثناء أثار للنشاط البشرى لا أهمية لها بالمرة. حطام أوان وقمامة.

نجد بعض نتائج التنقيب عن أثار الناصرة فى كتاب ى. تومبسون " الكتاب المقدس وعلم الآثار" الذى صدر فى الولايات المتحدة. لا يشك المؤلف فى أن المدينة كانت موجودة زمن يسوع. وتدعيما لهذا ينشر صورتين.... للناصرة الحديثة. ويكتب تحت أحداها. "لعل هذه اللوحة الرائعة تصور أماكن كثيرة سارة فيها يسوع" (١٦). ويعرب المؤلف عن حماسته لأن " الاكتشافات الباهرة لعلم الآثار المعاصر" تؤكد أخبار الكتاب المقدس، ولأنه تحصل بالنتيجة على "مجموعة جيدة" لكل ما يتطلب البرهان. ولكن ماذا بشأن الناصرة ؟ لقد كانت موجودة و"موقعها الجغرافى يمكن تحديده اليوم بسهولة تماما" (١٧). ولكن يتلو هذا تحفظ حائر. "على الرغم من أن معارفنا الأثرية عنها (يقصد أيضا مدينتين أخريين – أ.ك.) محدودة"، ثم يقول. "مما لا شك فيه أن الناصرة لا تستطيع أن تقدم إلينا اليوم إلا القليل من المواد الموثوقة عنها" وحتى أن بعض المؤلفين "يفترضون أن ناصرة العهد الجديد يمكن أن تكون بعيدة بعض الشيء عن الناصرة الحالية" (١٨). وباختصار، أن علم الآثار لا يستطيع فى مسألة الناصرة أن يساعد بشيء أنصار نظرية تأريخية المسيح.

إن اسم مدينة الناصرة نفسه لم يصبح معروفا لأول مرة إلا من العهد الجديد. ولا يوجد ذكر للناصرة ضمن المدن الواردة فى العهد القديم، ومن بينها عشرات المدن التى استولى عليها يشوع بن نون. ولا توجد الناصرة أيضا بين المدن الخمس والأربعين الواردة فى مؤلفات يوسف فلافيوس. لا شك فى أن الناصرة لم تكن موجودة فى تلك الأزمنة التى تعزو إليها الأسطورة حياة يسوع، فقد ظهرت بعد ذلك ببعض الوقت. فأضافها الإنجيليون إلى سيرة يسوع لاحقا.

إن المغالطات الجغرافية فى الأناجيل كثيرة عموما. إذ يجرى الحديث، مثلا، إن الخنازير كانت ترعى "فى كورة الجدريين" على شاطئ بحيرة طبرية (مرقس، ٥/١/ ١١) ولكن كورة الجدريين تقع بعيدا عن هذه البحيرة. وفيما بعد أدخل أوريجينس (قرابة ١٨٥

– ٢٥٣ / ٢٥٤ ب.م.) تعديلا فى الرواية الإنجيلية هنا. فقد اقترح اعتبار أن الأمر جرى " فى ساحية الجراسيين" التى تقع فعلا عند شاطىء البحيرة. ولكن مرقس لا يتحدث عن ناحية الجراسيين، بل عن كورة الجدريين ! وكذلك تحدث انطباعا غريبا خطوط جولات يسوع فى فلسطين، مثلا من صور إلى صيدا عبر المدن العشر التى تقع بعيدا عن الطريق بين هاتين النقطتين. ولم يكن مقر بيلاطس البنطى فى أورشليم، بل فى قيصرية فلسطين.

يبدو أن الإنجيليين لم يكونوا يعرفون الظروف الجغرافية والطبيعية لفلسطين إلا بالسمع. أنهم لم يعرفوا هذه البلاد. وكانوا فى وصفهم لمسيرات يسوع يقتصرون على أكثر الإشارات تعميما. "إلى البحر"، "إلى الجبل، إلى الطريق" وفى فلسطين يكون الشتاء باردا أحيانا، ولاسيما فى الجبال، ولكن أحدا من الإنجيليين لم يتحدث مرة واحدة عن أن المسيح أحس بالبرد أو ارتدى دفاء فى حالة من الحالات. من عالمى النبات والحيوان لا تأتى الأناجيل كقاعدة عامة على ذكر الأصناف التى كانت موجودة فى هذا البلد حينذاك، بل تلك التى كانت مميزة لمناطق أخرى من البحر الأبيض المتوسط. وفى الحالات التى يجرى فيها الحديث عن أصناف كانت توجد فى فلسطين، كان الإنجيليون، إذ يصفونها يرتكبون أخطاء فاحشة، وهكذا، يجرى الحديث عن الخردل، النبات العشبى، كما لو كان شجرة متشابكة الأغصان وافرة الظلال (لوقا، ١٩/١٢).

ولا يعرف الإنجيليون جيدا الأخلاق الاجتماعية فى فلسطين القديمة. فبعض المشاهد التى يصفونها كانت مستحيلة فيها، أو بعيدة الاحتمال على الأقل، فليس من المعقول أن ترقص ابنة ملكة فى مأدبة على الملأ، كما جاء عند متى (١٤ / ٦) ومرقس (٦/ ٢٢) هذا أمر كانت تمارسة "البغايا" ذوات المنشأ الوضيع. .. بالإضافة إلى أن سالومة ابنة الملكة، التى يجرى الحديث عنها، لم تكن فى ذلك الحين، كما هو معروف فتاة صبية، كما صورت فى الإنجيلين، بل امرأة أرملة.

وليس معقولا مشهد قيام يسوع بطرد "الباعة والصرافين" من الهيكل. إن لم تكن تجرى فى الهيكل أية متاجرة إجمالا، ولم تكن هناك عمليات لصرافة النقود، وكانت المتجارة بحيوانات التضحية تجرى فى الشوارع المجاورة للهيكل. وقد كانت ضرورية لضمان مسيرة

طبيعية للشعائر التى كان تقديم الضحايا جزءا لا يجزئ منها. وما كان لأحد فى هذه الظروف أن يسمح ليسوع بالتسلط والنزق اللذين يعزيان إليه، بل كان من شأنه أن يضرب حتى يشارف على الموت أو يقتل.

غالبا ما تشير الأناجيل إلى الجنود الرومان. هذا فى حين أنه لم يكن لهم وجود فى فلسطين حينذاك، ولم يكن هناك سوى auxilia ، القوات المساعدة التى كان يجرى تشكيلها من السكان المحليين، أما الجنود فلم يظهروا إلا زمن الحرب اليهودية أعوام ٦٦ – ٠٧٣ هذا بالإضافة إلى أن الجنود الرومان يوصفون على نحو غريب. فهم مطلعون على العهد القديم. ويستشهدون به أحيانا (يوحنا، ٢٤/١٩).

وبعيدة عن الواقع جملة وتفصيلا لوحة محاكمة يسوع. إذ لم يكونوا يستطيعون محاكمة يسوع ليلا عشية عيد الفصح اليهودى ولا فى الفصح نفسه، فالمحاكمة فى الليل غير جائزة إجمالا، أما فى الأعياد وعشية العيد فمحرمة أصلا. وفى الفترة التى يجرى الحديث عنها لم يكن يحق للمجلس أن يحاكم، بل كان هذا الحق يعود إلى السلطات الرومانية. وفى تلك الأزمنة حينما كان المجلس يتمتع بهذا، لم تكن المحاكمة تجرى فى بيت رئيس الكهنة، بل عند الهيكل. وكان يوجد دوما رئيس كهنة واحد، لا رئيسان أو أكثر (رؤساء الكهنة – متى الأصحاحان ٢٦ ، ٢٧. مرقس، الأصحاح ١٥. لوقا، الأصحاح ٢٢). ولم تكن عند العبريين أبدا عادة إطلاق سراح مجرم فى أعياد الفصح. ولم يكن الصليب هو أداة الإعدام، بل عمود مع عارضة على شكل حرف. (T)

ويبدو غريبا تصوير الأناجيل لتصرف بيلاطس. يبلغ بأن يسوع يسمى نفسه ملك اليهود و يسوع نفسة لا ينفى ذلك.يبدوا انه كان علي الوالي الروماني أن يسبغ علي هذا الطرف مغزى كبيرا، فأمامه متمرد يتطلع إلى تصفية سيطرة روما على فلسطين وإقامة سلطته. هذا فى حين أنه لم يجد فى اليهود بأن يشكوا به إلى السلطة المركزية فى روما. ومن المعروف أجمالا أن بيلاطس كان إنسانا قاسيا لا يعرف الشفقة، وهكذا فإن تردده فى شأن يسوع ومحاولات إنقاذه أمر غير مفهوم.

يوجد بين الاناجيل في الأخبار عن حياة يسوع عدد كبير من الاختلافات والتناقضات. وهي تبدأ منذ التطرق إلى نسبة.

إذا اتخذنا المواقف الميثولوجية حول الحبل بلاد دنس فإن شجرة النسب في هذه الحالة لا تنطوي على أي معنى. الله هو الأب من خلال روح القدس، ولا مجال بعد هذا للبحث عن أي جدود. ولكن الأناجيل تأتي مع ذلك على ذكر الأنساب، لأنه يجب بشكل من الأشكال البرهان على أن أصل يسوع من الملك داوود، والأنساب على هذا النحو شكلية من وجهة النظر المسيحية ولكنها ضرورية على أي حال. وتوجد في الأناجيل شجرتا نسب، وهما مختلفتان تماما. عند متى يبدأ النسب من إبراهيم ويضم ٤٢ جيلاً وصولا إلى المسيح. وأقرب الحلقات الأخيرة إلى يسوع تبدو على النحو التالي. زربابل، أبيهود، الياقيم، عازور، صادوق، أخيم، اليهود، عازر، متان، يعقوب، يوسف، يسوع (متى، ١/١٢/ – ١٦). وعند لوقا يبدأ النسب بأدم، وعدد الأجيال من إبراهيم إلى يسوع يبلغ (٥٦ لا ٤٢) كما عند متى. ولو أخذنا حلقات النسب الاثنتي عشرة كما أوردناها عند متى، لوجدنا أنها تبدو عند لوقا على نحو مغاير تماما. حسلي، ناحوم، عاموس، متتيا، يوسف، ينا، ملكي، لاوي، متات، عالي، يوسف ويسوع (لوقا ، ٢٣/٣ – ٢٥). ويشير الإنجيلان إلى أجداد يسوع الآخرين حتى إبراهيم على نحو متباين أيضا. التناقض واضح للعيان.

منذ ميلاد يسوع تقريبا يضطر أبواه إلى انقاذ ابنهما من كيد الملك هيرودس، فيهربان بالطفل إلى مصر حيث أقاموا فيها إلى أن توفي هيرودس. هذا ما جاء عند متى (١٤/٢، ١٥) أما عند لوقا فلا توجد أية كلمة عن الهرب إلى مصر. ويعيش يسوع مع أبويه في فلسطين كل حياته. وبالمناسبة، ثمة تناقض بين الأناجيل في هذه المسألة أيضا في الأناجيل الثلاثة الأولى عاش في الجليل حتى دخوله حلبة الوعظ، أي في قرابة الثلاثين من العمر، أما في إنجيل يوحنا فيمكن أن يفهم أنه أمضى كل حياته في أورشليم.

عند متى ومرقس قام يوحنا بتعميد يسوع (متى ، ١٣/٣ – ١٦ ، مرقس ٩/١). أما لوقا فيؤكد أن المسيح عمد نفسه بنفسه، وكان يوحنا في السجن حينذاك (٢٠/٣ –٢١). وهذه التناقضات لا حصر لها في التفاصيل التي تصفها الأناجيل عن سيرة يسوع. ما هو اسم

الرسول الثاني عشر؟ " لباوس الملقب تداوس" (متى ، ٣/١٠)، "كلا يهوذا بن يعقوب" (لوقا، ١٦/٦). عند متى دخل يسوع أورشليم قبل الفصح بأربعة أيام، وعند يوحنا قبله بخمسة أيام. كان اللصان المصلوبان مع المسيح يشتمانه ويعيرانه. (متى ، ٢٧ /٤٤). أحدهما شتمه، والأخر، على العكس، بجله (لوقا، ٣٩/٢٨ – ٤٢)

وتعرض الأناجيل على نحو متباين أيضا واقعة هامة، وهي ظهور المسيح للناس بعد قيامته. يوحنا يؤكد أنه ظهر أول ما ظهر لمريم المجدلية ثم للرسل (١٤/٢٠ –٢٤) ويصور لوقا الأمر على نحو أخر. ظهر يسوع أول الأمر لاثنين مجهولين (أحدهما اسمه قاويا)، ثم للرسل جميعا ما عدا يهوذا الذى كان انتحر، على ما يبدو (١٣/٢٤ – ٣٦). يضع مرقس ثلاث درجات لهذا الحدث. أولا ظهر لمريم المجدلية، ثم لاثنين من الرسل، وأخيرا للباقين. وعند متى بدوره، رواية أخرى. ظهر يسوع أول الأمر لأمرأتين. مريم المجدلية و"مريم أخرى" غير معروفة (١/٢٨ – ٩). نقتصر على هذه الأمثلة، مفترضين أنها تعطى تصورا كافيا لتناقض الأخبار الإنجيلية الفعلية – الملموسة المتعلقة بشخصية وسيرة يسوع المسيح.

إن مئات العلماء – المؤرخين والفيلولوجيين، وكذلك اللاهوتيين – بحثا من سنة إلى سنة ومن عقد إلى عقد في العهد الجديد، ولاسيما الأناجيل عن مادة لبناء سيرة ليسوع. وتوصلوا أخيرا إلى هذا الاستنتاج الذى سجل حتى في الكتاب اللوثرى المدرسى لدورة "المدخل في العهد الجديد". "ليست الأناجيل أخبارا تاريخية بالمعنى المعاصر ولا بالمعنى القديم لهذه الكلمة، أنها عبارة عن فن أدبى من نوع خاص. يجب على المؤرخ المعاصر بالنسبة إلى كل حادثة ترتبط بحياة يسوع، وبالنسبة إلى كل كلمة ليسوع أن يبحث فى ما إذا كانتا تعودان إلى زمن حياته، وهذه الأبحاث لن تؤدى إلى نتيجة معينة إلا فى حالات قليلة" (١٩). ومع ذلك فإن العشرات، أن لم يكن المئات، من المؤلفين قد ألفوا ونشروا كتباً بعنوان "حياة يسوع" معتمدين على الأناجيل بالذات.

أن قيمة هذه المؤلفات فى الواقع أمر بينه البير شفيتسير فى دراسته الضخمة التى صدرت أول مرة فى عام ١٩٠٦ ثم أعيد طبعها مرارا. يتضمن الكتاب إلى حين طبعة عام ١٩٦٦ التى صدرت فى سنة وفاة المؤلف هذا الاستنتاج الذى ينطوى على معان كثيرة.

"إن يسوع من الناصرة، الذى عمل كمنقذ ووعظ بأخلاق ملكوت الله وأسس ملكوت السماوات فى الأرض ومات ليقدس نشاطه، لم يوجد فى يوم من الأيام، أنه صورة نبذها العقل وبعثتها الليبرالية والبسها اللاهوت المعاصر ثيابا تاريخية" (٢٠). وقد انهارت الآن تماما. أبمكائد الرافضين الحاقدين أم بالانتقاد من جانب العقلانيين ؟

كلا، كما يجيب شفيتسير، "فهو نفسه منهار فى ذاته ومتزعزع ومتصدع بمعضلات تأريخية فعلية كانت تنشب الواحدة أثر الأخرى أمام يسوع اللاهوت فى السنوات المئة والخمسين الأخيرة، على الرغم من كل ما بذل هنا من حيل وفن وتصنع وقسر، معضلات حلت مرارا وما أن تدفن حتى تظهر فى شكل جديد" (٢١). ويعتبر اللاهوتى أن "يسوع التأريخى لا يستطيع بعد اليوم أن يخدم اللاهوت المعاصر"، وحتى أنه مستعد للاعتراف بأن "أساس المسيحية التأريخى، كما كان يفهمه اللاهوتيون العقلانيون والليبراليون، لم يعد له وجود" (٢٢).

يستحيل، والحق يقال، فهم موقف شفيتسير فى مسألة تاريخية المسيح أو اسطوريته. فهو، من جهة، يهاجم أنصار المدرسة الميثولوجية ويرفض طروحاتهم ومن الجهة الأخرى يكتب هكذا: "يمثل يسوع شيئا بالنسبة إلى العالم الأخر، لأنه ينبعث منه سيل روحى عارم يغسل زمننا. هذا الواقع لا يمكن زعزعته ولا ترسخه بالمعروف التاريخية. ثمة رأى يقول بأن يسوع يستطيع أن يكون بالنسبة إلى زمننا شيئا أكبر لو أنه دخل البشرية كإنسان. ولكن هذا مستحيل. أولا. لأن يسوع هذا لم يوجد أبدا. ثم لأن البحث التاريخى قد يدخل وضوحا فى مسألة حياة المسيح الروحية، ولكن لن يبعثه إلى الحياة (٢٣).

وعلى أى حال، ففى صدد السؤال عما يمكن استخلاصه من العهد الجديد، ولاسيما الأناجيل، لأ قرار تاريخية المسيح، يرد شفيتسير، مسلحا بكل معارفه العملاقة وبعد تحليل كل ما كتب عن هذه المسألة "من ريماروس إلى فريدى" : لا شىء على الإطلاق. إن أطر تاريخ المسيح تتكشف فى الأناجيل الثلاثة الأولى كشىء ثانوى. وإلى جانب ذلك، تنعدم تقريبا كل التفاصيل الحياتية الضرورية للسيرة (٢٤).

إن استنتاج شفيتسير هذا يؤكده مؤلفون معاصرون كثيرون من المعسكر اللاهوتى. ولا تخلو من الأهمية، مثلا، أقوال اللاهوتى البروتستانتى الألمانى، المختص فى العهد الجديد ف. كيوميل.

قبل بداية القرن الحالى ترسخ فى الأدبيات رأى مفاده أن إنجيل مرقس أكثر مدعاة للثقة من الأناجيل الأخرى من وجهة نظر الأمانة التاريخية. إن الدراسة المتمعنة لوثيقة "أقوال" يسوع لم يصل إلينا إلا نبذات منها التى كانت تعتبر سابقا المصدر الأساسى لإنجيل مرقس، وكذلك البحث فى قضية التقاليد الشفوية التى ربما كانت الأساس الذى قام عليه هذا الإنجيل قد بينا، كما يقول كيمويل، أن " أماكن بناء لوحة يعول عليها تاريخيا لحياة يسوع وتعاليمه على أساس إنجيل مرقس أمر مشكوك فيه أو محدد (٢٥) ويستشهد كيوميل فى غضون ذلك برأى اللاهوتيين البروتستانتيين م. كيلير وربولتمان.

فى أواخر القرن الماضى أصدر م. كيلير كتاب يحمل هذا العنوان المعبر "حول ما يسمى بيسوع التاريخى وبمسيح الكتاب المقدس التاريخى (٢٦). وتتلخص فكرته الرئيسية فى أنه يستحيل على اللاهوت بناء تعاليم المسيح على سيرته الواردة فى الأناجيل. من غير المجدى، كما كتب كيلير، العمل بالنتائج المشكوك فيها والمتزعزعة للبحث العلمى فى النصوص الإنجيلية، لأنه لا توجد فى هذه النصوص مادة لبحث كهذا.

إن الآراء من هذا النوع يعرب عنها من حيث الأساس مؤلفون بروتستانت. ولكن إذا كان اللاهوتيون الكاثوليك يتهمونهم سابقا بالعقلانية والعدمية وما شابه ذلك من الآثام، فهم الآن مضطرون هم أنفسهم إلى سلوك هذا السبيل إزاء سيرة يسوع فى العهد الجديد. يقول المختص البولندى فى الأديان ز. بونياتوفسكى فى هذا الصدد. "فى المدة الأخيرة أخذ الإنجيليون الكاثوليك كذلك ينوهون بأن الأناجيل لا تعطى سيرة يسوع Sensu stricto (بالمعنى الدقيق -- أ.ك.) (٢٧). ويشير فى هذا الخصوص إلى كتاب ف. تريضينغ الذى يتضمن فصلا بهذا العنوان الخطير "لماذا لا توجد "حياة يسوع"؟.

ولكن ماذا يفعل لاهوتيو الدين الذين يشغل الإنسان الرب يسوع الحيز المركزى فى تعاليمهم ؟ يهب للمساعدة التقسيم المزعوم heisgeschichte والتأريخ الفعلى. يجب، كما

يقولون، التوجه إلى شخصية المسيح " الفعلية" (!) فهي ليست يسوع التاريخي للبحث المعاصر، بل المسيح الذى وعظت به شهادات الرسل. وهذا اعتراف مموه بفشل الشهادات التاريخية على الإنسان يسوع.

بعد بضع عشرات من السنين تقدم بالمفهوم نفسه في جملة من الكتب أيديولوجي "إزالة الميثولوجيا" ر. بولتمان. وقد دعم مفهوم" heilsgeschichte المنقذ بمفهوم الكيريغما (ومعناه باليونانية "الموعظة) . لا ينبغي، كما كتب بولتمان، تجاوز الكيريغما لإعادة بناء يسوع التاريخي. الله ليس يسوع التاريخي، بل يسوع المسيح الذى وعظ به (٢٨).

إن ف. كيوميل، الاختصاصي في "لاهوت العهد الجديد، إذ يورد مواد كهذه، يعرب عن مخاوفه "أليس من الخطر على هذا اللاهوت وعلى المسيحية عموما الاعتراف العلنى بأن "يسوع التاريخي" عبارة عن شخصية وهمية ؟

ويعترف بأنه يوجد هنا، طبعا، ما يدعو إلى الحرج. ومجرد صرف النظر عن هذه المسألة أمر مستحيل. فالمؤرخ، مثلا، لا يستطيع التهرب منها، لأنه إذا أراد أن يفهم إجمالا منشأ المسيحية فعليه إن يعرف شيئا (!) عن يسوع، ثم أنه ليس من السهل أيضا على المسيحي المؤمن العادى أن يوافق على صرف النظر عن مسألة المسيح. ولما كان يتلقى التعاليم عن يسوع المسيح الذى قام من خلال شهادة الرسول ويمنح هذه التعاليم إيمانه، فإنه يلقى فيها ما يؤكد أن الرب الذى قام هو ذلك الإنسان نفسه، يسوع من الناصرة، الذى كان عدد من شهود القيامة معه في خلال نشاطه الدنيوى" (٢٩). وينجم عن هذا أن " الإيمان، إذا كان يأخذ مضمونه بالحسبان، أى يحاول أن يستوعب ذاته لاهوتيا، مَعنى على نحو ملح بحل المسألة، معنى بتلك الدرجة التى ستكون عليها صورة ما ليسوع المسيح تقوم على مواعظ الرسل متفقة والحقيقة التاريخية ليسوع هذا" (٣٠).

ويبقى هذا الاستنتاج المحزن راسخا: "يَعترف اليوم بإننا لا نستطيع أن نعطى أية صورة ليسوع وأى عرض لتاريخ تطور موعظة يسوع" (٣١). فما هو المخرج من هذا الوضع ؟ تتلو ذلك قائمة طويلة لمختلف جوانب المعضلة نفسها. يرد ذكر المقارنة الأدبية للأخبار المتوازية في الأناجيل والتحديد التحليلي لبعض عناصر التقاليد، والتمييز الشكلي التاريخي

لمختلف أشكال الرواية والأحاديث وأمور كثيرة أخرى. وكل هذا ينبغي أن يعنى الوسائل المساعدة المنهجية الضرورية بيد أنها هي أيضا لا تستطيع، كما يقول المؤلف، أن تعطي صورة صحيحة تاريخيا، بل مجرد صورة واحدة مفهومة ليسوع ومواعظة" (٣٣).

وهكذا، فحتى عدد من اللاهوتيين يعترف بأن الأخبار الإنجيلية عن المسيح ليست صحيحة ولا تاريخية.

معطيات من خارج الإنجيل

إن يسوع المسيح إنسان أو إنسان إله أثارت حياته ونشاطه، كما تقول الأناجيل، حركة شعبية جبارة هزت في مستهل ثلاثينات القرن الأول بعد الميلاد فلسطين بأسرها ولكن لم تكن هناك حركة كهذه في تلك السنوات، كما لم تكن لها أصداء واسعة في أدبيات ذلك الزمن، وفي الرأي العام لشعوب فلسطين وذاكراتها.

يصف ل. فيختفا نغير في روايته التاريخية "الأبناء" كيف أن يوسف فلافيوس جمع في ثمانينات القرن الأول، وهو يقوم بجولة في فلسطين معلومات عن شخص يجله المينيون المسيحيون – أ.ك.) باعتباره المنقذ. من المفهوم بداهة أن هذا نتاج لمخيلة الكاتب الفنية. ولكننا هنا لسنا أمام تخيل، بل أمام بناء صادق تاريخيا يقوم على دراسة منزهة للمصادر. ونحن هنا لا نستخدم نص فيختفا نغير كبرهان في مصلحة أية موضوعة كانت، بل لمجرد التوضيح، وهكذا، فإن يوسف، كان يفترض أنه على علم بكل من أحيل في العقد الأخير إلى المحاكمة كنبي مزيف، ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن يسوع المينيين"(٣٣).

تقول الأشاعات التي كانت معروفة ليوسف أن "يسوع هذا قد صلب في عهد الحاكم البنطي بيلاطس" (٣٤)، مما أثار بحد ذاته شكوكا جدية لدى المؤرخ العبري، لأن. "الصلب كان عقابا لا يستطيع أن يحكم به إلا الرومان" (٣٥)، أما العبريون فكانوا يستخدمون وسيلة أخرى للإعدام اخذ يوسف يبحث عن أثار يسوع بواسطة الاستعلام من السكان المحليين الذين كان يمكنهم أن يتذكروا الأحداث المرتبطة به، أو يعرفونها من جيل غادر الحياة مؤخرا. سأل هنا وهناك. سأل في الناصرة التي تقول الشائعات أن هذا

الشخص ولد فيها، وسأل على شواطئ بحيرة طبرية. ولكن الناس قالوا فى الناصرة وعلى شواطئ بحيرة طبرية. "لا نعرف هنا شيئا، وقالوا فى مجدل. "لا نعرف هنا شيئا وقالوا " لا نعرف هنا شيئا" فى طبرية وكفر ناحوم" (٣٦). ثم عثر على شخص من كفر ناحوم حدث يوسف ببعض الأشياء. لقد أخبره المسيحى تاخليفا أن المسيح أبدى أيات واجترح معجزات. ولكن رجال الدين لم يريدوا روية هذا، لقد طمعوا ولم يريدوا أن يرتفع يهوه فوق العالم بأسره على حسابهم. أرادوا أخفاء يهوه كما يخفى المرابى ديناراته فى صك... وعقابا على هذا دمرت أورشليم التى "قتلت نبى الله ولم تعرف المسيح" (٣٧). معلومات شحيحة ! وذلك بعد خمسين سنة فقط على تلك الأحداث الجبارة...

يبدو أن الأمر كان هكذا. فى أواخر القرن الأول ب.م. لم يكن سكان فلسطين ولا الكتاب والمؤرخون يعرفون أى شىء تقريبا عن يسوع المسيح. وهذا ما تشهد عليه أيضا نتائج دراسة المواد التى عثر عليها فى قمران.

يتبين من مضمون الوثائق، التى فكت رموزها إلى الآن ونشرت، أنه لم يعثر فيها على أقل أثر لأسفار العهد الجديد وأى ذكر للمسيح ولا للمسيحيين.

تقع قمران على مقربة مباشرة من الأماكن التى يفترض أن الأحداث الإنجيلية الرئيسية جرت فيها. وكان سكانها من طائفة الأسانيين اليهودية الذى كانت ديانتهم وعقيدتهم قريبتين من المسيحية من حيث المضمون. وقد أسبغ القمرانيون مغزى كبيرا جدا على "الكتب" – المخطوطات التى صيغت فيها عقائدهم ومبادئ حياتهم وتعاليمهم الدينية والخلقية. وكما هو معروف، لم يعثر فى مكان استيطانهم على مكتبة كبيرة من هذه المخطوطات فحسب، بل وعلى "مطابع" لذلك الزمن من نوع خاص، حيث كان يجرى نسخ كتبهم. ويتضح أنه لا يوجد ضمن هذه الوفرة من المراجع التى عثر عليها أقل تلميح إلى تلك الأحداث العظيمة التى جرت إذا صدقنا الأناجيل، قبل ذلك بمدة لا تتجاوز ٣٠-٣٥ سنة على مسافة عشرين كيلو مترا من مستوطنة قمران نفسها ...

يصعب تصور أن يسوع فى خلال تجواله فى فلسطين لم يعرج مرة واحدة إلى منطقة المستوطنات الأسانية. يمكن التفكير فى أنه تجنب تلك الأماكن عمدا. ولكن ما هى

مسوغاته لذلك ؟ ومن باب أولى أن يكون هذا بعيدا عن الواقع فى ضوء القرابة بين تعاليمه وروح تعاليم الأسانيين ونمط حياتهم. وهذا فى حين أنه لا يوجد فى الأناجيل شىء عن الأسانيين، ولا فى الأدبيات الأسانية شىء عن المسيح. أية دلائل يمكن أن تكون لهذا ؟

ثمة فى المراجع تخمينات كثيرة فى صدد أسباب عدم تطرق أسفار العهد الجديد إلا إلى ثلاثة أحزاب دينية - سياسية فى بلاد اليهودية، الفريسيين والصدوقيين والزيوتيين، أما الحزب الرابع، الأسانيون، فلا يرد حتى مجرد ذكر لهم. يفسر بعض المؤلفين هذا بكون العهد الجديد، ولاسيما الأناجيل، لم يتحدث الا عن التيارات التى كان يسوع يقف منها موقفا سلبيا، أما الأسانيون فكانوا قريبين إليه، وكان يعنيهم بالذات حينما تحدث عن الاتقياء وعن البؤساء روحيا إلخ. بيد إنه يستحيل البرهان على هذا الاقتراض، فهو خلو من الأساس تماما. ويمكن بالأخرى تفسير واقع صمت الأناجيل عن الأسانيين بكونها لم تكن تعرف شيئا عنهم. وهذا ممكن، كما نفترض، إذا لم يكن الإنجيليون من مواليد فلسطين ولا من سكانها، ولم تصل إليهم معلومات وافية عن حياتها الدينية - الاجتماعية. وحيث أنهم، إلى جانب ذلك عاشوا وكتبوا فى أواسط القرن الثانى، حينما كانت الحركة الأسانية قد غادرت المسرح عمليا، لم يكن عندهم مصدر يأخذون منه معلوماتهم غير مؤلفات يوسف فلافيوس وفيلون وبلينوس الأكبر. وربما تكون هذه المؤلفات أو جزء منها قد فاتتهم.

وفى هذا الصدد لا يهمنا كون الإنجيليين لم يعرفوا الأسانيين بقدر ما يهمنا الجانب الأخر لهذه العلاقة، وهو أن القومرانيين فى ستينات القرن الأول وفى وسط فلسطين لم يكونوا، كما يبدو، يعرفون شيئا عن يسوع المسيح، ولا عن الحركة الدينية - الاجتماعية التى أثارها نشاطه. وهذا معناه أنه كانت عند فيختفا نغير المسوغات كلها ليعتبر أنه لم يسمع فى اليهودية فى النصف الثانى من القرن الأول عن المسيح وأعماله ومصيره التراجيدى الا القلائل وهذا برهان أخر على أنه لا مجال حتى للحديث عن أحداث مشهودة وحركات شعبية جبارة مرتبطة بحياة يسوع المسيح. ولكن الأناجيل تتحدث عن هذه الأحداث وهذه الحركة بالذات!

لنتخيل هنا شخصا يريد أن يضطلع بدور معترض فى هذه المسألة. ولنقدم إليه الكلمة.

المعارض. تعالوا نتناول المسألة من جانب أخر وننظر فى بعض الحقائق التى لم تنوهوا بها إلى الآن.

من المعروف أن اسم "المسيحيين" ظهر فى وقت متأخر ليس قبل أواسط القرن الثانى، بالإضافة إلى أن هذا الاسم لم يطلقه أنصار الدين الجديد على أنفسهم، بل أتاهم من غيرهم. فى العقود الأولى من وجود المسيحية كان أتباعها يسمون أنفسهم "الفقراء" ، أبيونيهم" بالعبرية القديمة وكان القومرانيون يطلقون على أنفسهم هذه الكلمة أيضا. حينما حظيت المسيحية بانتشار معين بقى لعدة قرون بين فروعها وطوائفها العديدة الاتجاه المسيحى اليهودى الذى يحمل تسمية الأبيونية نفسها. لماذا لا نضع هنا خطا مستقيما لمنشأ المسيحية عموما؟ فالمسيحيون الأوائل، من وجهة النظر هذه، أبيونيون قمرانيون. كان ذلك، طبعا، مسيحية لم تتسلخ بعد عن اليهودية، وبالمناسبة، فإن المسيحية الأولى كانت مسيحية يهودية. وفيما بعد، مع انتشار الدين الجديد بين غير العبريين وانفصال المسيحية عن اليهودية، تحولت الأبيونية من جذع أساس لهذا الدين إلى فرع ثانوى، إلى طائفة اضمحلت لاحقا. إذا اعتمدنا هذا المخطط لنشوء المسيحية، فسيزول الكثير من تصوراتكم.

وعندئذ يتضح أن المسيحية كانت تذكر فى الوثائق القومرانية باسم الأبيونية. وتفقد المغزى الحجة القائلية بأسطورية المسيح، وبأن شخصيته تطورت من إله إلى إنسان، لا بالعكس، مما ينجم عنه إن المسيح تخيله الناس إلهاً أول الأمر ولكن الأبيونيين لم ينظروا إلى المسيح كأله، بل كأنسان بالذات، فقد نفوا، مثلا، ولادته بلا دنس واعتبروا أنه ولد بصورة طبيعية عن أبوين دنيويين. فبم تستطيعون معارضة هذا الحل للمسألة ؟

المؤلف. إنه يأسر باتساقه. ولكن لننظر إذا كان يمكن دعمه بوقائع تبرهن عليه.

غالبا ما كان القومانيون، بالفعل يسمون أنفسهم فى وثائقهم بالفقراء. "أبيونيم، وكان الفقر المادى عندهم أحد متطلبات الحياة التقية.

يمكن التسليم بأن تسمية الأبيونيين نفسها كانت، مع أنها ليست الوحيدة عندهم، تحدد الانتماء إلى الطائفة القومرانية، فهل انتقلت هذه التسمية إلى المسيحيين الأوائل ؟ هذا أمر مشكوك فيه جدا.

ترد كلمة "الفقراء" مرات كثيرة في العهد الجديد، ولكن لا ترد أبدا بمعنى الانتماء الديني. حينما يقال، "بع ما تملكه وتصدق بثمنه على الفقراء، طوبى للفقراء، " إذ أقمت مأدبة فادع الفقراء والزمن، "عازر الفقير" إلخ. فالمقصود في كل هذه الحالات، كما يبدو، الفقراء بالمعنى الحرفي للكملة، أي المعوزين. ويستحيل هنا تصور أقل برهان على أنه لا تقصد السمة المادية هنا بقدر ما تقصد السمة الدينية. ولا توجد أية حجج أخرى تشير إلى أن المسيحيين سموا أنفسهم بالأبيونيين أول الأمر. وسلسلة الأبيونية الثلاثية الحلقات. القومرانيون – المسيحيون الأوائل – طائفة الأبيونيين تنقطع في حلقتها الوسطى، مع العلم أنها ليست قوية جدا في حلقتها الأولى. وإذا كان الأمر كذلك فأن التصور الأبيوني عن المسيح الإنسان لا يمكن أن يكون مميزا للمرحلة الأولى من تأريخ الأسطورة، بل لإحدى مراحلها اللاحقة.

المعارض. على مسلككم، ثمة هنا ما يستحق التفكير. عن كتب أباء الكنيسة، التي نأخذ منها معلوماتنا عن الأبيونية تحدث أيضا عن هرطقات النذيرين والألكسائيتيين، مع العلم أنه لم يكن يوضع حد واضح بين هذه الفروع الثلاثة للمسيحية – اليهودية، وفي الأناجيل سمي يسوع نفسه بالنذير عدة مرات. وهذه التسمية لم تأتي، طبعا، من اسم مدينة الناصرة، فهذه المدينة لم تكن موجودة حينذاك، وهذا الاشتقاق غير جائز لغويا. والأمر يختلف إذا افترضنا أن المسيحيين سموا أنفسهم منذ البداية بالنذيرين الأمر الذي قد ينطوي على معنى الأبيونية نفسه. وفي هذه الحالة تبقى الحلقة الوسطى في السلسلة صامدة.

المؤلف. تقترحون مجددا مجرد تخمين. في الأناجيل يسمى المسيح وحده بالنذير، وهذه التسمية لا تطلق على اتباعه، وحتى على الرسل. فمن أين أتت هذه التسمية للمسيح؟ من العهد القديم. في سفر العدد يوجد هذا القول. "إذا أنفرز رجل أو امرأة لينذر نذر النذير لينتذر للرب..." (العدد، ٢/٦) . ثم يأتي تعداد للواجبات التي تشكل بمجموعها

مثلا لحياة الزهد. وفي سفرين آخرين من الكتاب المقدس (القضاة وبنوة عاموس) يرد مرة أخرى ذكر النذيرية كمفهوم يعني اختيار الله لشخص ما وتمتعه بإيمان خاص - ومن الواضح أن هذه الكلمة صارت تعني لاحقا عند العبريين القدماء المختار من الله، التقي، الزاهد. ويمكن فهم أن المسيحيين الأوائل أطلقوا هذا الاسم على مؤسس ديانتهم الحقيقي أو الوهمي.

وفي التقاليد اليهودية اللاحقة لم يعد يطلق على المسيح غالبا "نذير"، بل "نوتسري" التي يمكن اشتقاقها من "نيتسير"، ومعناها الفرع. من المفهوم أن الحاخامات رفضوا ربط شخصية يسوع المسيح بمؤسسة النذيرية الموقرة في العهد القديم، واستخدموا للدلالة عليه كلمة مرتبطة بمفهوم الفرع والانشقاق وحتى السقوط.

نتابع الآن النقاش الذي قطعته مداخلتنا المعارض. من المعروف أنه لا توجد شهادات خطية عن الأحداث التي وصفتها الأناجيل، شهادات معاصرة لتلك الأحداث نفسها. ولكن لابد من مراعاة واقع أن عددا ضخما من الوثائق قد أتلفته الكنيسة ورجالها. سواء في القرون الأولى من وجود المسيحية أو في أوائل القرون الوسطى. وعلى النحو نفسه تصرف الحاخامات اليهود، منطلقين من اعتباراتهم الدينية. وتلف عدد كبير جدا من المخطوطات في خلال عدة حرائق وقعت في مكتبة الإسكندرية الشهيرة التي كانت تضم قرابة الثمانمئة ألف كتاب. ولعلها كانت في ذلك الحين أكبر مستودع كتب في العالم. ومن يدري فربما تلفت فيها مواد لو كانت الآن تحت تصرفنا لا زالت شكوكنا ؟

نحن لا نعرف مضمون الوثائق التي لم تصل إلينا. لا يمكن لأحد أن ينفي نفيا قاطعا افتراض أنه كانت توجد هناك شهادات على المسيح التاريخي، ولكن العلم لا يستطيع العمل بالتخمينات. وليس في الوسع إلا الإعراب عن الأسف على تلف تلك الوثائق التي ربما كانت في غاية القيمة وتركيز الاهتمام على تحليل ما بقي سالما ووصل إلينا. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه مما يثير اهتماما خاصا. واقع أن الشهادات غير المسيحية عن يسوع هي على أي حال قليلة إلى درجة غريبة. وهذه الشهادات غير موجودة في الوثائق التي

يفترض أن توجد فيها لأمر ما لا تتحدث عن يسوع والأحداث الإنجيلية المرتبطة به أغلبية المصادر التاريخية العائدة إلى زمنه.

فى القرن الأول ب.م.، أى فى الزمن الذى يمكن أن تعزى إليه حياة يسوع، كانت توجد فى أراض الإمبراطورية الرومانية مراجع غنية باللغتين اليونانية واللاتينية، وفى بلاد اليهودية باللغتين العبرية القديمة والأرامية. وهى عبارة عن مؤلفات تاريخية وفلسفية وأدبية. وإلى ذلك الزمن، الذى يهمنا فى هذه الحالة، تعود حياة ونتاج المؤلفين العبريين. يوست من طبرية (النصف الثانى من القرن الأول ب.م.) ويوسف فلافيوس (عام ٣٧ – بعد عام ١٠٠). وقد عاش وعمل فى ذلك الزمن الكاتب اليونانى الواسع الاطلاع بلوتارخ (أعوام ٤٠ – ١٢٠). ومن المؤرخين الرومان ينبغى التنويه قبل كل شىء بالمؤرخين تاتسيت (أعوام ٥٤ – ١١٩)، بلينوس الأصغر (أعوام ٦٠ –١١٣)، سويتون (ولد فى عام ٧٥). وكان هناك فلاسفة، مثل سينيكا (توفى عام ٦٥)، والشعراء لوكانوس (أعوام ٣٩ – ٦٥)، بيرس (أعوام ٣٤ – ٦٢)، يوفينال (أعوام ٤٥ –١٣٠)، الكاتب والعالم المتعدد المواهب بلينوس الأكبر (أعوام ٢٣ –٧٩) وعدد كبير من رجالات الأدب الآخرين. ثمة أسس للنظر إلى مؤلفات الكتاب المذكورين من زاوية ما قيل فيها عن معاصرهم يسوع وما إذا كان قد قيل شىء إجمالا.

من أى من الكتاب المذكورين يحق لنا أن نتوقع أكثر الشهادات عن المسيح إقناعا؟ بالدرجة الأولى، طبعا، من معاصريه، الناس الذين عاشوا وكتبوا فى النصف الأول من القرن الأول ب.م. وإذا كانوا ممن عاشوا فى اليهودية فبوسعهم أن يكونوا شهودا مباشرين على أعمال المسيح والأحداث المرتبطة بموته المؤلم. ومن شأن شهادتهم أن تكون بالطبع، أكثر الشهادات إقناعا. وفى الواقع، هل هناك ما هو أفضل من أن يقال. لقد شاهدت بأم عينى وسأتحدث بما رأيت !

ولكن لا يوجد أى خبر كهذا. لنتوجه إلى الجيل التالى. الناس الذين كان فى وسعهم أن يسمعوا عن المسيح من شهود العيان أنفسهم. ولكنهم يصمتون. يصمتون القرن الأول كله.

لنأخذ مؤلفاً من ذلك الزمن، وهو يوست من طبرية. لقد كتب جملة من المؤلفات التاريخية كان أحدها مكرسا لتاريخ الملوك اليهود حتى اغريبا الثانى. أى حتى منتصف القرن الأول ب.م. تقريبا. وكان لابد، طبعا، أن يرد هناك وصف لحكم هيرودس "الكبير" وحكم هيرودس أنطيباس، أى الزمن الذى تعزو التقاليد المسيحية إليه نشاط يسوع المسيح. وكان من المستحيل إلا يعرف يوست شيئا عن المسيح وأعماله ولا سيما أنه من مواليد طبرية التى تقع على بعد بضعة كيلمترات فقط عن كفر ناحوم التى جرت فيها، كما تقول الأناجيل، عدة أحداث هامة فى حياة يسوع. وللأسف، لم يصل إلينا أى سطر من مؤلفات يوست. ولكن، ربما هنا بالذات دفنت إلى الأبد شهادة شهود العيان الحاسمة؟

كلا، نحن نعرف أنه لا توجد فى مؤلفات يسوت أقل إشارة إلى المسيح ونشاطه. فقد عاش فى القرن التاسع البطريرك البيزنطى فوتيوس الذى كانت عنده مكتبة عظيمة بالنسبة إلى كذلك الزمن. وهو لم يخلف لنا فهرسها، بل خلف أيضا عددا كبيرا لنبذ من ٢٧٩ مؤلفا من المؤلفات التى قرأها، وكان بعض هذه النبذ مرفقا بملاحظاته. وكانت مكتبة فوتيوس تحتوى على نسخة من "تاريخ الملوك اليهود" ليوست من طبرية. وفى هذا المؤلف أحاط الكاتب يسوع بصمت مطبق مما أثار ملاحظة انتقادية من البطريرك.

الكلمة للمعارض.

– يمكن رفض اعتراضكم فى صدد يوست. فقد نشر فى عام ١٩٦٤ نقش من جزيرة خيوس على شرف هذا المؤرخ. وأشير فيها، إلى جانب القابة الفخرية الأخرى، أنه كان من مواطنى مدينة أفس (فى أسيا الصغرى). وقد يعنى هذا أن يوست، وأن كان هو أو أبواه من مواليد طبرية، إلا أنه لم يمض حياته فى فلسطين، بل فى أسيا الصغرى. وفى هذه الحالة يبطل قولكم عن "الشاهد" الذى لم يؤكد تاريخية المسيح. إذ لم يكن فى وسعه أن يغدو شاهدا.

المؤلف. للأسف، لابد من رفض اعتراضكم. إن اللقب الفخرى مواطن أفسس لا يشهد أبدا على أن حامله أمضى بالضرورة كل حياه فى هذة المدينة. يشير العهد الجديد إلى أن الرسول بولس كان من مواطني روما، ولكن هذا لا يعطى مسوغات لنفى فترتى حياته فى

أسيا الصغرى وفلسطين. ويمكن ليوست أن يحظى بتبجيل مواطنى أفسس لمأثره الأدبية أيضا، فمن المعروف أنه كانت لهذه المدينة تقاليدها الأدبية – الفلسفية.

يمكن أن نعول على تلقى شهادات ما فى صدد المسألة التى تهمنا من الفيلسوف واللاهوتى والشخصية السياسية العبرية القديمة فيلون. مع العلم أنها لن تكون شهادات شاهد عيان أو حتى شاهد عادى، لأن فيلون عاش كل حياته فى مدينة الإسكندرية المصرية لا فى فلسطين. ولكن العبريين المقيمين فى الشتات كانت تصلهم، بالطبع، أقوال عن كل الأحداث الجارية فى وطنهم مهما قل شأنها. وفيلون لم يكن منعزلا مثلاً، فقد ترأس الوفد الذى ذهب إلى الإمبرطور كاليغولا فى روما، والذى كان يحمل التماسا فى صدد شؤون عبريى الإسكندرية. واهتم أيضا بحياة العبريين الفلسطينيين، وكان مطلعا عليها بشكل جيد. ونوه غير مرة فى مؤلفاته باسم بيلاطس البنطى. الذى اضطلع، كما تقول الأناجيل، بدور قاتل فى مصير يسوع. يتحدث فيلون بالتفصيل عن طائفة الأسانيين الفلسطينية والطائفة المعتنيين اليهودية التى كانت منتشرة فى مصر حينذاك، وكانت كلتاهما قريبة من المسيحية الأولى سواء عن حيث العقيدة، أو من حيث العبادة. ويعطى أيضا معلومات عن بعض الطوائف العبرية الأخرى – مثل الكائنيين. ولكن لا توجد فى مؤلفات فيلون أقل إشارة إلى المسيحيين أو المسيح.

وهذا جوهرى من باب أولى، لأن فيلون نفسه كان من حيث اهتماماته الروحية قريبا جدا إلى التعاليم والحركات الدينية – الفلسفية فى زمنه، أما تعاليمه الفلسفية – اللاهوتية الخاصة فأعطت مادة غنية لتكوين مسلمات المسيحية. وحتى أن انجلس يسمى فيلون بأبى المسيحية. وهكذا يتبين أن الأب لا يعرف شيئا عن وليده، وعن تلك الشخصية الهامة للدين الجديد، يسوع المسيح.

ويمكن قول الشيء نفسه، أو نفسه تقريبا عن الفيلسوف الرومانى سينيكا. إن قرابته الفكرية من المسيحية الأولى لا يتطرق إليها الشك، وهو كما يقول أنجلس، "عم المسيحية" (٣٨). ويصر التقليد المسيحى، المسجل فى أعمال الرسل، على أنه كان يوجد الكثير من المسيحيين فى مدينة روما فى بداية النصف الأول من القرن الأول ب.م.، وأن الرسولين

بطرس وبوس استشهدا هناك بالذات، وأن نيرون قام هناك بملاحقة جماعية للمسيحيين. ما كان لهذه الأحداث أن تفلت من اهتمام سينيكا الذى ساهم أنشط مساهمة فى الحياة الاجتماعية والأدبية فى زمنه، وكان لابد أن يسمع عن المسيح من المسيحيين أيضا. ولكن بشرط أكيد واحد، وهو أن يكون كل شيء قد جرى بما يتفق والتقليد المسيحى. ولكن سينيكا لا يقول أية كلمة عن المسيح ولا عن المسيحيين.

بيد أنه توجد سلسلة كاملة من الوثائق التى يتحدث فيها الفيلسوف عن المسيح بإسهاب. أنها مراسلاته مع الرسول بولس. ولكن حتى فى الأدبيات اللاهوتية لا يشك أحد فى أنها ليست إلا وثائق مزورة وضعت فى القرون الوسطى.

وتوجد أيضا وثائق أخرى مرتبطة بهذا الموضوع لا يشك أحد فى زيفها. يمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى "تقرير بيلاطس البنطى إلى الإمبرطور كلوديوس" ومراسلات أبغار ملك أيديس مع المسيح والإمبرطور تيباريوس، وهى ما يسمى بالإنجيل التيبيتى وغيرها.

تستحق تحليلا خاصا فى هذا الصدد المقاطع التى تخص مسألة المسيح فى مؤلفات المؤرخين الرومانيين سويتون وتاسيت والكاتب اليهودى يوسف فلافيوس.

عند أول المؤرخين المشار إليهما يرد ذكر المسيح فى مؤلفه "وصف حياة الملوك الاثنى عشر"، وعند الثانى فى كتاب يحمل اسم "أناليس" أى الأسفار. وقد ألف كلا الكتابين فى العقد الثانى من القرن الثانى. وما ورد فيها من ذكر للمسيح كان سببا فى ظهور عدد ضخم من الأدبيات التحليلية والانتقادية.

يكتب سويتون أن الإمبرطور كلوديوس "طرد من روما اليهود الذين أثاروا، بتحريض من المسيح (هكذا بالذات – impulsore chresto – أ.ك.) فتنة طويلة فى روما" (٣٩). لكى ندرك فحوى المغزى الحقيقى بهذا الخبر ينبغى، مراعاة جملة من الظروف التى حولته إلى شيء ضبابى ومتناقض جدا.

تربع كلوديوس على العرش الإمبرطورى من عام ٤١ إلى عام ٥٤. وهذا يعنى أنه أصبح امبرطورا بعد ٨ سنوات من التاريخ المفترض لموت يسوع. ويكفى هذا لاعتبار أن

الحديث لا يجرى عن هذا الأخير. وبالإضافة إلى هذا، فإن افتراض أن يسوع عاش فى روما مدة من الزمن لابد وأن يشكك فى الروايات الإنجيلية التى تقول أنه أمضى كل حياته فى فلسطين. هذا مع العلم أن كلمات "بتحريض من المسيح" يمكن أن تفسر أيضا كإشارة إلى تأثير أفكاره فى تطور الأحداث. وعندئذ ينجم عن هذا أنه بعد عقد من وفاة المسيح فى أورشليم كانت توجد فى روما طائفة من اتباعه اثارت الاضطرابات وعوقبت على هذا بالطرد. أما أنه يرد فى غضون ذلك ذكر اليهود، لا المسيحيين، فإن هذا لا ينتقص من صحة هذه الرواية، لأنه كان يمكن للرومان حينذاك إلا يميزوا المسيحيين عن جمهور اليهود الأساسى.

هل ثمة ما يستحق لأن نسبغ مغزى كبيرا على كون سويتون لم يتحدث عن Christus ، بل عن chrestus؟ من جهة، يبدو وكأن هذا لا أهمية له، لأنه لم يكن من النادر فى ذلك الوقت أن يحل كل من " e " و "L" مكان الآخر فى الأسماء اليونانية. ولكن من المعروف، من الجهة الأخرى، أن اسم chrestus كان منتشرا على نطاق واسع فى تلك الأزمنة، ولاسيما بين العبيد المعتوقين، وهكذا فقد يكون المقصود من نص سويتون مسيح آخر أثار الاضطراب بين مواطنيه فى مدينة روما.

وأثارت شكوكا أكثر الشهادة عن المسيح الواردة فى "أناليس" تاتسيت. يتحدث هذا المؤرخ عن حريق كبير فى عام ٦٤ ب.م. كاد أن يأتى على روما بأسرها. وانتشرت بين السكان شائعة مفادها أن جريرة الحريق تقع على الإمبراطور نيرون الذى أشعل عاصمته ليتمتع باللوحة العظيمة للكارثة المروعة. وقرر الإمبراطور اللقاء جريرة الحريق على المسيحيين. "للقضاء على هذه الشائعة لفق نيرون التهمة وطبق أكثر العقوبات تفننا إزاء الناس الذين يكرهم بسبب حقارتهم، والذين يسميهم العامة بالمسيحيين. وكان الحاكم بيلاطس البنطى قد أعدم المسيح نفسه فى عهد تيباريوس، ولكن الخرافة التى قمعت مؤقتا اندفعت إلى السطح من جديد وانتشرت لا فى اليهودية وحدها التى نبع منها هذا الشر، بل وفى روما التى يردون إليها من كل الجهات والتى ترتكب فيها كل القذارات والحقارات. ثم يجرى الحديث عن العدد الغفير من الذين حوكموا واتهموا " ولم يكن ذلك السبب هو

الجريمة المتعلقة بالحريق، بقدر ما كان كراهية الجنس البشرى" واستخدمت وسائل عقاب مختلفة، ولكنها تتسم بالوحشية نفسها، بما فى ذلك جعل الناس مشاعل حية أشعلت لإنارة حديقة نيرون ليلا. ويعترف تاتسيت بأن المسيحيين يستحقون أشد العقاب، ولكنه يعرب عن الأسف على إبادتهم "إشباعا لقسوة شخص واحد، لا من أجل المصلحة العامة" (٤٠).

إلى الآن لم يتوقف النقاش فى الأدبيات التاريخية عما إذا كان ينبغى اعتبار هذه النبذة المأخوذة عن تاتسيت أصلية أو مضافة فيما بعد. ويجرى إيراد كل ما يمكن من الحجج فى مصلحة كل من هذين الحلين. لن نتحدث عنها هنا، لأنها لا تنطوى على مغزى جوهرى بالنسبة إلى موضوعنا مسألة ما إذا كان هذا النص قد كتبه تاتسيت أو إضافة أحد إلى كتابه. وبالمناسبة ليس من المستبعد أبدا أن يكون تاتسيت نفسه قد كتب هذا النص، مع أنه أعرب فى الأدبيات عن الكثير من الشكوك الوجيهة فى هذا الصدد.

يضطلع بدور حاسم هنا تصور يمس سويتون بالدرجة نفسها. فقد كتب كلا المؤرخين مؤلفاتهما بعد مضى أكثر من ثمانية عقود على اللحظة المفترضة لموت يسوع. وليس من الممكن أن يكون معاصرو يسوع الذين شهدوا نشاطه قد بقوا فى عداد الأحياء حتى ذلك الوقت. والمؤرخان يعودان إلى الجيل الثالث، إذا اعتبرنا معاصرى يسوع الجيل الأول. وكان من المستحيل على سويتون وتاتسيت أن يستمدا معلوماتهما من الاحتكاك الشخص بمعاصرى الأحداث التى وصفاها.

كان يوجد فى مستهل القرن الثانى ب.م. الكثير من المسيحيين الذين ينقلون الحكايات والأساطير عن موت يسوع. ولم يكن فى وسع سويتون وتاتسيت تلقى المعلومات إلا من التقاليد الشفوية، ولم يكن عندهما مصدر آخر. وكانا عملياً فى وضع ليس أفضل من وضعنا بكثير.

ولكن ربما كان المؤلفان قد استخدما وثائق الأرشيف الرومانى ؟ لقد أعرب بعض الباحثين عن افتراض كهذا بالنسبة إلى تاتسيت، محاولين تعليل صحة المعطيات التى أوردها مهما كلف الأمر. وأشاروا إلى أن المؤرخ كان يتمتع بحماية الموظف الرومانى المرموق كلوفيس رووف الذى شغل فى عهد الإمبراطور كاليغولا منصب القنصل وكان

يستطيع الوصول إلى محاضر مجلس الشيوخ بلا عائق. ولكن أغلب المؤرخين، ومن بينهم الذين يعترفون بتاريخية المسيح، ينفون بحزم أمكان أن تكون وثائق الأرشيف المصادر الأولى لأخبار تاتسيت.

من المستبعد أن يرسل إلى مجلس الشيوخ الرومانى من ولاية اليهودية البعيدة والقليلة الأهمية تقرير عن إعدام صانع من الجليل. يورد دريفس هذا القول لفيس. " لقد غرق هذا الإعدام تماما فى بحر الإعدامات التى كانت تقوم بها السلطات المحلية الرومانية ولو أشير إليه فى وثيقة رسمية لكان هذا امراً فى غاية الغرابة" (٤١).

وفى هذا الصدد أشار برونو باوير بسخرية منذ أكثر من مئة سنة إلى شهادة ترتوليانوس الذى كان يرد على كل الشاكين فى التاريخ الإنجيلى بالاستشهاد بالأرشيف الرسمى الرومانى، وكان أبو الكنيسة يؤكد أنه يمكن العثور هناك حتى على تقرير عن كسوف الشمس الذى خيم على الأرض كلها لحظة موت يسوع...

يؤكد الاختصاصيون فى المدونات التاريخية القديمة أن الاستقصاءات الأرشيفية لم تكن مستخدمة أصلا عند المؤرخين القدماء. ولا يوجد ما يدعم الرأى القائل بأن تاتسيت استخدم يوما هذه الوثيقة من الأرشيف أو تلك. ويستحيل تصور أن يفعل تاتسيت لخبر عرضى حول ملاحقة نيرون للمسيحيين ما لم يفعله أبدا حتى لمناسبات يعتبرها أهم بما لا يقاس.

تنطوى على تعقيد خاص مسألة النبذة المرتبطة بالمسيح والوراردة فى كتاب يوسف فلافيوس "العاديات اليهودية". وهذا هو نصها. "فى ذلك الزمن عاش يسوع، الإنسان الحكيم إذا أمكن اعتباره إنسانا بالأصل. لأنه اجترح المعجزات وكان معلما للناس الذين تقبلوا بسرور التعاليم التى بشر بها. وجذب إلى جانبه الكثير من اليهود واليونان. إنه المسيح. وحينما طلبه بيلاطس بوشاية من الناس المتزعمين عندنا، لم يعرض عنه الذين كانوا أول من أحبه، لأنه فى اليوم الثالث ظهر إلينا حياً من جديد، الأمر الذى تنبأ به وبألف من أعماله الخارقة الأخرى الأنبياء الذين أرسلهم الله". وتوجد إلى يومنا هذا طائفة المسيحيين الذين تلقوا اسمهم منه" (٤٢). يبدو أننا هنا أمام شهادة تاريخية واضحة ولا تقبل

التأويل. هذا مع العلم أنها لم تكتب فى أعقاب الأحداث مباشرة، بل بعد ستين سنة، وبالتالى لم يكتبها شاهد عيان. وعلى أى حال فإن من شأن هذه الشهادة أن تنطوى على قيمة تاريخية كبيرة. لو .. لو لم تظهر شكوك جوهرية لدى تحليل هذه النبذة.

لقد أثار اهتمام الباحثين أمد بعيد أن يوسف فلافيوس، الذى بقى، كما هو معروف، نصيراً مطلقا لليهودية حتى آخر أيامه، يبدو فى هذه النبذة وكأنه مسيحى ولو أن الفريسى الورع يوسف كتب شيئا ما عن يسوع لاعتبره مجحفا ومدعيا يستحق المعاملة القاسية التى تعرض لها ولكن أمامنا هنا شئ على طرف نقيض ومما أثار الشكوك أيضا المكان الذى تشغله هذه النبذ فى نسق الرواية عند يوسف أن المؤلف يروى بالتفصيل أحداثا غير هامة ولا تنطوى على أية آثار جرت فى أورشليم وفجأة يتحدث وكأنما على الهامش بدون أى ارتباط بمجرى الأحداث السابق واللاحق وبعدة اسطر عن تاريخ يسوع الذى أثار كما يفترض حركة اجتماعية واسعة النطاق وكل هذا لا يشبه أسلوب عرض يوسف فلافيوس الذى يتسم بتتابع ومنطقية صارمين.

أن النسخة التى يجرى الحديث عنها هنا وارة فى كل ما وصل إلينا من مخطوطات العاديات اليهودية وفى أغلب مخطوطات المؤلف الثانى ليوسف ـ الحرب ـ اليهودية لا يرد أى ذكر ليسوع وتوجد فى خمس منها النبذة التى نتحدث عنها ولكن فى مكانين مختلفين فى نسختى القرن الحادى عشر فى آخر الكتاب وفى نسخة القرن الرابع عشر بداية القرن الخامس عشر فى وسطه وفى الأخير لا يقتصر الأمر على النص الموجود فى كل المخطوطات الأخرى بل أضيف أيضا خمسة عشر سطرا آخر تتضمن التنبؤ بمجيئ المسيح مجددا حينما يحاسب كل الأتقياء وغير الأتقياء بحكمة الله لأن الأب أعطاه (المسيح)الدينونة ولكن كون النبذة موجودة فى أماكن مختلفة من المخطوطة هو برهان كاف على أن الناسخين أضافوا واختاروا بأنفسهم المكان لوضعها.

اقترح بعض الباحثين حلا آخر لمسألة صحة هذه النبذة وهو بتلخيص فى أن العادات اليهودية كان يتضمن فى ذلك الموضوع مقتطفاً كتبة يوسف بالفعل ولكنه لم يكن يحتوى فى البداية على تبجيل يسوع الموجود فى النسخ التى وصلت إلينا بل إضافة الناسخون

المسيحيون فيما بعد وهكذا ففى عام (١٩١١) عثر فى مخطوطة مسيحية عربية من القرن الحادى عشر على هذه النبذة من العادات اليهودية ونصها يختلف كثيرا عن ذلك المعروف سابقا ولأمر ما لم يعرها العلماء اهتماما فى ذلك الحين وفى السبعينات فقط صار ينظر إليها كشهادة هامة على أن يوسف فلافيوس عرف المسيح وكتب عنه هنا يبدو نص فلافيوس على الشكل التالى:

فى ذلك الزمن عاش إنسان حكيم اسمه يسوع كان نمط حياته يخلو من كل شائبة وكان معروفا بفضله وأصبح الكثير من العبريين والناس من الشعوب الأخرى تلاميذه وحينما حكم عليه بيلاطس بالصلب والموت لم يتخل تلاميذه عن تعاليمه وهم يقولون أنه ظهر إليهم حياً بعد صلبه بثلاثة أيام وهكذا فقد يكون هو المسيح الذى تحدث الأنبياء عن أعماله الخارقة لا ينبع من هذا النص أن يوسف كان يعتبر أن يسوع هو المسيح بصورة محددة ومن غير المعقول أن يسلم بإمكانية كهذه ولكن لا يجوز أن تنفى أن أمامنا هنا هيكلا للشكل الأولى للنص كتبه يوسف نفسه وخطه الناسخون المسيحيون بالروح التى تناسبهم وحتى إذا كان الأمر كذلك فما هى الإستنتاجات التى يمكن أن نستخلصها من هنا لحل مسألة تاريخية المسيح.

هذا الافتراض يعزز بدرجة من الدرجات مواقع أنصار المدرسة التاريخية ولكن بدرجة صغيرة جدا لقد كتب يوسف العاديات اليهودية فى حوالى عام (٩٤) وكان قد تكون فى ذلك الحين تقليد مسيحى معين يمكن أن يقتبس خبرة منه.

ولا سبيل أيضا للبحث عن تأكيدات لتاريخية المسيح فى الأحداث التى وصفتها الأناجيل والتى تقول أنها مرتبطة بحياته فمن المستحيل أن يمر الكثير منها دون أن يلحظه لا سكان فلسطين وحدها و إنما سكان البلدان الأخرى أيضا مثلا أن كسوف الشمس فى لحظة صلب المسيح الذى خيم على الأرض كلها ثلاث ساعات كان لابد وأن يدهش مخليه البشرية بأسرها وأن ينعكس فى ذكريات معاصريه وكان لابد لعالم الطبيعة بلينوس الأكبر الذى خلف وصفا لكل ظواهر الطبيعة البارزة التى جرت أما م عينية بل ولابد لأدباء ذلك الزمن الآخرين من أن يكتبوا عن ذلك الحدث الخارق والأمر نفسه ينطبق على الزلزال

الكبير الذى رمز إلى موت الإنسان الآلة وحتى بعض الأحداث الأقل شأنا ما كان لها أن تبقى خارج اهتمام معاصريها.

بيد أن هذا لا يكفى للبرهان على أنه لم تجر عموما أية أحداث مرتبطة بيسوع أن الأحاديث فى الأناجيل عن المعجزات ، مختلفة طبعا مهما كانت الظروف من المستحيل أن يقع زلزال عالمى أو كسوف يخيم على الأرض كلها لحظة موت يسوع وفى وسعنا أن نفقد التربة العلمية – التاريخية لو طالبنا ذلك الشهادات على هذه الأحداث فى أدبيات ذلك الزمن والأمر نفسه ينطبق على الأحداث التى يمكن أن تقع لكنها بعيدة الاحتمال مثل قيام هيرودس بقتل الأطفال.

يتحدث التاريخ عن الكثير جدا من فظائع الملك هيرودس الكبير فقد كان بالفعل وحشا ومتعطشا إلى الدماء ولكن إبادة كل الأطفال الذكور فى مدينة بأسرها تبدو غير معقولة حتى بالنسبة إلى هيرودس مع العلم ان المؤرخين لم يكتبوا شيئاً عن هذا وكأنهم كانوا على اتفاق مسبق ولكن ما يشكل هيكل الروايات الإنجيلية سواء أكان طبيعيا أم ممكنا أم حتى محتملا .

والحركة الشعبية التى أثارها هذا النشاط ورد الأوساط الحاكمة للمجتمع اليهودى والإدارة الرومانية عليه واعتقال المسيح ومحاكمته و موته والحركة التى نشأت عقب موته مباشرة وأدت إلى ظهور الدين الجديد أمور كان ينبغى أن تنعكس جميعها فى أدبيا ت القرن الأول وإذا لم تنعكس فالأرجح أن شيئا من هذا لم يحدث .

على الشاطئ الشمالى الغربى الصخرى للبحر الميت على بعد ٢٠ كيلو مترا عن أورشليم كانت توجد فى القرون الأخيرة ق م والقرن الأول طائفة من اليهود المنغلقين معروفة باسم الطائفة القومرانية وكانت أحد فروع الإنسانية وفى عام ٦٨ ب م غادرت مستوطنة قمران سكانها تحت ضغط القوات الرومانية المهاجمة مخبئين فى الكهوف المجاورة الكثير من المخطوطات التى كانت على ما يبدو تشكل قيمة كبيرة بالنسبة إليهم وكانت بينها مؤلفات العهد القديم وتعليقات عليها (ميدراش) ونصوص ابتهالات ووثائق إدارية تنظيمية وغيرها كل هذا بقى فى الأرض حتى زمننا حينما اكتشف راع عربى فى

عام ١٩٤٧ أحد الكهوف والوثائق المخبأة فيه وبعد هذا بدأت استقصاءات مكثفة أعطت أغنى النتائج عشرات الألوف من قصاصات الرق البردى وجملة من المخطوطات الكاملة المكتوبة بالعبرية القديمة بالارامية وظهرت أمام العلماء مهمات فى غاية التعقيد للصق النصوص التى عثر عليها وحل رموزها وترجمتها ونشرها وإلى الآن لم ينشر إلا جزء طفيف نسبيا من المواد المكتشفة ثمة معلومات لا تنبع من تعقد العمل نفسه فحسب بل ومن كون أغلبية العلماء المساهمين فيه ينتمون إلى اكليروس هذا الدين أو ذاك أو أنهم على الأقل أناس تهمهم مصالح الدين وأن الأحكام الدينية المسبقة للمساهمين في دراسة الوثائق تكبح نشرها بقوة شديدة وعلى أى حال لا يزال الكثير من هذه الوثائق بعيدا عن الأوساط العلمية حتى الوقت الحاضر وهكذا فإننا لا نستطيع الآن أن نحكم على مضمون النصوص القومرانية إلا انطلاقا من الجزء الذى نشر يحتوى بعض الوثائق على إشارات موجزة وغامضة بمغزاها إلى معلم الصدق فى التعليق على سفر نبوة حبقوق من العهد القديم جرى الحديث عنه سبع مرا ت وفى ما يسمى بالوثيقة الدمشقية سبع مرات أيضا وإلى جانب ذلك جرى ذكره مرة واحدة فى كل من التعليق على المزامير ونبذة التعليق على نبوة ميخا وفى التعليق على حبقوق على نص العهد القديم عن الإنسان الذى يركض قارئا الرؤيا نعطى هذه الملاحظة المقصود معلم الصدق الذى أعلمه الله بكل أسرار كلمات عبيده الأنبياء (٤٥) والإشارات الأخرى إلى المعلم لا تقل عن هذه إيجازا وضبابية.

إذا أجملنا كل الإشارات إلى معلم الصدق الواردة فى الوثائق االقومرانية المنشورة نحصل على صورة زعيم وربما مؤسس الطائفة القومرانية نبي حظى بثقة خاصة من الله ونال من شفتى الله نفسه مفتاح الأسرار الخفية لمعنى كل النبوءات فى العهد القديم ولا سيما مواعيد يوم الحساب وليس واضحا ما إذا كان القومرانيون قد نظروا إليه كمسيح أو كبشير بالمسيح وعلى أى حال كان يعتبر وسيطاً بين الله والناس وقد تعرض المعلم لاضطهاد شديد من جانب كاهن كافر وإنسان كذوب مع العلم أن جماعة تسمى نفسها بنى إفياليوف تتهم بأنها لم تهب لمساعدته فى ساعة العذاب (٤٦) وفى الوثيقة الدمشقية يجرى الحديث مرتين عن موت المعلم ولكن ليس معروفا ما إذا كان موته قسريا أو طبيعيا وحيث أن

الوثيقتين الأخيرتين تتحدثان عن الاضطهاد الذى تعرض له، فيمكن الافتراض أن موته كان قسريا. وتثير الجدل بين العلماء مسألة ما إذا كان القومرانيون قد توقعوا عودة المعلم ثانية. ولا يستبعد أنهم لم يعتبروه ميتا، بل فى حالة إبعاد فقط (الإشارات إلى موته غير محددة تماما)، وكانوا ينتظرون عودته.

كان للبدء بنشر النصوص التى تأتى على ذكر معلم الصدق وقع مثير. وظهرت تصريحات تقول بأنه اكتشفت، أخيرا، وثائق جديدة غير إنجيلية تتحدث بمعلومات تاريخية عن المسيح. ولكن ما لبث أن تبين أن اعتبار معلم الصدق ويسوع المسيح شخصا واحدا أمر مشكوك فيه للغاية.

إن أيديولوجيا وعقيدة الطائفة القومرانية يتطابقان كثيرا مع المسيحية الأولى. فثمة فى الحالتين طائفة ولدت فى اليهودية تدخل تعديلات جذرية فى الدين اليهودى. وهناك أمور مشتركة كثيرة فى طابع هذه التعديلات. ويضطلع بالدور الرئيس هنا وهناك الوعظ بقرب قدوم المسيح والقيامة المرتبطة بهذا الحدث والتى يحرز بنتيجتها الإيمان والتقوى والنور النصر النهائى على الجور والشر والظلام. ويوجد فى الحالتين زاهد أرسله الله، ولكنه تعرض للاضطهاد من جانب اتباع الظلام والكفر. ووعظ القومرانيون والمسيحيون الأوائل على حد سواء بالفقر وبمشاعية الممتلكات، ونظر هؤلاء وأولئك إلى الثروة والأثريا، كظاهرتين لا ترضى الله. وثمة ما هو مشترك فى عبادة العقيدتين. رفض تقديم الضحايا وطقس الاغتسال (عند المسيحيين "التعميد") والموائد المشتركة. كان يمكن، انطلاقا من كل أوجه الشبه هذه، اعتبار أن القومرانيين هم المسيحيون الأوائل. وفى ظل افتراض كهذا يصبح وضع علامة مساواة بين معلم الصدق ويسوع المسيح أمرا يدخل بالساق ضمن المخطط العام. ولكن الفوارق الجوهرية البارزة بوضوح بين الأسانية الكومرانية والمسيحية تخل بهذا الاتساق.

كانت المسيحية أول دين يطمح إلى الانتشار الكوسموبوليتى الشامل. أما الطائفة القومرانية فكانت منظمة منغلقة تتقيد تقيدا صارما بسر تعاليمها وتعول على الانتشار فى الوسط العبرى وحده. لقد وعظت المسيحية بأيديولوجيا عدم مقاومة الشر، أما القومرانيون

فكانوا يتحرقون شوقا إلى سحق "أبناء الظلام" وينتظرون الإيعاز لخوض الحرب ضدهم. كانت المسيحية تقف موقفا فى نهاية الليبرالية من الفروض والمحرمات الشعائرية فى العهد القديم، أما القومرانيون فكانوا يتمسكون بها تمسكا أشد حتى من اليهود المتعنتين، فكانوا يطلبون، مثلا، مراعاة السبت بأشد ما يكون من الصرامة، فى حين أن الأناجيل تعتبر هذا غير الزامي. لم تفرض المسيحية العفة الجنسية، فى حين كان هذا الطلب، على ما يبدو، الزاميا عند الكومرانيين. وأخيرا، كان للطائفة القومرانية تنظيم متدرج، أما فى المشاعيات المسيحية الأولى فكانت المساواة هى المسيطرة.

يتدخل المعارض.

إن المرحلة التي تتحدثون عنها في المخطوطات هى المرحلة التى تكونت فيها كعقيدة. والكثير مما قلتموه لا ينطبق على مرحلة تطورها المبكرة التى انعكست فى الرؤيا، مثلا. فالرؤيا مفعمة بكراهية للأعداء لا تقل عن تلك التى فى الوثائق الكومرانية. وهذه وتلك تتوجهان إلى اليهود على وجه الحصر. لعل المسيحية كانت فى المرحلة الأولى تتمتع بروح اقرب للكراهية و فيما بعد في اواخر القرن الاول ب.م ، بدأت تتخذ الشكل الذي تجد فيه خلافات جوهرية مع القومرانيون .

المؤلف. هذا ممكن تماما. ولكن ينبغى عندئذ عدم حساب تاريخ المسيحية من القرن الأول ق.م.، بل من فترة أبكر، من القرن الثانى ق.م. على الأقل. يوجد هنا، بالطبع، الكثير من الأمور الاصطلاحية، إذ يمكن إذا شئنا، اعتبار هذه الفترة تمهيدا لتاريخ المسيحية، ويمكن اعتبارها بداية تاريخها. ولكن فلننظر ما الذى سيحدث بشخصية يسوع المسيح فى ظل افتراضكم.

فى رأى أغلبية الباحثين أن هذه الوثائق للطائفة الكومرانية تعود إلى ما قبل أواسط القرن الأول ق.م. وبالتالى، فغن كل الإشارات إلى معلم الصدق تعود إلى وقت يتخلف مائة سنة على الأقل عن الأطر الزمنية الواردة فى العهد الجديد والتقليد المسيحى، وإذا كان الأمر كذلك، فلا مجال لاعتبار المعلم ويسوع المسيح شخصا واحدا.

المعارض. لا مجال إذا ربطت شخصية المسيح ربطا محكما بمعالم العهد الجديد، سواء من حيث التسلسل الزمني أو من حيث المؤشرات الأخرى. ولكن إذا لم نفعل هذا، فيمكن التسليم بأنه تكمن فى أساس الأساطير الإنجيلية شخصية واقعية وجدت قبل مائة او حتي مئتي سنة من ظهور تقليد العهد الجديد التركمات التى أوجدتها المخيلة على امتدادالزمن الذى انقض بعد أن غادر النموذج الأصلى لأساطير "العهد الجديد مسرح الحياة. أليس هذا ممكنا؟

المؤلف. ممكن. ولكننا لا نتحدث عن شخصية على وجه العموم بل عن شخصية ملموسة انعكست فى مؤلفات أدبية مليئة بالالقاب، عن يسوع المسيح، من حقنا أن نقول أنها هى الشخصية التاريخية – التى نبحث عنها. ولكن إذا كانت تكمن فى أساس الروايات المشار إليها شخصية عاشت فى زمن أخر وفى وضع تاريخى آخر، بل وكان لها اسم آخر، يصبح من الواضح أن الشخصية المنشودة لم تكتشف. يمكن تصور أن الذكريات عن معلم الصدق كانت فى حينها أحد مصادر أسطورة المسيح، ولكن لا ينجم عن هذا أبدا تطابق بين هاتين الشخصيتين. وبالمناسبة، فإن بعض العلماء أعربوا عن افتراضات حول أسطورية معلم الصدق نفسه.

فى عام ١٩٦٥ ظهر باعث لوضع علامة مساواة بين يسوع المسيح وشخصية أخرى ذكرت عرضا فى النصوص القومرانية، ونعنى بها "الملك ملكى صادق". إذ نشرت وثيقة قومرانية جديدة يمكن الاصطلاح على تسميتها "ميدراش ملكى صادق" وقد عثر عليها فى حالة رديئة جدا ١٢ قصاصة لصقها العلماء بصعوبة كبيرة لتصبح نصا متماسكا بعض الشيء، مع العلم أنه بقى عدد من الفراغات. وتؤرخ الوثيق ببداية القرن الأول ب.م. وهى تتضمن نبوءات باقتراب نهاية العالم وبالدور الذي سيقوم به ملكي صادق الذى صور بأعظم. وأسمى الخصال أنه الحاكم الأعلى، المنتقم من كل الأشرار، المبشر بنجاة الأتقياء المقبلة والشخصية الرئيسية لفعل النجاة نفسه، المسيح، الفادى، قائد "أبناء النور" فى صراعهم الأخير المقبل ضد "أبناء الظلام"

لا يجوز القول أن اسم ملكى صادق لم يكن معروفا بالمرة. فقد ورد اسمه مرتين فى العهد القديم. فى سفر التكوين يظهر ملكى صادق بصفته ملك شاليم (ربما أورشليم لاحقا)، وهو أيضا كاهن "الله العلى" (١٤ /١٨). وفى أحد المزامير (١٠٩ /٤) يقول الرب "لربى". " أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكى صادق وفى العهد الجديد لا يظهر ملكى صادق إلا فى الرسالة إلى العبرانيين التى يشير مؤلفها عدة مرات إلى "رتبة ملكى صادق"، حيث يقصد ملك شاليم إياه ويبدى تقديراً عالياً لهذه الشخصية، ولكنه لا يكشف بأية درجة من الوضوح عن علاقتها بشخصية يسوع المسيح وأية شخصية أخرى. ويبقى ملكى صادق شخصية غامضة، مما يوفر للاهوتيين المسيحيين الإمكان أما لأن يعتبروه ويسوع المسيح شخصاً واحداً، وأما ليبدوا تلميحات وافتراضات تشير إلى صحة هذا الأمر.

فى طبعة بولندية للكتاب المقدس صدرت فى عام ١٩٦٥ أرفق النص عن ملكى صادق بهذه الملاحظة. "عن ملك شاليم الوثنى الغامض هذا وهو أيضا كاهن الإله. الحقيقى، هو شخصية المسيح فى مزمور المسيح ١١٠ / ٤" وفى الرسالة إلى العبرانيين " (٤٧) إذا اعتبر يسوع المسيح وملكى صادق شخصا واحدا، فإن نص الميدراش القومرانى الذى تحدثنا عنه يمكن أن ينظر إليه كاول شهادة على مؤسس المسيحية، مع العلم أن هذه الشهادة من مصدر جديد تماما. ولكن هل توجد أسس لوضع علامة المساواة هذه ؟

إذا نبذنا القوالب التى وضعها اللاهوتيون فى تفسير الكتاب المقدس وامعنا فى المسألة من حيث الجوهر تتكشف لنا لوحة مفاجئة.

فى النص العبرى القديم لسفر التكوين لا يوصف ملكى صادق بأنه "كاهن الله العلى" ، بل بأنه كاهن "الإيل" ينظر مترجمو الكتاب المقدس إلى كلمة "إيل" كصفة تعنى " السامى العلى" هذه الترجمة لابد وأن تثير الحيرة بحد ذاتها، لأنها تناقض كل مفهوم العهد القديم. إذ يعتبر، من وجهة نظر هذا المفهوم، أن إبراهيم وأقرباءه كانوا وحدهم فى تلك الأزمنة يعرفون الدين الالهى الصحيح، وفجأة نرى ملكاً وثنيا " لا يعتنق هذا الدين فحسب، بل يصبح كاهناً للعلى ولا يستطيع اللاهوتيون الخروج من هذا المأزق إلا بواسطة التذرع بغموض ذلك الموقف. أما فى الواقع فالأمور أبسط بكثير وليست غامضة بالمرة.

ليست كلمة إيل صفة، بل جزء من اسم الإله الوثني الإيل، وهذا الاسم معروف جيدا في تاريخ الأديان. أن النصوص التي عثر عليها في الثلاثينات في رأس شمرا وعدد من الأماكن الأخرى تأتي مرارا على ذكر هذا الاسم لأحد الآلهة الكثيرة عند الكنعانيين القدماء. وسفر التكوين يتحدث عن ملكي صادق، كاهن الإيل، لا العلي اليهودي أو أي علي آخر. وبالتالي، لا مجال لأن تكون للمسيح أية علاقة به. هذا مع العلم أن القومرانيين يستطيعون، طبعا، أن ينظروا إلى ملكي صادق باعتباره خادم "العلي" وأن يضعوا علامة مساواة بينه وبين نبيهم ومعلمهم.

أن اسم ملكي صادق نفسه، الذي يعني "ملك الصدق" أو العدل يشبه تسمية معلم الصدق (more hassadeg) لعله كانت هناك خيوط تربط في وعي القومرانيين شخصية ملكي صادق بشخصية معلم الصدق. ولكن هذه الناحية لا يمكن أن تؤثر في حل مسألة تاريخية المسيح أو أسطوريته، لأنه لا توجد، باستثناء المضاربات اللاهوتية، أية حجج في مصلحة التقارب، ناهيكم عن التطابق بين ملكي صادق والمسيح.

ننتقل إلى مفاهيم تقوم على أسس أكثر جدية.

الاحتمال الممكن - " شخص عابر ..."

نبدأ توضيح هذا الاحتمال بملاحظة ممكنة يبديها المعارض الذى يعرب عن عدم موافقته على حجة "صمت القرن".

لعله يقول:

- يستحيل أخذ هذه الحجة على محمل الجد. فهى تنطلق من أن الأحداث التى جرت فى ولاية اليهودية النائية والقليلة الأهمية يجب أن تصبح على الفور تقريبا معروفة فى كل الامبراطورية الرومانية، بما فى ذلك مركزها. أن التفكير على هذا النحو يعنى قياس الأزمنة القديمة بمقياس العصر، حيث يصبح أقل الأحداث شأنا فى أسيا وأفريقيا معروف فى اليوم التالى للعالم كله بواسطة الإذاعة ووسائل الاتصال العصرية الأخرى. ومن المنطقى تماما أن تبقى الأحداث التى جرت فى أورشليم فى ثلاثينات القرن الأول ب.م. غير ملحوظة خارج اليهودية، لابل يمكن لها إلا تنطبع بقوة خاصة فى ذاكرة شهودها والمساهمين فيها. وهذا ما يتحدث عنه أ. خفولسون بصورة مقنعة.

المؤلف. حسنا، من الممتع أن نعرف ما الذى يقوله فى هذا الصدد ذلك المدافع المتبحر والمتحمس عن تاريخية المسيح؟

المعارض. يقول أنه فى عهد هيرودس وأرخلاوس والحكام الرومان أعدم فى أورشيم عشرات الألوف من الشعب اليهودى، وأنه فى ظروف كهذه من الصعب على أى مؤرخ، أن لم يكن من المستحيل تذكر أنه كان يوجد بين الوف الناس واحد اسمه يسوع. وفى رأيه أنه بعد اثنتى عشرة سنة من موت يسوع المسيح بدأ الاستياء الشعبى الذى أدى إلى الحرب

اليهودية. إن الهزيمة في هذه الحرب وتدهور المعنويات التى أعقبها ساعدا على بعث الذكريات عن المعلم الذى أعدم، وبعد هذا كان ينبغى أن تأتى الصياغة الأدبية بهذه الذكريات (٤٨).

المؤلف. أفهم من هذا أنكم لا تصرون على الشكل الإنجيلى لوصف حياة يسوع وتسلمون بإمكان شكل أخر يفيد بأن نشاطه وموته جريا بشكل أقل "ضجيجاً" وبروزاً بما لا يقاس مما وصف في العهد الجديد ؟ حسنا، فلنبحث أيضا فى وجهة النظر هذه التى لم تحظ بانتشار واسع فى المؤلفات العلمية فقط، بل وفى المؤلفات الأدبية. إن قصة أناتول فرانس الشهيرة "حاكم اليهودية" تعطى صورة فنية وتاريخية - سيكولوجية رائعة لهذا المفهوم (٤٩).

حينما بلغ بيلاطس البنطى من العمر عتيا، ذهب، وقد أضنته العلل، إلى شاطئ البحر للعلاج. وهناك قابل أحد معارفه القدماء، الاستقراطى الرومانى إيلى لاميا الذى عاش فى شبابه منفيا فى فلسطين. حينما كان الشيخان يعرضان جسميهما لشمس الجنوب الحارة، استعرضا ذكريات الأيام الخوالى والأحداث التى جرت على مرآى منهما فى فلسطين. وسأل لاميا عن الانتفاضة ضد الحكم الرومانى التى قام بها السامريون فى حينهم عندجبل جريزم.

- ... لم أرك منذ ذلك الحين. هل تكللت حملة القمع بالنجاح ؟

حدثه بيلاطس بتفصيل شديد عن سيرة ونتيجة هذه الانتفاضة. ثم تذكرا الكثير من الأحداث الأخرى التى جرت فى اليهودية حينما كان البنطى حاكما هناك. وكانت الذكريات المشتركة كثيرة بحيث كان يستحيل استنفادها بحديث علي شاطئ البحر. وقررا أن يلتقيا فى اليوم التالى خلف مائدة بيلاطس. وغرق الصديقان من جديد فى ذكريا ذلك الزمن حينما عاشا وهما لا يزالان شابين فى بلاد اليهودية الهمجية. كان صاحب الدعوة أكثر كلاما، أما محدثه فكان يبدى اهتمامه بتفاصيل نشاطه الإدارى والقضائى فى تلك الأيام العاصفة، وكان لابد من تلبية فضوله. وتحدث بيلاطس بين أمور أخرى عن أنه كان يضطر إلى أن يصادق على أحكام بالموت تصدرها المحكمة العبرية. و ذلك مرة أن اليهود تضرعا اليه الزعماء و الامراء يترأسهم الكهنة، وأحاطوا بكرسيى العاج وتمسكوا بذيل ردائى

وبسيور نعلى، وابتهلوا والزبد يعلو أفواههم مطالبين بإعدام مسكين لم أكن أجد أى ذنب له، وكان فى عينى مجرد مجنون شأن الذين يتهمونه. أقول. مئة مرة ! كلا، كان هذا يحدث كل يوم وكل ساعة.... فى البداية كنت أجرب التأثير فيهم وأحاول انتزاع الضحية المسكين من أيديهم. ولكن انسانيتى كانت تجعلهم أكثر تهيجا (٥٠).

هذا يشبه كثيرا الأخبار الإنجيلية عن محاكمة يسوع. ومن يقرأ عند فرانس مونولوج بيلاطس هذا يتوقع أن يتذكر بين لحظة وأخرى أحد أولئك المساكين الذين اضطر إلى أن يتركهم لتنكيل " الفريسيين والكتبة" المتعصبين. ولكن بيلاطس لم يتذكر تلك الحادثة البارزة التى انطوت على أكثر الآثار أهمية .....

ينتقل الحديث إلى مواضيع أخرى. ويتحدث لاميا عن راقصة عبرية ذات جمال وجاذبية خارقتين كان يحبها. وقد انتهت علاقاتهما على نحو مفاجئ.

– اختفت فى أحد الأيام ولم ترجع بعد ذلك ... وبعد عدة أشهر عرفت مصادفة أنها انضمت على حفنة من الرجال والنساء الذين كانوا يتبعون صانع معجزات شاب من الجليل ... (٥١).

الحديث يجرى كما تشير الدلائل جميعها، عن مريم المجدلية. أما "صانع المعجزات الشاب من الجليل" فهو يسوع المسيح، طبعا، وكان هو بالفعل.

–... كان اسمه يسوع النذير، وقد صلب فيما بعد لجريمة ارتكبها. ألا تتذكر، يا بيلاطس، هذا الشخص؟

"قطب بيلاطس" البنطى ما بين حاجبيه وفرك جبينه بيده، مستعرضا الماضى بفكرة. صمت قليلاً، ثم همس:

– يسوع؟ النذير؟ لا أتذكر" (٥٢).

المعارض. ألا تجدون أنه ربما وجد أناتول فرانس هنا حلا صحيحا للمعضلة لم يستطع أن يجده المؤرخون الاختصاصيون إلى الآن ؟

المؤلف. ليس هذا مستبعدا. ولكن انتبهوا إلى أن حلا كهذا يوجه ضربة جدية إلى السمعة التاريخية للأناجيل. إذا كانت الأحداث المرتبطة بنشاط وقتل يسوع المسيح زهيدة بمقاييسها وقليلة الأهمية من حيث أثارها المباشرة، فإن وصفه فى الأناجيل يخلو، بلطيف العبارة من الدقة. لا يعود ثمة وجود لنشاط يسوع الذى أثار حركة جماهيرية فى الجليل واليهودية، ولا للقاء. الحافل المهيب الذى قام به "الشعب كله" لدى دخول المسيح أورشليم، ولا للمحاكمة الليلية الخارقة بمقاييسها وأساليبها، ولا لمساهمة الجموع الغفيرة فى التنكيل بيسوع إلخ. وذلك دون الحديث عن تلك المعجزات التى كانت ترمز، كما تقول الأناجيل، إلى "روح الله" فلو أن واحدة منها جرت بالفعل لحدث كل هذا، طبعا، فى ذاكرة الشعب انطباعا لا يمحى.

المعارض. لن نتحدث عن المعجزات. ولنق على التربة التاريخية البحث. سوف ننطلق من أن الأناجيل لم تعط وصفا للأحداث مبالغا فيه فحسب، بل وصفا مزوقاً بخيال دينى. لكن لابد وأنه تكمن فى أساس هذا الوصف بذرة تاريخية ما. فأنتم تعرفون أنه كان يتمسك بوجهة النظر هذه بالذات المؤرخ السوفيتى ن. نيقولسكى والكاتب الشيوعى الفرنسى الشهير انرى باربيوس والعالم الشيوعى الإنجليزى ارتشيالد روبيرتسون. فلماذا لا تتحدثون عن آرائهم فى صدد هذه المسألة ؟

المؤلف. هذا بالذات ما نويت أن افعله.

يعترف الأكاديمى ن. نيقولسكى بشح وتناقض المعلومات المتوفرة لدينا عن المسيح. ولا وجود لهذه المعلومات من حيث الجوهر إلا فى الأناجيل الثلاثة الأولى، بيد أن تحليلها يعطى نتائج تثبط العزم. "تستخلص استنتاجات قلما ترضي المؤرخ، ولاسيما فى مسألة حياة يسوع ومواعظه" إذا نبذنا كل ما فى الأناجيل من متناقض ومشكوك فيه وغير معقول فما " الذى يبقى من حديث الأناجيل الثلاثة الأولى ؟ كان هناك نجار من الناصرة اسمه يسوع يقال أنه اجترح معجزات وقام بمواعظ لا نعرف ما هى على وجه التحديد، ثم اعتقلته السلطات اليهودية واعدم. وهذا كل شيء" (٥٣) يصر ن. نيقولسكى على هذه "الفضلة"

باعتبارها البـذرة التاريخيـة التـى [illegible] فيما بعد [illegible] المتشعبة للأسـطورة المسيحية.

ينبغى، كما يعتبر العالم نبذ الشهادات الإنجيلية التى يناقض بعضها البعض وكذلك، طبعا، تلك التى لا توحى بالثقة، ولكن الأخبار المتطابقة من حيث المعنى يجب ألا تنبذ. "حينما تطول الأناجيل المعترف بها والمنتحلة كلها بصوت واحد أن يسوع من الناصرة، وأنه نجار أو ابن نجار، وأن أباه يوسف وأمه مريم، فمن الواضح أننا هنا أمام حقيقة معروفة للجميع لم يكن حولها أى جدال" ويقول المؤلف مطورا الفكرة نفسها. "إذا كان يسوع مختلقا، فلماذا يقال أنه نجار من الناصرة، ولماذا يتفق الجميع على تسمية أبيه وأمه والمدن والأرياف التى عمل فيها وسكان هذه المدن والأرياف ؟ لتفسير كل هذا ينبغى الافتراض أنه كانت هناك قصة مختلفة عن يسوع أقصر من قصص الأناجيل الثلاثة الأولى، ولسبب ما كان الجميع يصدقون هذه القصة بمثابة حقيقة واقعة "...." (٥٤).

يعتبر ن. نيقولسكى أن الوضع التاريخى الذى صورته الأناجيل كميدان لنشاط يسوع معقول إجمالا. كان بيلاطس البنطى حينذاك حاكما لليهودية فى الواقع، وكان بالفعل رديئا وقاسيا، وكذلك فإن الأخلاق والعادات والمكان تتطابق تماما مع واقع ذلك الزمن. ولا يعتبر ن. نيقولسكى حجة "صمت القرن" مقنعة.

لقد كان نشاط يسوع، كما يقول، قصيرا للغاية، ولعله لم يستمر أكثر من سنة واحدة. ولم يتمكن فى خلال تلك المدة أن يكتسب شعبية واسعة. ولم يكن يسوع قبل قدومه إلى أورشليم معروفا، كما يبدو، حتى للسلطات الرومانية. وكان معروفا أكثر للعبريين، طبعا، ولكن "كان يسوع بالنسبة إلى المجتمع الحاكم اليهودى واحدا من الأعداء البسطاء، لا الرئيسيين" (٥٥). ولذا " إذا لم ينوه الكتاب الرومان بيسوع، فهذا مرده إلى صمت المصادر اليهودية، إذ أن الكتاب الرومان كانوا ينهلون كل معلوماتهم تقريبا عن اليهودية وعن الأحداث فى هذه البلاد من مصادر يهودية.

ويضيف ن. نيقولسكى إلى كل هذه التصورات حجة تكامل المواعظ الانجيلية اليسوعية. "على الرغم من بعض التناقضات كانت مواعظ يسوع، كما يشعر كل من يقرأ

الأناجيل الثلاثة الأولى بإمعان، مفجعة بروح واحدة، وبلهجة واحدة، وبمضمون واحد... يمكن تأليف بعض الأقوال المأثورة والأمثال، ولكن يستحيل وضعها بلا نظام، كما في الأناجيل الثلاثة الأولى، والتوصل مع ذلك إلى الشعور بموعظة حية من خلالها" (٥٦) كل هذا يجعل المؤلف يستنتج أن يسوع وجد في الواقع التاريخي.

إن الكثير من حجج ن. نيقولسكي يرد عند أ. باربيوس الذي يتخذ كذلك مواقف تاريخية المسيح. ولكنها تبدو عند الكاتب الفرنسي أغنى واضح، فهي ترتبط عنده بمفهوم مبتكر يخص تاريخ ظهور المسيحية نفسه.

إن باربيوس شأن نيقولسكي، وشأن المؤلفين الآخرين حتى أولئك الذين يعترفون بتاريخية المسيح، لا يستطيع إنكار أن المصادر التاريخية لا تعطينا إلا القليل جدا عن يسوع. يقول : "سنقف في مواجهة هذه الحقيقة الجلية..... ونقول إن الوثائق الدينية والدنيوية المتوفرة عندنا حول منشأ المسيحية. قبل تلك اللحظة التي أقر فيها الميثاق الكنسي "عدم جواز تغيير نص الكتاب، أي في مستهل القرن الخامس، هي بدون استثناء تقريبا مدعاة للشك ولا تستحق الثقة من حيث المبدأ. ولا يوجد فيها سطر واحد يبعث على الثقة ولا شيء يمكن تأكيده حتى وأن كان ذلك مجرد اسم أو تاريخ" (٥٧). عن أسفار العهد الجديد لا تتحدث بشيء مفهوم عن يسوع المسيح. ويشير باربيوس بقوة خاصة إلى واقع أنه لم يتحدث عنه حتى مؤلفو الرسائل والأعمال الذين من المفروض، بحكم وضعهم كرسل، أن يعرفوا المسيح أكثر من أي كان.

إذا كانوا يعرفون فليس من المعقول أبداً أن يعتبروا أنفسهم غير ملزمين بالتحدث عما يعرفون. يقول باربيوس. "سنتحدث بلغة التفكير السليم الصارمة. إذا استطعنا أن نكون على صلة بالله، إذا عشنا معه وسمعنا صوته طويلا، على امتداد سنين وأشهر، وحتى لو أن كلمته نقلها إلينا معاصروه الله بعد اختفائه بعد سنوات، واعتبرنا من واجبنا نشر تعاليمه، فهل كان بوسعنا أن ننطلق كلمة واحدة أو نمسك بالقلم من غير أن نستشهد مباشرة بجانب من تلك الحقيقة الملموسة الجبارة ؟ (٥٨). هذا في حين أن الرسل، إذ يتحدثون عن المسيح، يستشهدون بكل المصادر الأخرى باستثناء ذكرياتهم وانطباعاتهم. وتستخدم بوفرة

مصطلحات وعبارات أنبياء العهد القديم، فمثلاً، يجرى الحديث كثيراً عن الحَمَل المقدم ضحية، وعن عبد الله وفتى الله، ولا شىء عمليا عن الكائن البشرى الواقعى أو الإلهى. "يبدو من غير المعقول أن هؤلاء القساوسة (مؤلفى الأعمال والرسائل -أ.ك) ، إذ يعتمدون على الرسل، لا يستشهدون أبداً بالحقيقة البشرية لذلك الإله الذى هم على صلة به، كما يقولون. ينبغى التنويه على نحو خاص بأنه من غير المعقول إلا يستشهدوا بهذه الحقيقة فى كل سطر" (٥٩). إن ما قيل معبر بما فيه الكفاية. من غير المعقول ! أى، بتعبير أخر من غير المعقول والحالة هذه أن يكون مؤلفو الأعمال والرسل قد عرفوا يسوع الحى.

ومع ذلك يجد باربيوس بعض نقاط الانطلاق لبناء مفهوم من عناصره الاعتراف بتاريخية المسيح. والأناجيل هى هذه النقاط.

يعترف باربيوس بأنه يوجد فيها عدد كبير من الإضافات والتعديلات التى أدخلت لاحقا، ولا ينكر العديد من التناقضات الواردة فيها، بيد أنه يجد فى الأناجيل نواة لحقيقة تاريخية. إن "التناقضات الجلية للغاية الموجودة فى الأناجيل، والتى انبعثت من أقلام كتاب غير ماهرين "(٦٠). هى بالذات ما يشهد، فى رأيه، على أن هؤلاء الكتاب غير الماهرين لم يخترعوا كل ما تحدثوا عنه، وإن المحررين لم يستطيعوا فيما بعد تقويم هذه الحقيقة غير المفتعلة. من شأن التحرير الماهر إن يحاول تجنب الأقوال المتضاربة فى الأناجيل.

يرى باربيوس ملامح الواقع التاريخى فى انعدام التتابع المنطقى، حيث يناقض كل انجيلى نفسه مرارا. وهكذا، فإن الإله يسوع يبدى دوما سمات ضعف بشرى بحت، حينما يتهم بمحاولة ادعاء الصفة الإلهية، يستشهد بنصوص من العهد القديم تصف الناس العاديين الذين يستمعون إلى كلمة الله بأنهم آلهة، وهو بهذا يتخلى عمليا عن لقب الألوهية. إنه يعترف بجهله يوم وساعة الدينونة الداهمة، متذرعا أن هذا أمر لا يعرفه إلا الله. ويختفى مرات عديدة ليتجنب التنكيل. وهو بصلاته " لتبتعد عنى هذه الكأس "يبرهن بوضوح على بشريته المعوزة والعاجزة" (٦١). ويتصرف على الصليب بأسوب بشرى تماما. إن صيحته قبل

الموت " إلهي إلهي، لماذا خذلتني؟ " - ترن كصرخة حسرة وهزيمة بشريتين .... ولم يكن ثمة ما يدفع الإنجيليين إلى اختراع شيء كهذا.

يعتبر باربيوس أن المشاهد العديدة التي وصفت في الأناجيل منتزعة من الحياة ومعقولة تاريخيا. " عن تلك الأحداث المثيرة، كطرد الباعة من الهيكل ومحاكمة يسوع، يستحيل اعتبارها مجرد قصة تروى. ومما يتسم بطابع الصدق بصورة رئيسية ملامح الطبع الدقيقة والمتقاربة، وخصائص التضاريس الجميلة، والمشاهد المضحكة التي تبرهن، كما يقال، على نفسها بنفسها وتسبغ على كل شيء مسحة من الصدق. إن التفاصيل التي تخص، مثلاً، الطبع الشكس لخازن الطائفة والتصرف الخالي من اللياقة للأخوة الأنبياء وبلاده ذهن التلاميذ وشخصية مرتا ومريم المجدلية تنطوي على مغزى والعي. فمن سيلفق تفاصيل كهذه، ولأي هدف ؟ في كل هذا شيء يستحيل تلفيقه" (٦٢). وليس ثمة ما يشبه التلفيق، كما يعتبر باربيوس، في أسلوب كلام يسوع، الواعظ والمحدث والمناقش.

ويورد عددا من أقواله، مثل "قوله العبقري - العصري العظيم بذكائه" عن المرأة التي قبض عليها متلبسة بالزنى وأقوال كثيرة أخرى، معربا عن إعجابه بذكائها وأحكامها "هذه البلورات اللفظية الرائعة .... ولدت في "شفتين طليقتين وقلب طليق، ولم تخرج من ريشة قصب كتب بها كنسي أجهده العمل" (٦٣). وفي رأي باربيوس أن مضمون مواعظ يسوع يشير أيضا إلى صدق الشهادات الإنجيلية في هذا الصدد.

يستحيل، في رأي باربيوس، وضع علامة مساواة بين تعاليم المسيح الواردة في الأناجيل وتعاليم الرسول بولس التي أتت فيما بعد وأصبحت أساس المسلمات المسيحية. لو أن شخصية يسوع كانت مختلفة، وفي تلك الفترة التي وجدت فيها رسائل بولس، لوضعت على لسان المعلم أقوال وإرشادات تنبع من روح تعاليم بولس. وحيث أن خاصية شخصية يسوع بقيت في صياغة مواعظة، فهذا معناه أن هذه الشخصية ليست وليدة نتاج ميثولوجي، انعكاس لشخصية تاريخية حقيقية.

أن الأخبار الإنجيلية تستحق، كما يعتبر باربيوس، ثقة معينة. ويكتب أن مما ينافي العقل افتراض أن الخيط الأساسي للرواية الإنجيلية هو مجرد وهم من أوله إلى آخره. وفي رأيه

أن هذا الخداع الكبير مستحيل مبدئيا، ناهيكم عن تلك الخيلة الخصبة. فما هى الاستنتاجات التى يمكن استخلاصها من هذا الطرح بالنسبة إلى تاريخية المسيح أو أسطوريته ؟

يتوصل باربيوس على استنتاج حذر جدا. وهو يصوغه بكلمتين على وجه التحديد. " شخص عابر ... " وأكثر ما يستطيع قوله عن هذا "الشخص" يتلخص فى صيغتين شحيحتين. "عبر شخص فقير وجدت إليه ضرورة فيما بعد"، "عبر نبى عبرى غير معروف كثيراً، وعظ وصلب" (٦٤).

وجدت إليه ضرورة فيما بعد ... فى كلمات باربيوس هذه يتخلص مضمون كل مفهومه لمنشأ المسيحية المرتبط بالاعتراف بتاريخية المسيح.

هذا الواعظ المشرد الذى لا يعرفه إلا القليلون، والذى صلب فى عداد الكثير من المعذبين المجهولين أمثاله، بقى، كما يقول هذا المفهوم، منسيا تماما قرابة العقدين. ثم ظهرت ظروف اجتماعية – سياسية بعثت ذكراه الكأبة والمشوشة. جرت عملية تحول اليهودية الإيلينى. وطعّم هذا الدين بطقوس ومذاهب أتت من الأديان والنظريات اليونانية والشرقية. ولنشر هذا الدين الجديد بين الجماهير الشعبية كان لابد من تعليله، ولم يكن هذا التعليل عن طريق محاكمات لاهونية – مجردة بقدر ما كان عن طريق شعار مجازى – ملموس فى متناول فهم الجماهير يستطيع التأثير فى المجال الانفعالى للوعى الاجتماعى. وهذا الشعار كان عبارة عن بشرى (" إنجيل") : "ظهر المسيح ! .. واتضح أن من الأجدى اعتبار أن هذا الذى ظهر هو المسيح الذى قام، نظراً لشعبيته وسرعة تقبله. ومن هنا امتد الطريق المباشر إلى تزيين شخصية إنسان وجد فعلا. كان ذلك ضرورة تاريخية بحيث أنه لو لم يوجد يسوع لاخترعوا وجوده فى تلك اللحظة. ولكن لم تكن هناك حاجة إلى الاختراع، لأنه وجد شخص من الجليل لم يكن يعرف أبدا بالدور الذى سيرغمونه على الاضطلاع به.

وهكذا كان يسوع التاريخى شخصاً صورياً فعلياً لبداية مثالية بنى عليها شكل المسيحية الأول. وهو نفسه لم يفكر فى أن يعتبر نفسه المسيح، ولم يعتبره معاصروه هذا الشخص. فيما

بعد فقط انبعث فى ذاكرة الناس باعتباره المسيح والفادى والمنقذ. حينما وجد يسوع لم يكن المسيح قد وجد بعد، وحينما وجد المسيح لم يكن يسوع موجودا فى الدنيا منذ أمد بعيد. أما يسوع المسيح فلم يوجد على الإطلاق" (٦٥).

يحتوى هذا المفهوم على غموض يجعله عرضة للشك. إذا كان يسوع لم يعدم لأنه اعتبر نفسه المسيح، وبالتالى ملكا يهوديا، فلماذا أعدم إذا ؟ إذا كان قد أعدم على الأسس نفسها التى أعدم عليها ألوف المشردين المجهولين أمثاله، فلماذا اكتسب اسمه بالذات هذه الأهمية، بحيث أصبح مناسبا ليكون رمزا لحركة دينية جديدة ؟ لهذا الغرض يصلح أى اسم، بما فى ذلك اسم مختلق ! الرمز هو الرمز، ولا يهم إذا كان يكمن خلفه إنسان عاش يوما أو شخص لم يوجد على الإطلاق.

والاعتراض نفسه يبرز فى صدد السؤال حول السبب الذى جعل الإنجيليين لا يزيلون التناقض فى الصياغة، أو لا يلطفونه على الأقل. كان فى وسعهم أن يفعلوا هذا بغض النظر عما إذا كان الحديث فى الأناجيل يجرى عن شخصية مختلفة أو تاريخية. ولابد للتناقضات سواء فى هذه الحالة أو تلك أن تثير الانتباه على قدم المساواة وتشهر بالصياغة نفسها. أى أنه كانت هناك أسباب أخرى منعت تنسيق الأماكن المتناقضة، وليس السبب فى أنه قبلت الحقيقة التاريخية الفعلية فى كل هذه الأماكن. لقد جرى الحديث عن هذه الأسباب فى الفصل السابق. الأناجيل تعزو إلى يسوع ملامح بشرية بحت، ومن الغريب ألا يكون قد وجد كإنسان... كلا أبدا ! إن مهمة مؤلفى الأناجيل تنحصر بالذات فى إعطاء صورة إنسان أصبح تجسيدا للألوهية لا صورة إله. وكان يجب على مخيلة الإنجيليين الإبداعية فى ظل هذه المهمة أن تعمل بالذات فى اتجاه إسباغ أكثر ما يمكن من الصفات البشرية على يسوع. أو بتعبير أدق، لا ينبغى أن يجرى الحديث هنا عن مخيلة الإنجيليين، بقدر ما ينبغى أن يجرى عن مخيلة الجمهور المؤمن الذى أبدع صورة بطلة فى الاتجاه الذى حددت فيه مسيرة التاريخ متطلباته الأيديولوجية. وقد سجل مؤلفو الأناجيل هذه المادة الدينية – الفولكلورية بشكل أدبى ولعلهم عالجوها مدخلين فيها، على الأرجح، الكثير من التعديلات،

وكل هذا العمل كان يمكن له ألا يجرى بشكل عفوى فحسب، بل وبشكل هادف لرسم صورة المسيح الإنسان الذى لا يعوزه أى شىء بشرى.

يبدى باربيوس إعجابه بتكامل ودقة هذه الصورة فى الأناجيل، بمدى فطنة وذكاء يسوع فى بعض مواعظة وملاحظاته. ليس فى الوسع إلا الموافقة على هذا، فحتى تناقض سلوك بطل الأناجيل الرئيسى لا يخل بهذا الانطباع، بل على العكس فهو على الأرجح، يزيد من قوته، إذ أن سلوك الناس فى الحياة الواقعية غالبا ما يكون متناقضا طبقا للظروف وبحكم انعدام الثبات فى طبع الإنسان نفسه. ولكن هل يمكن إنكار قدرة الخيال الفنى على إبداع شخصية فنية بارزة الملامح بدون أن يقف وراء هذه الشخصية نموذج أصلى تاريخى معين ؟ وهل هذه الشخصيات قليلة فى الأدب العالمى ؟ لنتذكر هاملت وبيير بيزوخوف ويغور بوليتشوف....

يمكن تفسير التناقضات الإنجيلية التى تخص شخصية يسوع ومضمون مواعظه، كما يفعل باربيوس، بالتراكمات المتلاحقة لمختلف الترسبات فى نص العهد الجديد. بيد أنه يوجد هنا خطر جدى، وهو الانصياع لإغراء حشر تاريخ هذه الكلمات ضمن مخطط موضوع سلفا. يجب، مثلاً، البرهان على أن يسوع كان ثوريا، عندئذ يمكن إعلان الأماكن التى تدعم هذه الموضوعة فى الأناجيل أصلية، والتى تناقضها تراكمات أتت فيما بعد. ويمكن على العكس. اعتبار " أعطوا ما لقيصر لقيصر" أقدم تراكمات التقاليد، وعندئذ يحظى المفهوم المعاكس بالدعم. ولكن فى كل الحالات لا توجد هنا ضرورة منطقية قسرية لاعتبار أنه تكمن فى أساس التقاليد – المبكرة أو المتأخرة – حقيقة وجود شخص تاريخى فعلى.

فى الخمسينات برز رفيق لباربيوس فى التفكير، وهو أ. روبيرتسون. نورد ما هو جديد فى حجج روبيرتسون، مما لم يكن موجودا فى مؤلفات باربيوس.

لقد انطلق أيضا من مفهومة الخاص من منشأ المسيح، فى بداية عملية ظهور هذا الدين وجدت، فى رأية، "حركة ثورية قادها أول الأمر يوحنا المعمدان، ومن ثم يسوع النذير" (٦٦). وفى المرحلة الأولى من هذه الحركة قتل يوحنا المعمدان الذى أعدمه هيرودس انطيباس. وأدت محاولة النذيرين الاستيلاء على أورشليم إلى صلب يسوع من

قبل بيلاطس (٦٧). ثم تشعبت الحركة إلى تيارين. وقد ارتبطت باسم يسوع النذير حركة انتظار المسيح الشعبية حافظت أمداً طويلا على روحها الثورية. وكانت تعارضها حركة ترأسها بولس كانت تستر باسم المسيح مضمونا اجتماعيا – سياسيا على طرف نقيض منها. ثم اندمجت هاتان الحركتان فى حركة واحدة على أساس مهادنة بولس لواقع الأمور القائم.

وهكذا نجم دين جديد أقيم رسميا فى القرن الرابع ب.م. " ولم يكن عبادة للمسيح العبرى القتيل، بل عبادة للإله الفادى الذى لم يكن يختلف عن الآخرين. إلا بكونه أقام فى فلسطين فى القرن الأول وباسمه العبرى الذى يذكر باسم المسيح المنتظر" (٦٨). بيد أن حامل هذا الاسم كان إنسانا حقيقيا. وقد تغطت صورته على امتداد ثلاثة قرون بوفرة من التراكمات الميثولوجية. فهنا الولادة المعجزة نتيجة الحبل بلا دنس، والشفاء والبعث مرات ومرات، والقيامة بعد الموت المضنى. "هذا الشخص الذى كان له يوما وجود تاريخى بشكل من الأشكال، والذى لا نعرف عنه إلا القليل، ولكننا نستطيع أن نستنتج وجوده على أساس شهادات تاتسيت والتلمود وتحليل وثائق الأناجيل الثلاثة الأولى، قد أصبح مادة لأقاصيص أسطورية واضحة ... (٦٩). لقد سبق وتحدثنا كثيرا عن شهادات تاتسيت والتلمود. ولننظر الآن كيف يحل روبيرتسون تلك الصعوبات لتأكيد تاريخية المسيح والتى تنبع من واقع "صمت القرن"

لماذا لا يقول معاصرو المسيحيين الأوائل سينيكا ويلينوس الأكبر ويوفينال ومارتسيال وديون خريسوستوم وفيلون ويوست من طبرية، شيئا عن المسيح ولا عن المسيحية ؟ الرد على هذا السؤال لا يثير أية صعوبات عند روبيرتسون. " لأنهم ليسوا مؤرخين" (٧٠). كان بعضهم فلاسفة، وآخرون شعراء، وغيرهم خطباء وعلماء طبيعة. لا يبدو تفسير روبيرتسون هذا مقنعا.

إن تمايز النشاط الأيديولوجى فى الأزمنة القديمة لم يكن محددا ولم ينطلق بعيداً شأنه فى زمننا هذا فلم تكن بين الفلسفة وعلم تدوين التاريخ، بين الأدب الاجتماعى والعلم حدود صارمة شأن تلك الموجودة حاليا. ولهذا فالقول أن هذا المؤلف أو ذاك كان فيلسوفا، ولذا لم يستطع أن يكتب عن ظواهر دخلت تاريخ الحركات الاجتماعية والدينية

يعنى القيام بتبسيط واضح وقسرى للغاية. هذا بالإضافة إلى أن شخصية يسوع المسيح والحركة المرتبطة بها لا تنحصران فى إطار التاريخ السياسى، فثمة هنا دين وفلسفة، وثمة أيديولوجيا فى كل الأحوال، إن فيلون عالج فى مؤلفاته الظواهر الأيديولوجية بالذات، وكانت تهمه، مثلاً، الحركات الدينية بشكل خاص. فقد استطاع أن يتحدث عن طائفة الأسانيين بالتفصيل. فلماذا لا يتحدث، ولو بإيجاز أكثر بكثير، عن المسيحيين ومعلمهم. يعتبر روبيرتسون أن توقع معلومات من هؤلاء المؤلفين أمر غير منطقى. وأنا أتصور العكس تماما. من المنطقى جدا انتظار هذه المعلومات من هؤلاء المؤلفين بالذات.

الأمر أصعب بالنسبة إلى روبيرتسون حينما يجرى الحديث عن يوست من طبرية ويوسف فلافيوس، فهما على أى حال مؤرخان حقيقيان ! ولكن هنا أيضا يجد مؤلفنا مخرجا. وقد كتب أول هذين المؤرخين "تاريخ الملوك العبريين" من موسى إلى أغريبا الثانى. وبالتالى، كتب عن الملوك، ولكن فى عهد المسيح. يوجد انقطاع فى تعاقب الملوك على عرش اليهودية، ومن هنا يستنتج أنه لم يكن عند يوست ما يكتبه عن هذه الفترة. هذا، طبعا، حجة ضعيفة، لأن الحكام الذين كانوا يسمون شكليا انراخات أو تيرارخات (رؤساء الشعب، أمراء الربع)، كانوا مشهورين كملوك على أى حال فى الأدب العبرى والفكر الاجتماعى – السياسى. ثم أنه يصعب تصور أن يوست فى عرضه المتتابع للتاريخ منذ القدم إلى عام ٩٢ ب.م. (أغريبا الثانى مات فى تلك السنة بالذات) قد ترك فراغا لذلك الزمن الذى صار فيه الملوك اليهود يسمون على نحو أخر بناء على رغبة الإمبراطور الرومانى.... ومن المناسبة هنا التنوية بأنهم يسمون فى الأناجيل ملوكا.

ويفسر روبيرتسون صمت فلافيوس بأنه كان إجمالا يتجنب بانتظام التطرق إلى ظواهر حساسة فى زمنه، مثل حركات انتظار المسيح فى اليهودية. "ان عليه لكى يحتفظ بعطف السادة الرومان أن يبرهن على الحصانة السياسية للصلابة العبرية. ولهذا كان يتهرب، قدر الإمكان، من أى ذكر لهذه الحركة (٧١). يتحدث يوسف فلافيوس مرتين على الأقل عن حركات ادعاء شخصية المسيح فى فلسطين إحداهما مرتبطة باسم نيفدا، والأخرى بذلك المجهول الذى نوي أن يجد الأوعية المقدسة التى خبأها موسى فى جبل جريزم.

ويتحدث فلافيوس أيضا عن حركة يهودا غافلونيت وعن بعض حركات مدعى شخصية المسيح الأخرى فى اليهودية والقريبة، ولاشك، من المسيحية بروحها، فلماذا خجل أن يتحدث أيضا عن الحركة المرتبطة بيسوع المسيح ؟!.

يرى روبيرتسون من بين مسوغات الاعتراف بتاريخية المسيح كونه "لم يشك أحد من المؤلفين القدماء، ممن نعرف أقوالهم، فى الوجود التاريخى ليسوع" (٧٢). هذا رد غريب بعض الشيء ولو لهذا السبب البسيط، وهو أن المؤلفين الذين يجرى الحديث عنهم لم يكتبوا عن المسيح أصلا. وإذا كانوا لا يعرفون عنه شيئا، فلن يكون فى وسعهم بحال من الأحوال الأعراب عن الشك فى وجوده. أما فى خصوص كتاب القرن الثانى ب.م.، فقد أعرب عن شكوك كهذه فى بعض مؤلفاتهم، وإن كان ذلك بصورة غير مباشرة. نحن لا نعرف، والحق يقال، إلا حالة واحدة كهذه. فى مؤلف يوستينوس الدفاعى "حوار مع اليهودى تريفون" يقول محدثه. "أنتم تتبعون شائعة فارغة، لقد اخترعتم المسيح بأنفسكم.... إذا كان قد ولد ووجد فى مكان ما، فأنه على أى حال غير معروف لأى كائن على الإطلاق" (٧٣). ولكن بغض النظر عن هذا يمكن تصور أن الأسطورة المسيحية كانت قد ترسخت فى القرن الثانى بما يكفى ليجعل من الصعب اتخاذ أى موقف انتقادى من تصور الشخصية الأسطورية الكامنة فى أساسها.

ويمكن أن نورد، كطرفة من نوع خاص، تصور روبيرتسون فى خصوص بابى الغييرابولى. إنه يورد تصريح بابى القائل بأنه يحاول عادة أن يسأل "الشيوخ" عن يسوع وتلاميذه. وفى هذا الصدد يقول روبيرتسون بمعنى خفى. لا حاجة لنا هنا لأن نحلل بالتفصيل هذه النبذة من مؤلف بابى. ولكننا نستطيع أن نطرح سؤالا عما إذا كان قد سأل عن شخصيات خرافية. لم يعلن المؤلف أن يسوع التاريخى ضرورى للعلم ولو لتفسير نبذات كهذه (٧٤). ولكن لا شيء بحاجة إلى شرح هنا. كان بابى يعتبر المسيح وتلاميذه شخصيات تاريخية، فسأل عنهم ولكننا لسنا ملزمين برأى بابى، كما أننا لسنا ملزمين بتفنيده.

وهكذا، فإن حجج أ. روبيرتسون في مصلحة الوجود التاريخى للمسيح تبدو متداعية جدا. لقد أعطى المؤرخ السوفيتى س. كوفاليوف فى مقدمته لطبعة كتاب روبيرتسون

الروسية تفنيدا مقنعا لحججه كلها، وبالمناسبة، فإن المؤلف الإنجليزى يعرب فى حالات كثيرة بشك كبير عن قناعته بتاريخية المسيح بقول :" كلا، لا يوجد شىء غير معقول فى تأكيد أن بيلاطس البنطى، حاكم اليهودية فى عهد تيباريوس من عام ٢٦ إلى عام ٣٦ ب.م.، قد أمر بصلب يسوع النذير ..." (٧٥). طبعا، لا يوجد فى هذا شىء غير معقول، ولكن من المستبعد أن أحدا يصر على "لا معقولية" هذا الحدث. وفى ختام كتاب روبيرتسون نجد هذا التصريح المفاجىء. "حول الزعيم المطلوب لهذه الحركة (المسيحية – أ.ك) أو على الأرجح، حول أساطير اندمجت عن عدة زعماء ألفت القصة الإنجيلية الأولى" (٧٦). باختصار، "شخص عابر"، أو حتى ليس "شخصا عابرا"، بل عدة أشخاص. لا أعتراض على هذا المفهوم. فى المسيحية، كما فى أية حركة اجتماعية أخرى ساهم طبعا، أناس، " أشخاص" كثيرون، وكان بينهم من اضطلع بدور ملحوظ أكثر من الآخرين، ولكن لا ينجم عن هذا الوضع الجلى تماما أن الرئيسى بينهم كان يسوع المسيح الإنجيلى.

ومع كل هذا نحن لا ننكر بشكل قاطع تماما احتمال وجود "شخص عابر" إنه ليس مستحيلا. والأمر كله ينحصر فى درجة معقوليته. نتصور فى ظل الحالة المعاصرة للمصادر، وجود احتمال معقول أكثر من هذا، وهو ما سنشرع فى عرضه.

الاحتمال الأقرب إلى الواقع

منذ أن وضع التاريخ العبريين القدماء أمام معاناة صعبة ورهيبة تلقى خيالهم الدينى عبئا ثقيلا، إذ كان عليه أن يفسر ذلك الوضع الغريب الذى يتعرض فيه شعب الله المختار لتلك المضايقات المروعة. فهو ذلك الشعب الذى وعده الإله يهوه يوما وعدا قاطعا بالحماية الكاملة فى كل حياته. سيجعله كرمل البحر عددا وسيضمن له ازدهارا اقتصاديا ووضعا مسيطرا فى العالم، وسيكون على الشعوب الأخرى كلها أن تنحنى أمام عظمة إسرائيل وتخدمها بإذعان. ولم يتحقق شىء من هذا الأفق البراق.

كان لا يزال من الممكن أن توضع فى الظل مسألة - رمل البحر كوحدة لحساب نمو السكان الإسرائيليين. ولكن وقائع المصائب والكوارث الداخلية والخارجية التى انهالت على "شعب القديسين" تتطلب الشرح بإلحاح. في داخل هذا الشعب كان يوجد، إلى جانب حفنة من المُلاك والمُرابين والكهنة الأغنياء، جمهور من الفقراء الجائعين أبداً والفلاحين الذين لا يملكون إلا القليل من الأرض أو لا يملكونها أبدا والحرفيين أنصاف المعوزين والمعوزين والعبيد المحرومين من كل شىء. وكان الأغنياء، كما فى كل مجتمع طبقى، ينهبون الفقراء، ولم يكن يطالهم عقاب...

وانهالت على الشعب الإسرائيلى ودولته ضربات موجعة، الواحدة أثر الأخرى من جانب الجيران الأقوياء. وفى أواخر القرن الثامن ق.م. إنهارت إحدى الدول العبرية (الدولة الشمالية، إسرائيل بالذات) تحت ضربات الغزاة الأشوريين. وقد سيق سكانها إلى الأسر وأتى مكانهم مستوطنون غرباء استقروا فى هذا الجزء من "أرض الميعاد" وبعد مائة

سنة ونيف حل المصير نفسه بدولة عبرية أخرى (الدولة الجنوبية، اليهودية) فقد غزتها بابل الجبارة، ودمر الغزاة تماما قدس أقداس الشعب المختار، هيكل سليمان. وسيق عليه القوم إلى الأسر في بابل. وعلى الرغم من أن بابل نفسها. أصبحت بدورها بعد نصف قرن ضحية فاتح جديد - المملكة الفارسية ونال المنفيون إمكان العودة إلى الوطن، فإن اليهودية بقيت مستعبدة على أى حال. وبعد ذلك، على إمتداد قرون لم يكن يتغير إلا الفاتح الذى كان يسيطر على الشعب العبرى فى فترة معينة. فارس، الدولة المقدونية، البطالمة المصريون، السلوقيون السوريون، وأخيرا، فى الوقت الذى تنسب إليه حياة ومقتل يسوع المسيح، إمبراطورية العبودية الرومانية. كان هناك، والحق يقال، انفراج استمر قرابة القرن فى هذا التناوب للغزاة. بقيت الدولة العبرية مستقلة من أواسط القرن الثانى ق.م. إلى عام ٦٢ ق.م.، حيث حكمت سلالة الخمسونيين. ولكن جمهور الشعب لم يتلق شيئا من "ولته"، وبقى وضعه تعيساً كما كان. وتردى أكثر وأكثر حينما أصبحت اليهودية تحت حكم روما التى كانت تضخ من البلاد قواها الحيوية كمضخة جبارة.

أن كل محاولات مقاومة المستعبدين الخارجيين والداخليين لم تؤد إلى شىء... لقد قمعت انتفاضات عديدة وتعرض المساهمون فيها للإبادة بلا شفقة.

فكيف يمكن تفسير إخلال الإله يهوه بالالتزامات التى تعهد بها ؟ لن يعزى التفسير على أى حال إلى خيانته، ولن يعزى من باب أولى إلى غدره. الذنب يقع على الناس أنفسهم الذين يخلون بتعهداتهم لله وبهذا يثيرون غضبه المشروع. لم يعد شعب إسرائيل قديسا، إنه يخرق باستمرار شروط المعاهدة مع يهوه، فيخدم آلهة آخرين ولا ينفذ الوصايا التى نقلت إليه من خلال موسى ويسمح لنفسه بكل الشرور والآثام. وتلك المصائب التى تنصب على رأسه سنة أثر سنة وقرنا وراء قرن يرسلها إليه الله نفسه، وما البابليون والفرس والآخرون جميعا وصولا إلى الرومان إلا أدوات فى يد الإله.

فأين المخرج ؟ أو أن شعب إسرائيل مات إلى الأبد ؟ أى الخيال الدينى لا يستطيع أن يهادن حلا كهذا للمسألة، فهو يصوغ حلا يحمل فى طياته عزاء أكثر بما لا يقاس. أن غضب

الله ليس أزلياً، ولابد أن تحل مكانه الرحمة والغفران. وسوف تشتغل ألية هذا الغفران عاجلا أو إجلا، وسوف يتحقق من خلال المسيح.

تعنى كلمة " المسيح" (بالعبرية القديمة "مشايح") "من مسح" والمقصود طقس مسح "الرأس بالزيت العطر الذى كان يؤديه العبريون القدماء للملك عند توليه الحكم. وهكذا، يجرى الحديث عن إنسان يجب أن يصبح ملكا على اليهود، فيترأس الدولة العبرية التى حازت استقلالها ويقود الشعب المختار إلى الرخاء والازدهار. وسوف تخزى الدولة الأخرى كلها، ومن بينها تلك التى سادت على العبريين حتى ذلك الحين، وتحنى رؤوسها أمام شعب القديسين. ويعبر عدد من أسفار العهد القديم بوضوح عن الأمل فى حلول هذا الزمن السعيد.

يحتوى سفر أشعيا على هذه النبوة الشهيرة. "ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجرى إليه كل الأمم. وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سلبه لأنه من صهيون تخرج الشريعة من أورشليم حكمة الرب. فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فى ما بعد " (٢/٢ – ٤) ولن يتحقق السلام والرخاء الشاملان إلا حينما يخضع المسيح العالم كله للشعب المختار.

ولكن لم يكن المقصود أول الأمر كيان خارق للطبيعية، بل إنسان فعلى ورجل دولة وشخصية عسكرية تعمل بوسائل فعلية. ولكن ستضمن له، طبعا المساعدة الكاملة من جانب القوي الغيبية و الي جانب ذلك، فإن لحظة ظهوره نفسها وزمن نشاطه واختيار الله للشخص المعنى من أجل تنفيذ تلك الرسالة السامية تدخل جميعها نطاق المنحة السماوية. ولكن الطابع الخارق لرسالة المسيح ونشاطه يقتصر على هذا.

وحتى فى وثيقة متأخرة نسبيا للعهد القديم – فى سفر دانيال الذى ظهر فى عام ١٦٥ ق.م. تقريبا – يرتبط أفق تربع المسيح على العرش بالانتصار العسكرى الفعلى على حكام اليهودية السوريين.

ومع ذلك فإن شخصية المسيح صارت مع الزمن تكتسب في خيال العبريين الديني ملامح دنيوية أقل فأقل، وخارقة أكثر فأكثر. وأصبحت شخصية تقترب أكثر وأكثر من طابع مخلوق سماوي يرسله الله إلى الأرض، هو من حيث مرتبته أشبه بملاك أو أقرب إلى الله نفسه. ونجد عند أشعيا موضعاً يحاط فيه ميلاد المسيح نفسه بستار من السر الضبابي والمجرد. "لأنه يولد لنا ولد ونعطى أبنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلهيا قديرا أباً أبدياً رئيس السلام" (٦/٩). هنا يكاد المسيح أن يكون الإله نفسه. وبالمناسبة، يقال بعد هذا أن "غيرة رب الجنود تصنع هذا" (٧/٩). ولا يستبعد أن يكون الموضع الذي يرفع المسيح إلى أعلى الدرجات قد أضيف فيما بعد إلى نص أشعيا الذي يعود تاريخه إلى أواخر القرن الثامن ق.م. وفي سفر جنوك المخول الذي يعود إلى بداية الميلاد يبدو المسيح كائنا وجد "منذ الأزل".

وإلى جانب ذلك تتعرض شخصية المسيح لتغير هام آخر. إلى جانب المحارب المظفر الذي يوحد شعبه ويقوده إلى النصر على جميع الأعداء تظهر في الخيال الديني شخصية الشهيد الذي يُكفر بآلامه عن ذنوب شعبه الله ويقوده على هذا النحو إلى الرخاء.

رُسمت الصورة العامة للمسيح المعذب في سفر أشعيا. يجري الحديث هناك عن كائن "لا صورة له ولا جمال"، أنه "رجل أوجاع ومختبر الحزن" يحتقره الناس ولا يساوي عندهم شيئا. " لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولاً". يجري الحديث إلى الآن عن أمراض حلت بالمعذب بمشيئة الله نفسه. ولكن فيما بعد يأخذ على عاتقهم قضية عذابه. "ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه". كل هذا جرى بمشيئة الرب الذي " سُر بأن يسحقه" (٥٣ / ٣ –١٠). ولكن " هذا الغامض سيلقى ثوابا عظيما لقاء عذابه: "يرى نسلا تطول أيامه ومسرة الرب بيده تنجح" ، "لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة ..." (٥٣ /١٢).

لماذا تطورت شخصية المسيح هكذا ؟ لقد عملت هنا طائفتان من السنن: الاجتماعية – التاريخية والأيديولوجية البحت.

فى خلال التطور التاريخى، مع واقع أن المدعين الفعليين لدور المسيح كانوا يمنون بالهزيمة ويقتلون بانتظام، ومع واقع أن الحلم ببعث الدولة الإسرائيلية كان يكشف على امتداد قرون عن استحالة تحقيقه، كان لابد وأن يتغير مضمون التعاليم عن المسيح. كان لابد للحقائق الدنيوية فى وعى المؤمنين أن تتخلى عن مكانها للقوى الخارقة التى تستطيع أن تنجز ما يعجز الناس العاديون عن تحقيقه حتى بمساعدة الآلة. وكانت عملية هذا التطور لصورة المسيح تتجلى بسطوع خاص فى فترات الإزمات الاجتماعية والعسكرية – السياسية المرتبطة بهزائم الجماهير الشعبية فى الصراع الطبقى، والشعب كله فى الانتفاضات الوطنية – التحررية. يعتبر بعض الباحثين أن التصورات حول الطابع الدنيوى للمسيح القادم قد بقيت أمدا أطول وسط عبري فلسطين، ولاسيما بين الفئات المتميزة، أما فى الشتات وبشكل خاص بين أقل فئات السكان العبريين الطبقية يسراً كانت صورة المسيح كمنقذ سماوى تنتشر بمزيد من السرعة والسهولة.

والأسباب التاريخية نفسها اقتضت نشوء صورة المسيح المعذب. أن المنقذ المظفر لم يظهر أبدا فى الواقع الفعلى، فى حين أن ميزان القوى القائم حينذاك جعل حتى ظهوره أمرا غير معقول. من الواضح. أن فكرة المنقذ المظفر لم تصمد فى وجه امتحان الواقع العلمى. ومن هذه الناحية كانت فكرة يسوع المعذب أقوى منها.

أن الآمال المعقودة على المسيح لم تنعكس فى التقاليد الشفوية فحسب، ولم تعش فى أحلام الناس ومواعظ الكهنة فقط، بل وجدت تعبيرا أدبيا فى عدد من الوثائق والمؤلفات التى وصل الكثير منها أيامنا هذه.

فى أسفار نبوات الكتاب المقدس ترن هذه الدعوة مباشرة انتظروا، يا أبناء إسرائيل، سيأتى رسول يهوه وستتحقق كل وعود الله التى أعطاها لشعبه المختار. ويحظى بانتشار واسع أدب القيامة الذى لم تدخل مؤلفاته لاحقا فى الشريعة اليهودية، ولا فى الشريعة المسيحية. ويشكل النبوءة بقرب قدوم المسيح للمضمون الأساسى لهذه الكتب.

ومن بينها سفر الأعياد المنحول. وتأريخه غير معروف على وجه الدقة، وربما كان قد كتب فى أواسط القرن الأول ب. م . وهو يصف بالتفصل مملكة النعيم التى ستحل بعد

قدوم المخلص الذي يُضحي من اجل تطهير الناس من الأثام والآلام المرتبطة بها، وسوف يتمتع الأتقياء (شعب إسرائيل بالذات) إلى الأبد بكل الخيرات التى تخطر على البال والتى سيزيد من متعتها على الدوام منظر الإعدام الذى سيطال أعداء الله. ويدخل فى هذا السياق أيضا سفر "صعود موسى" المنحول الذى ربما كان قد ظهر فى العقد الأول بعد الميلاد.

يعتبر سفر حنوك المنحول أثرا هاما بشكل خاص عن القيامة اليهودية المرتبطة بالمسيح. وقد عزيت كتابته إلى شيخ العهد القديم حنوك، أبى متوشالح، الذى أخذ إلى السماء حيا بعد أن عاش ٣٦٥ سنة. وحينما كان هناك، توفرت له طبعا فرصة الاطلاع على أهم أحداث مملكتى السماء، والأرض وكذلك على نوايا العلى. وقد كتب السفر، كما تشير المعطيات جميعا، فى النصف الأول من القرن الأول ب.م. وربما تكون بعض الإصحاحات قد أدخلت فيه لاحقا. وفى سفر حنوك الكثير مما يشبه أسفار العهد الجديد من حيث المضمون، وحتى من حيث الشكل.

ومن المؤلفات الهامة عن المسيح "كتب سيفيلا".

لقد انتشر بين اليونان والرومان فى العقود الأخيرة قبل الميلاد اعتقاد بالكاهنة الأسطورية سيفيلا التى سجلت نبؤاتها فى عدد من الكتب وكانت تتمتع بشعبية كبيرة. وقد وصل إلى زمننا ١٤ كتابا من تنبؤات سيفيلا التى يشمل تاريخ وضعها قرابة ٤٠٠ سنة. قرنين قبل الميلاد وقرنين بعد الميلاد. ويعود منشأ بعض هذه الكتب إلى عهد الوثنية اليونانية، ولبعضها أصل يهودى، ولبعضها الأخر أصل مسيحى، وما يهم موضوعنا هو التنبؤات اليهودية السيفيلاوية بالقيامة.

ظهرت الأقسام اليهودية من كتب سيفيلا فى الإسكندرية فى حوالي عام ٤٠ ق . م. وهي من عدة اسفار و ابوابها عبارة عن جمع بين مواضيع يونانية ويهودية. وقد أعرب فيها عن فكرة المسيح بوضوح وقوة خاصين. ويوجه المؤلف إلى اليونان واليونانيين. اتهامات شديدة بالتجرد من الشرف وانعدام القانون. ويعارض العالم الفارق فى المعاصى بالاتقياء

الذين يبجلون هيكل الله العلى بتقديم النبيذ واللحم والغذاء والتضحية بالعجول المكتنزة. واليهم سيرسل الله قائدا يرمز ظهوره إلى انعطاف حاسم فى التاريخ العالمى بأسره.

لا يجوز القول أن التنبؤات بقدوم المسيح الواردة فى أسفار الكتاب المقدس والأسفار المنحولة وكتب سيفيلا تتسم بالدقة والتحديد. لا بل أنها تتصف بأكثر ما يكون من الغموض وانعدام الدقة. لقد استرتل الخيال فوضع عددا ضخما من الأشكال حول مواضيع أساسية تمس التصورات عن شخصية المخلص المقبل، وعن طابع نشاطه، وعن مواعيد قدومه. يمكن فقط الإشارة إلى بعض الأحكام العامة الأساسية التى ارتسمت فى هذا الضباب.

لقد ربط قدوم المسيح، كقاعدة عامة، بانعطاف جذرى فى مصير العالم يعدل "نهاية الدنيا"، نهاية الدنيا القديمة، نظام الأمور القديم، عمليا. ومن هنا تصور حتمية الكوارث المروعة على النطاق الكونى التى تنتهى بمحاكمة الأحياء والأموات جميعا.

ستكون محاكمة عادلة. وستؤدى إلى تنكيل لاهوادة فيه بالأئمة والطغاة وتمنح الأتقياء والناس الجيدين عموما نعيما أزليا. وهنا يتجلى الطابع الديمقراطى لأيديولوجيا المسيح المنتظر. فالإئمة هم قبل كل شيء الأغنياء والأقوياء الذين يهينون الناس البسطاء ويضطهدونهم. ولا يحلم المضطهدون بانقلاب كونى فحسب، بل بانقلاب اجتماعى أيضا، إذ أن قدوم المسيح يعدهم بتغيرات فى النظام الاجتاعى طابعها غامض، ولكن يمكن التفكير على أى حال فى أن الفقراء سيصفون بنتيجتها حسابهم الأزلى مع الأغنياء.

فمتى يحل هذا ؟ متى سيأتى المخلص السماوى أخيرا ويحقق ما يعجز الناس عن التوصل إليه بوسائلهم الخاصة ؟ يشار إلى مواعيد متباينة منها القريبة جدا، ومنها البعيدة نسبيا. يحدد سفر نبوءة دانيال بواسطة حسابات معقدة الموعد باثنين وأربعين شهرا. ولما كان قد كتب فى أواسط ستينات القرن الثانى ق.م.، فكان يجب على الناس فى أواسط ذلك القرن إما الاعتراف بأن النبوءة تحققت، وأما تفسير هذا التاريخ بواسطة التلاعبات المعقدة بحيث يؤجل يوم الحساب إلى مواعيد أبعد بكثير. وأشار سفر حنوك إلى تاريخ دقيق لنهاية الدنيا، وهو العام (١٠٠٠٠) على خلق الدنيا. وجاء فى "صعود موسى" أنه ينبغى أنْ يمر من موت موسى إلى قدوم المسيح" ٢٥٠ زمنا" ، فإذا اعتبرنا الزمن سبع

سنوات، حسب التقليد، لا يصعب تحديد تاريخ دقيق (١٧٥٠ سنة). ولكن هذا التاريخ أيضا مر في القرون الأولى بعد الميلاد. وكان الأنسب هو إعطاء تاريخ غير محدد يعرب عنه في تعابير غامضة تنطوى على أكثر من معنى. "في نهاية الأزمنة"، "في الزمن المقدر"، "في ساعة القرار"... وكلما كانت الخطة التاريخية أكثر توترا وكانت الهزات التي يعيشها الناس عاصفة على نحو أشد ازداد في تصوراتهم قرب أفق الأحداث الحتمية، الرهيبة والمنقذة في الوقت نفسه، التي ينبغي على عتباتها التكفير عن الذنوب والاستعداد للحساب النهائي مع الله.

في أسفار النبوات أشارة أيضا على أحد المعالم الذي يجب أن يرمز إلى قرب قدوم المسيح. هذا الحدث التاريخي – العالمي ينبغي أن تسبقه عودة النبي إيليا إلى الأرض، وكان قد رفع في حينه حيا إلى السماء. جاء في سفر ملاخي. هأنذا أرسل إليكم النبي إيليا قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف" (٥/٤). ينجم عن هذا أنه لا ينبغي انتظار وقوع الأحداث الحاسمة المرتبطة بالقيامة قبل ظهور النبي إيليا في الأرض. بيد أن هذا لم يحد عمليا نشاط الواعظين الذين تنبأوا بقدوم المسيح في أقرب وقت بل وأكدوا هذا القدوم كواقع ناجز لأنه لم يكن ثمة في كل الأزمنة نقص في الأشخاص الذين ادعوا مرتبة النبي إيليا. وهم أما أناس وجودوا فعلا – متعصبون وأنصاف مجانين أو مجرد دجالين – وأما أسماء الأناس غير موجودين ولم يوجدوا أصلا. ولكي يتناقل الناس شائعة قدوم المسيح الذى سيتم في أقرب وقت أو الذى تم لم يكن يجب بالضرورة أن يظهر إيليا الحقيقي، بل كانت تكفي شائعة أيضا يتناقلها الناس بعجل تقول بأن إيليا، بشير المسيح، يعمل في الأرض ويعظ الناس ويدعوهم إلى استقبال المسيح بجدارة مسلحين بالتخلي عن معاصيهم.

هكذا نشأ وضع وصفه بوضوح مؤرخ المسيحية الفرنسي أ. ريفيل. فهو يكتب أن المصائب والأذلال والاضطهاد الذى عاناه الشعب اليهودي في القرن الأخير قبل ميلاد المسيح والسنوات الأولى بعده كان لابد وأن تسبغ، طبعا، قيمة خاصة على الإيمان بالمسيح. وهذا الأمل كان عامل إثارة إلى أقصى حد، وعامل تهدئة في الوقت نفسه، وذلك وفقا لمزاج الذين كان يراودهم (٧٧).

فى الثلثين الأولين من القرن الأول بعد الميلاد كانت اليهودية تغلى بالاضطرابات والنقمة الشعبية إلى أن أسفرت هذه الاضطرابات. فى عام ٦٦ ب.م. عن عاصفة جبارة ورهيبة، عاصفة الحرب اليهودية الأولى. أما فى خصوص جو الانتظار السلبى لقدوم المسيح، فقد وفر، طبعا، أفضل الظروف لظهور و انتشار أية أساطير عن المسيح، ومن بينها أسطورة يسوع، سواء اعتبر شخصية وجدت فعلا أو شخصية خرافية. ولكن جو الانتظار بفارغ صبر، الانتظار النشيط، المتوتر للمسيح كان أيضا مواتيا جدا لكى تنتشر على أوسع نطاق "الأناجيل" (حرفيا – البشائر) عنه بين أوساط السكان العبريين فى الإمبراطورية الرومانية.

أن الهزائم المروعة التى منى بها العبريون فى الحربين التحريريتين المتعاقبتين أعوام (٦٦ -٧٣ ، ١٣٢ – ١٣٥) ما كان لها إلا أن تزيد من جو الخيبة المريرة فى وسائل النضال الواقعية الدنيوية وتشدد من توقع إنقاذ خارق للطبيعة. وفقد المسيح الإنسان نهائيا، لبعض الوقت على الأقل، ثقة العبريين سواء فى فلسطين، أو فى الشتات. وتزايدت طبعا الأمال فى المسيح الإله، وبالتالى ازداد توترا توقع ظهوره وبدء تنفيذه لرسالته العظيمة.

بيد أن الجو الذى كان سائدا بين العبريين لم يكن وحده الذى يتسم بالأهمية. فبعد أمد قصير جدا على ولادة المسيحية بينهم، كانت الشعوب الأخرى فى العالم اليونانى – الرومانى المجال الأقل مقاومة لانتشارها. ولم تتحول اليهودية إلى مسيحية، بل على العكس أبدت لها مقاومة كان تتزايد مع الزمن ومالبثت جماعات اليهود المسيحيين أو المسيحيين من اليهود أن غرقت فى جمهور معتنقى الدين من الوثنيين. فهل كانوا مستعدين تاريخيا ونفسيا لتقبل أفكار المسيح المنتظر؟ يمكن بثقة أعطاء رد إيجابى على هذا السؤال وهذه الأفكار لم تكن فى أيديولوجيتهم ودياناتهم أقل شعبية مما فى اليهودية.

يكمن فى أساس الدين نفسه الأمل فى المساعدة التى يستطيع الإنسان الضعيف والعاجز إن يتلقاها من القوى الغيبية من منقذ سماوى أو خارق للطبيعة على أى حال. ولكن دور هذا المنقذ لا يتجلى فى الواقع اليومى. العيش ردئ ولا يستطيع الإنسان المسكين التوصل إلى الحقيقة والعدل وينهال على رؤوس الناس باستمرار كل ما يمكن من المصائب ذات الصفة الطبيعية والاجتماعية. ومن هنا هذا الاستنتاج. لأسباب لا يعرفها إلا

القوى العليا لا يكشف المنقذ السماوى عن وجوده مؤقتا، ولا يتدخل فى مسيرة الحياة العملية. ولعله لم يولد بعد فى الأرض أو أنه. حسب العقائد الدينية الأكثر انتشارا، لم ينزل من "علياته" الخفية التى لا يطالها أحد إلى أرضنا المعذبة ولم يتجسد فى صورة إنسان ؟ فلا بد إذا من توقع هذا الحدث المنشود فى المستقبل. أو لعل المنقذ موجود هنا والأمر متوقف على تجلى أثار ظهوره الخيرة بكل قوتها....

وتجلت بوضوح فكرة خلاص الناس المقبل نتيجة الانتصار الحتمى لمبدأ الخير الخارق للطبيعة على نظيره الشرير فى ديانه الفرس القدماء. وسوف يضطلع بالدور الحاسم فى هذا، حسب تصوراتهم، المنقذ السماوى ساوشيانت، " ابن العزرأ" وحينما يحل الوقت الذى حدده مسبقا إله الخير أهورا مزدا يأتى إلى الأرض سواشيانت – الذى ربما كان مطابقا – عندهم لإله ميترا – وتحل نهاية العالم القديم الذى يضطلع فيه إله الشر بدور كبير. وسيهزم ساوسيانت فى معركة مروعة إله الشر أهرمان وسيوقعه وجنده فى الجحيم. وفى غضون ذلك سينبعث كل الناس الذين عاشوا فى الدنيا سابقا وسيقفون أمام المحكمة الإلهية. وسيمضى المذنبون مع جند أهرمان وعلى رأسهم هو نفسه ألف سنة فى الجحيم عقابا لهم، وبعد ذلك يصفح عنهم، وحتى "أبو الشر" نفسه يذعن لإله الخير أهورامزدا وتحل أخيراً مملكة الخير والنعيم التى كانت تحلم بها دوما البشرية المعذبة فى الألام.

غالبا ما كانت شخصية الإله المنقذ ترتبط فى المعتقدات الدينية القديمة بالتصورات عن الملك.

فى مصر كان ينظر إلى الفراعنة كألهة أحياء. وتؤكد بعض الأساطير ألوهية حتى منشأ فرعون نفسه. لقد ظهر للملكة الشابة أعظم إلهة المنطقة فى صورة زوجها. استيقظت بفعل الأريج المحيط به وابتسمت له. وعندئذ. اقترب منها بشكله الحقيقى و"فعل بها ما أراد"، ثم غادرها وأعداً أياها بأن تلد ابنا سيكون ملكا لمصر. وهكذا ولد الملك الإله، و أن لم يكن بلا دنس تماما، إلا أنه من الآلة مباشرة، وتلقت أمه مسبقا "بشرى" بالحدث المقبلة عليه، بولادة الآلة.

لقد أعلن اسكندر المقدونى إلهاً بموافقته التامة وسار على أثره أخلافه على عروش الدول الإيلينية التى ظهرت بعد موته.

فى عبادة الملوك – الإلهة الإيلينيين لعبير عن أفكار تجعلها أقرب من بعض النواحى إلى المسيحية حتى من عبادة اليهود للمسيح المنتظر.

هنا تصاغ لأول مرة فكرة الخلاص التى تتجاوز خلاص الروح وحده. ولا يعود الإنسان ينجذب إلى الاهتمام بمستقبله فى الحياة الأخرى: هل سيتسنى له بعد الموت تجنب الآلام المرتبطة سواء بالتحول المقبل لروحه أو بعذاب الجحيم لقاء الحياة الدنيا الآثمة. وكان المؤمنون ينهلون هذا الأمل من مجرد إدراك أن ملكهم المنقذ سوف يحكمهم فى العالم الأخر كما فعل فى الحياة الدنيا. لم تكن الرعية، على الأرجح، راضية دوما عن حكم ملوكها، ولكن كان ذلك فى كل الظروف أمرا يعرفونه، وبالتالى ليس مريعا إلى تلك الدرجة.

وفى تلك التصورات تكونت كذلك شخصية الإله الابن، إذ كان كل واحد من الملوك المنقذين يعتبر استمرارا لهذا الإله "الحقيقى" أو ذاك، ومهمته تتلخص غالبا فى الوساطة بين الإله الأب والناس. وفى الوقت نفسه تبلورت أيضا فكرة المرأة الدنيوية التى شرفت بأعظم مهمة، وهى أن تكون أم الإله، مع العلم أن أسلوب ولادتها للطفل الإلهى كان يزداد روحانية مع الزمن، مجتازا طريقاً من لوحة الفعل الجنسى العادى وأن كان مع شريك غير عادى – إلى حبل بلا دنس وغير جسدى بالمرة.

إن الفكرة التى ظهرت فى الديانات الإيلينية لتجسد الإله فى صورة انسان كان فى وسعها أن تعطى مادة هامة لتكون شخصية المخلص المسيحية فيما بعد إذ كان يجب على هذا الإله أن يجتاز فى تلك الصورة المجال البشرى الدنيوى، وبعد الموت فقط ينضم إلى سكان البانثيون الآخرين. وينبغى التنويه بأن شرف استيعاب الجوهر الإلهى لم يمنح فى الخيال الدينى لذلك الزمن إلا لممثلى العائلات المالكة.

انتشرت عبادة الملوك - الإلهة فى الإمبراطورية الرومانية أيضا. وقد طالب الأباطرة منذ يوليوس قيصر بالنظر إليهم بمثابة كائنات الهية. وقد اعتبر، بالمناسبة إن الرومان كان يحكمهم حتى قبل قيام الإمبراطورية بأمد طويل إبطال أنصاف إلهة، أن لم يكن إلهة مائة فى المائة. واجترح بعضهم مأثر شبيهة بتلك التى عزتها الأناجيل إلى يسوع فيما بعد. وهكذا، مثلا، فإن رومولوس، أحد مؤسسى روما، اختفى فجأة أول الأمر على مرأى من أحد أعضاء مجلس الشيوخ، ثم يرتفع فورا إلى السماء، ثم أخذ مكانه بين الآلهة بشكل مرئى تماما. بيد أن مؤسسة الملوك - الآلهة لم تكتسب استقرارا معينا إلا فى العهد الإمبراطورى. ولم يكن من الإلهة شخصيات مثل قيصر وأغسطس فحسب، بل كذلك كاليغولا وكلوديوس اللذان اشتهرا بجنونهما، وتيباريوس الدموى ونيرون الذى لا يقل عنه تعطشا إلى الدماء وأمثالهم من المسوخ. ولكن بالنسبة على تحليل موضوعنا يعتبر هنا المبدأ نفسه أهم من أشكال تجسده الفعلية. لقد أصبح الإنسان إلها ترتبط رسالته بمهمة "إنقاذ" الناس وظهوره فى الدنيا كان يعنى بحد ذاته "بشري (إنجيلا) للناس.

لقد وضعت المصطلحات التى جعلتها المسيحية قانونا فيما بعد. نقرأ فى نقش يتحدث عن أمر السلطات بجعل يوم ميلاد الإمبراطور أغسطس (عام ٩ق.م.) عيدا "هذا اليوم أعطى العالم مظهرا جديدا ولو لم يشع العالم فى شخص المولود حاليا بسعادة عامة للناس جميعا لكان العالم مقضيا عليه بالفناء... إن العناية الإلهية المسيطرة على العالم ... أرسلته إلينا وإلى الأجيال المقبلة كمنقذ ... وكان ميلاد هذا الإله بالنسبة للعالم بأسره بداية أناجيل تنبعث منه وينبغى أن يبدأ بميلاده تقويم جديد" (٧٨). حتى لو نبذنا قشرة التمجيد التى أوجدها تزلف الحاشية والموظفين يبقى على أى حال واقع استخدام صيغ ابتهالية إزاء الإنسان كتلك التى مالبثت المسيحية أن استخدمتها إزاء يسوع المسيح. ونعيد إلى الأذهان أن هذا الأخير يسمى فى الأناجيل بالملك اليهودى أى أن الحديث يجرى عن ملك - إله.

إن الأمثلة التى أوردناها من تاريخ عبادة الملوك - المنقذين تخص شخصيات تاريخية واقعية رفعها الخيال الدينى إلى مصف الإله.

وفي حالات أكثر لا يؤدي دور الملك - الإله والمنقذ أناس أحياء، بل شخصيات أسطورية وأسماء مجردة. ففي مصر كان سيرابيس، وهو أيضا أوزيريس، يعتبر منقذا للناس وكانت هناك أيضا أم الإله إيزيس، وبالمناسبة، كانت تعتبر في الوقت نفسه زوجة إله. وفي أسيا الوسطى كان أتيس يضطلع بدور المنقذ، وكيبيلا بدور أم الإله. وعند البابليين كان تموز ومردوخ إلهين من هذه المرتبة. وكلاهما، كما تقول الأساطير، مات في الربيع، ثم بعث. وكانت تقام بمناسبة موتهما شعائر حداد جماعية مقترنة بعويل حشود المؤمنين. واضطلع بدر مماثل عند الفينيقيين أدونيس، وفي صور ميلكارت، وسجلت أساطير وعبادات قريبة من حيث المضمون في عدد من المدن - الدول في أسيا الصغرى.

وحظيت بانتشار واسع بشكل خاص عبادة الإله الفريجي أتيس. ومن الطريف أن الإمبراطور كلوديوس جعل في عام ٥٤ ب.م. عبادته في عداد الأديان الرسمية للإمبراطورية الرومانية، مما انعكس في تقويم أعياد الدولة. لقد قتل أتيس نتيجة مساعي الإلهة الغيورة كيبيلا وقام بعد ثلاثة أيام من موته. وكانت مراسيم الحداد الصاخبة، التي تبدأ في ٢٢ أذار (مارس) تعقبها بعد ثلاثة أيام احتفالات جامحة بالقدر نفسه بمناسبة قيامة الإله. وبالمناسبة، فإن الشعائر المرتبطة بهذه العبادة تشبه كثيرا شعائر الفصح لكنيسة المسيحية. وكانت تدفن صورة أتيس، وبعد ذلك، في اللحظة التي تطابق قيامة الإله، يشتعل فجأة ضوء ساطع في المعبد، أما التابوت الذي دفنت فيه صورة الإله فينفتح أشعارا بقيامه هذا الأخير، وبعد ذلك يبدأ مرح عام. أن الأساطير حول أتيس والعبادات المرتبطة به تقابلها في اليونان مجموعة من الأساطير والعبادات تخص ديونيس، وفي مصر مجموعة تخص أوزيريس. وهذه الشخصيات الأسطورية ولاشك اكتسبت في وعي الناس ملامح مخلوقات واقعية عاشت في الأرض في يوم من الأيام.

المعارض . وهنا أيضا نقطة ضعف أخرى في مفهومكم ! إن إسباغ صفة الإله على إنسان عاش في الأرض كان بالفعل منتشرا على نطاق واسع في العالم اليوناني - الروماني، أما إسباغ صفة الإنسان على إله فأمر أكثر تعقيدا بكثير. وإذا كان الأمر كذلك فإن واقع تحول الإله المسيح إلى الإنسان يسوع يبدو فريدا من نوعه، وبالتالي بعيد الاحتمال.

المؤلف. هذا إذا كان الأمر كذلك بالذات. ولكنه ليس كذلك.

إنه لمعروف التيار الدينى - الفلسفى المرتبط باسم أو هيميروس، الفيلسوف اليونانى فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وهو لم يضع التعاليم التى سميت باسمه (الأوهيميرية) بل كانت موجودة قبله بأمد طول، ولكنه، كما يكتب المؤرخ الفرنسى غ. بواسييه، "صاغها فى مؤلف واحد كان يقرأ بسهولة وحاز شعبية واسعة" (٧٩) وتتلخص فكرة هذا المؤلف فى أن كل إلهة الأولمب والبانثيون الرومانى كانوا أناسا فى يوم من الأيام. عن جوبيتر وساتورنى وقدموس وفينوس وغيرهم كانت لهم جميعا سيرتهم الدنيوية. فقد كان قدموس، مثلا، طباخا عند ملك صيدا، وكانت فينوس طبعا، امرأة داعرة، ولكن لا تبقى فينوس شذوذا بين النساء الأخريات فى جزيرة قبرص حرفت عن طريق العفة كل سكان هذه الجزيرة من الأناث.

ربما بقيت الأوهيميرية فى العالم اليونانى - الرومانى ظاهرة وحيدة ومنعزلة ؟ يقول بواسية إن أنيوس ترجم رواية أو هيميروس، ومنذ ذلك الحين أصبح هذا النظام معروفا تماما للرومان، ولعلهم تقبلوه بلا اعتراض وباشر الرومان بحمية إسباغ الصفة الإنسانية على آلهتهم. لن نورد المادة الفعلية الغنية المتوفرة فى صدد هذه المسألة، وسنقتصر على الوصف العام الذى أعطاه الباحث الفرنسى للدين الرومانى فى تلك الفترة. "لقد اتخذ كل شيء فيه مظهرا دقيقا إلى درجة لا تصدق. كان يبدو أن أبعد التخيلات احتمالا لا تختلف هنا عن أصدق الأحاديث... (٨٠). وسير الآلهة الدنيوية، التى أوجدها الخيال، لم يكن يجرى تناقلها شفويا فحسب، بل سجلت أيضا فى المؤلفات الأدبية على نحو ملموس وبوفرة من التفاصيل واللمسات الواقعية الحياتية. إن تفاصيل سيرة الحياة الدنيوية للآلهة الأوهيميريين ليست أبدا أقل غزارة ودقة من العناصر التى وصفتها الأناجيل لسيرة يسوع.

أن بعض ظواهر تاريخ الأيديولوجيا، ولاسيما تاريخ الأدب فى مؤلفات ما قبل المسيحية تبين تشابها عجيبا مع المسيحية وشخصية المسيح. وصل الأمر فى بعض الحالات إلى أن يضطر بعض اللاهوتيين المسيحيين إلى اعتبار أن بعض هذه الظواهر تعود إليهم،

فى حين أنها تسبق المسيحية بلا أدنى جدال وذات منشأ مغاير تماما. وينطبق هذا، مثلا، على أحد مؤلفات الشاعر الرومانى فرجيليوس من القرن الأول ق.م.

لقد جعل مؤلف "الإلياذة" الشهير الإعلام الشاعرى بميلاد طفل إلهى يجلب إلى الناس عصرا ذهبيا مكان العصر الحديدى مضمونا للحوارية الرابعة من ديوانه "الرعائيات". وقد اعتبرت الكنيسة المسيحية المبكرة الحوارية الرابعة مؤلفا يكاد يكون مسيحيا أو مسيحيا تماما. وإذ استشهد القديس أو غسطينوس ببعض مواضعها، أكد أنها لا يمكن أن تخص أحدا غير المسيح. وهل فى وسع الانسان أن يتوجه بكلمات كهذه إلى أحد غيره ؟ وحتى أن الإمبراطور قسطنطين فى مجمع نيقية أورد فى كلمته استشهادات كبيرة من فرجيليوس ليعزز بها موضوعة الوهية المسيح. ولكن، ربما كان فرجيليوس يقصد فعلا مؤسس المسيحية نفسه؟

إذا لم ننطلق من إمكان حدوث معجزة، فينبغى الاعتراف من غير قيد أو شرط بأن لا شأن للمسيحية هنا. هذا بالإضافة إلى أن فرجيليوس تنبأ بميلاد الطفل المعجز فى سنة كتابة الحوارية، فى حين أن المسيح لم يولد، إذا صدقنا الأناجيل، إلا بعد ٤٠ سنة. يشير بواسيه بسخرية إلى أن "خطأ كهذا لا يغتفر بالنسبة إلى نبى..." (٨١).

تعتبر الكنيسة المسيحية فرجيليوس ملهما على الأقل، إن لم يكن نبيا. وحتى أنه وضع فى القرون الوسطى إلى جانب موسى وأشعيا وداود وخصيات العهد القديم الأخرى التى يقال أنها تنبأت بميلاد المسيح. أما فى الواقع، فإن فرجيليوس أعرب فقط عن الأفكار والأمال التى كانت منتشرة على نطاق واسع فى زمنة. وطبيعى أن مؤلفاته الأدبية على غرار الحوارية الرابعة اضطلعت بدور معين، بل ربما بدور لا يستهان به فى أعداد الظروف الأيديولوجية لانتشار التعاليم حول المسيح الجديد.

إذا كانت حالة الحوارية الرابعة سببت غير قليل من المشاغل لأباء الكنيسة، فقد كان من الأصعب شرح العديد من الحالات الأخرى لتطابق الأقوال الإنجيلية مع الأساطير ذات المنشأ الأقدم. لقد رأوا ضرورة إن يشرحوا بشكل من الأشكال هذا الواقع المثير للارتباك الذى لا ينفى من حيث الجوهر تفرد المسيحية فحسب، ينفى أيضا مجرد منشئها الأصيل

المستقل. فقد أكد فيرميك ما تيرن، مثلا، إن الوثنيين يحاولون تقليد المسيحية فى عباداتهم وإحلال خرافاتهم الكافرة مكان الحقائق الإلهية لهذا الدين. وفى غضون ذلك أعرض، طبعا، عن حقيقة كانت معروفة للجميع فى ذلك الحين أيضا، وهى أن "الوثنية" أقدم من المسيحية بكثير، وهكذا فإذا كان هنا تقليد ما فإنه ذو اتجاه عكس تماما وفسر ترتوليانوس هذا الوضع الذى يشهر بالعقيدة المسيحية المنقذة بدسائس إبليس أن عدو الجنس البشرى هذا قد نشر بين أنصاره أراء تسبق المسيحية، وذلك خصيصا لحجب الثقة عن الأخيرة. هذا طبعا ما لا يمكن دحضه بشىء ... ولكن للبحث العلمى فى المسألة من المستبعد أن يأخذ هذا التفسير على محمل الجد.

ينبغى التنويه بعنصر آخر للعبادات القديمة كان يمكن له أن يسهل إلى درجة أكبر تقبل أسطورة يسوع. كان من المألوف فى تلك الأديان أن يقدم الأب ابنة ضحية للآلة. ومن الأمور المعروفة للجميع عبادة الآلهة الفينيقى مولك الذى كان تمثاله النحاس يتغذى بالأطفال المحترقين فى جوفه المتوهج. لقد بقيت فى العهد القديم إشارات عديدة إلى التضحية بالأولاد ولاسيما الأبكار منهم – وهو أمر لم يكن يمارس عند جيران اليهودية وإسرائيل فقط، بل وعند العبريين القدماء أنفسهم، إن ما يراه الإنسان المعاصر فى أراء الناس القدماء مدهشا للغاية، كان عندهم بحكم العادة طبيعيا ومقبولا. يبدو لنا، مثلا، اكثر من غريب كون الإله يقدم ابنه ضحية، ولاسيما أنه من غير المفهوم على من يقدمه. أما حينذاك فكان ينظر إلى هذا كشىء مألوف، لأنه درجت العادة على أن يلجأ رب الأسرة فى الحالات الضرورية إلى هذا الأسلوب من العبادة.

أن م. بريكنير، كرس لهذه المسألة بحثا خاصا تحت عنوان "الإله المعذب فى ديانات العالم القديم"، يورد نقاط تشابه بين الأديان الشرقية القديمة والأسطورة المسيحية عن يسوع ننوه من بينها بما يلى :

١) هنا وهناك "يوجد فى مركز التقديس والعبادة الإيمان يموت وقيامة إله منقذ يخضع لإله أعلى، وفى بعض هذه الأديان كان المنقذ ابن الإله لأعلى،

٢) هنا وهناك، ينطوى موت الإله وبعثه على معنى إنقاذ بالنسبة إلى المؤمنين". إذ كان المؤمنون يولون على أن ينالوا نتيجة لنشاط المنقذ هذا أمكان انبعاثهم أنفسهم على الحياة الأزلية.

٣) إن تاريخ موت وقيامة الآلهة - المنقذين يقعان فى حالات كثيرة - كما فى الأسطورة الإنجيلية أيضا - فى الربيع، وتجرى قيامة الإله فى اليوم الثالث أو الرابع بعد موته (٨٣).

ومما يجعل نقاط التشابه هذه تكتسب المزيد من الأهمية كون هذه العبادات كانت منتشرة بشكل خاص فى المناطق التى ظهرت فيها أبكر المشاعيات المسيحية، وهذا الواقع يعنى أن سكان هذه المناطق لم يكونوا مستعدين تاريخيا. لتقبل الأساطير المرتبطة بالمسيح فحسب، بل وربما للقيام على نحو مستقل بتأليف الخرافات فى هذا الاتجاه.

أما فى خصوص اليهود، فإن العبادات الشرقية للمنقذ الذى يموت وينبعث لم تكن أبداً بالنسبة إليهم شيئا جديدا لم يسمعوا به. وثمة فى العهد القديم أثار كثيرة لاطلاع العبريين على هذه الديانات وعلى الأساطير الكامنة فى أساسها. وهناك فى نبوءة حزقيال إشارة إلى "نساء يبكين على فموز" أى على تموز. وهن يفعلن هذا فى مكان غير مناسب بالمرة، عند بوابة هيكل سليمان. وهكذا، فقد تغلغلت العبادة الوثنية إلى قلعة اليهودية نفسها. وإلى جانب هذا، توجد فى العهد القديم إشارات كثيرة إلى "عبادة الأصنام" التى يخوض الأنبياء ضدها، بالطبع، نضالا لا يكل. وحتى الملك سليمان انصاع للإغراء واتصل بالعبادات الوثنية من خلال زوجاته الأجنبيات. وكذلك، فإن ملوك اليهودية واسرائيل الآخرين. ارتكبوا مرارا، كما يشهد العهد القديم. معصية السجود للآلة الوثنيين، وبالتالى، فإن الأساطير عن هؤلاء الآلهة، ومن بينها تلك المرتبطة بالمنقذين الذين يقتلون، لابد وأنها كانت معروفة لليهود فى بداية فترة ما بعد الميلاد.

لا ينجم عما قيل أن التعاليم المسيحية عن يسوع هى مجرد اقتباس من أحد أقدم الأديان. فهذا استنتاج خاطىء. إن الحكايات والأساطير، التى تبدو لنا فيها شخصية المسيح، قد ظهرت كمجموعة لتصورات دين جديد أوجدته ظروف اجتماعية- تاريخية

وغيرها. ومن الهام أن يؤخذ فى الاعتبار، أولاً، أن التصورات التى أصبحت مألوفة للجماهير الشعبية منذ أمد بعيد كان يمكن أن تشكل مادة بناء لهذه المجموعة الأيديولوجية الجديدة، وثانيا، أن إفرازات الخيال الدينى للمسيحية المبكرة، الذى عمل فى الاتجاه نفسه، كانت تكمن فى المجرى المألوف للمعتقدات الشعبية القديمة، المتداولة منذ زمن بعيد. إن إنسان النصف الثانى من القرن الأول ب.م. لم تبد له غريبة ولا مدهشة أفكار المسيحية، شأنها فى ذلك شأن شخصيات الملوك الإلهة الذين ينقذون البشرية وحينا خلق الوضع الاجتماعى – التاريخى حالة أيديولوجية مناسبة وجدت الأمال التى كان يعلقها الناس المحرومون والمعذبون فى الحياة الواقعية على المسيح " أشكالا جاهزة، وكان فى وسع خيالهم أن يتابع البناء انطلاقا منها. وكان ثمة دور هنا لتعاليم العهد القديم فى صدد المسيح والكثير من معتقدات وتصورات شعوب الشرق القديم والعالم اليونانى – الرومانى.

لخلق صور متماسكة لمسيح ذى نطاق دولى واسع وقوة مؤثرة كبرى كانت عند الخيال الدينى لشعوب البحر الأبيض المتوسط فى القرون الأولى بعد الميلاد مادة بناء كافية تماما فى المعتقدات القديمة قبل المسيحية، ولاسيما فى اليهودية وكل ما كان يلزم هو الظروف الاجتماعية – التاريخية التى تدفعه فى هذا الاتجاه وكانت هذه الظروف متوفرة.

إن ظروف الحياة الاجتماعية – التاريخية عند كل شعوب الإمبراطورية الرومانية، التى كانت تستبعدها دولة جبارة قائمة على الرق، قد وفرت تربة مواتية للغاية من أجل تطور التصورات والأساطير حول المسيح.

لقد قيد النير الحديدى للسيطرة الرومانية شعوبا كثيرة بحيث لم يبق عندها أى أمل فى التحرير بوسائل دنيوية واقعية. وخلقت هزائم حركات التحرر وانتفاضات العبيد إحساسا بيأس كامل من المقاومة المسلحة. ولم يبق سوى الأمل فى عون قوى خارقة للطبيعة. وفى تلك الفترة تزدهر بلون باهر العبادات المسيحية فى كل أراضى الإمبراطورية الرومانية. وأدت جملة من الظروف التاريخية إلى أن تكون الفكرة اليهودية عن المسيح أكثر هذه العبادات قدرة على التأصل والانتشار بين الجماهير الواسعة لسكان الإمبراطورية الرومانية.

إن أسطورة المسيح والعبادة المرتبطة بها كانتا أول الأمر أحد أشكال الفكرة اليهودية عن المسيح. وهي لم تحظ بنجاح وسط العبريين، لأنه كان يتمتع بقوة كبيرة بينهم المسيح - المنقذ الحقيقي الذى وعد به أنبياؤهم، رسول الله العملي والجرئ الذى سيحقق الشعب المختار تحت قيادته أهدافه عاجلا أو أجلا. ولكن الشكل اليسوعي للفكرة اليهودية عن المسيح المنتظر، وقد انتقل إلى وسط "الغرباء" استولى على جماهير واسعة بسرعة كبيرة. وكان عليه أن يتعرض لتغيرات جوهرية بحيث لم يعد يهوديا من حيث الجوهر. وكان عليه قبل كل شيء أن يتخلى عمليا عن مفهوم إسرائيل المختارة ويتحول إلى تعاليم دينية كوسموبولوتية وكان يجب أن يتغير أيضا تعليل خلاص البشرية على يد المسيح المنتظر.

إذا كان يكمن في أساس خاصية الفكرة اليهودية عن المسيح مبدأ يقول بأن المسيح سيأتي ليخلص الشعب المختار من أثار المعاصي التى ارتكبها ضد الإله يهوه الذى اختاره، فقد كان على فكرة المسيح المخلص أن تجد تعبيرا آخر في الوسط غير العبرى. وقد وجد في التعاليم القائلة بأن كل الناس يعانون بسبب لعنة الخطيئة الأولى الكامنة فيهم، وبأن المسيح لن يظهر للمصالحة بين اليهود ويهوه، بل للتكفير عن أثار خطيئة أدم وحواء بهدف المصالحة بين البشرية كلها والإله الكوني الشامل. وفي الوقت نفسه جرت تغيرات في العبادة سهلت على غير العبريين إمكان الانضمام إلى الدين الجديد بُطلت التحريمات العديدة التى كانت تفرضها اليهودية بالنسبة إلى الطعام وغيره، وألغى الختان. وبالنتيجة قطع الدين الجديد تماما كل صلة باليهودية.

سبب انتشار المسيحية بين العديد من شعوب الإمبراطورية الرومانية تمثل الكثير من المواضيع التى كانت تتناقلها تلك الشعوب، والكثير من التصورات الدينية، والكثير من أشكال الطقوس والعبادة. وتجلى هذا قبل كل شيء في صورة المسيح اليهودى من حيث المنشأ. وأخذت تترسب عليها وتتاشبك معها عناصر شخصيات وعبادات الآلهة - المنقذين والمحليين، الآلهة الذين يتعذبون ويموتون ويبعثون. وحصلت بالنتيجة سبيكة لعدد كبير من العناصر التى كونت صورة يسوع المسيح إجمالا.

وكان أساس هذه السبيكة على كل حال هو المسيح اليهودى الذى صيغت التعاليم عنه فى العهد القديم بصورة متناقضة وضبابية. وهذا ما يشير إليه واقع أن الوصف الإنجيلى لحياة يسوع يعتمد بأنشط ما يكون على تنبؤات العهد القديم بقدوم المسيح المقبل.

إلى جانب الفكرة العامة أخذ من العهد القديم الكثير من خطوط وتفاصيل الروايات الإنجيلية. يدخل يسوع أورشليم على اتان وجحش ابن اتان (متى ٥/٢١). وليس مفهوم، كما سبق القول، كيف يمكن الركوب على حيوانين فى وقت واحد. ولكن مصدر هذه اللوحة الغريبة نجده فى نبوءه زكريا. "هو ذا ملكك يأتى إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن اتان "(٩/٩). وفى تلك الهتافات التى يستقبل بها الشعب "ابن داود" – مبارك الأتى باسم الرب" – تكرار لنص من المزامير يقول الشيء نفسه حرفيا (المزامير ٢٦/١١٧) ومبلغ الثلاثين الشهيرة من الفضة، التى خان يهوذا من أجله يسوع، موجود فى نبوءة زكريا: "فوزنوا أجرتى ثلاثين من الفضة" (زكريا ١١/ ١٢). وحتى استخدام يهوذا لهذه النقود – ألقاها فى الهيكل – نجدها عند زكريا نفسه، حيث قيل أنه بنصيحة من الرب" أخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها فى بيت الرب" .. (١٣) وكلمات يسوع فى عشاء الفصح "إن يد الذى يسلمنى على المائدة معى " – تشبه ما جاء فى المزامير. وفى مشهد صلب يسوع يوجد أيضا الكثير مما له سوابق فى العهد القديم. قدم إلى يسوع على الصليب "خمرة ممزوجة بمر" ليشربها، وقد جاء فى المزامير. ويجعلون فى طعامى علقما وفى عطشى يسقوننى خلا" (المزامير ، ٦٨ /٢٢). وكلمات يسوع التى قالها قبل الموت على الصليب مأخوذة من المزامير مباشرة : " إلهى إلهى لماذا تركتنى" (المزامير) (٢/٢١). إن اللوحات الخيالية فى الرؤيا مقتبسة فى بعض الحالات من العهد القديم، ولاسيما سفر نبوءة دانيال. وهكذا، مثلا، فإن الوحش الذى له سبعة رؤوس و عشرة قرون، وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤسه ألقاب الكفر، وكذلك الفهد الذى له قائم كقوائم الدب وفم كفم الأسد مأخوذان من هناك مباشرة.

هذا التطابق يمكن تفسيره على نحو آخر أيضا. فثمة هنا بالنسبة إلى الكنسيين واللاهوتيين المحافظين مناسبة للتمجيد بحكمة أنبياء العهد القديم الذين رأوا وتوقعوا ما

يمكن أن يحدث بعد عدة قرون. ولكن التناول العلمي للمسألة لا يقبل حلا كهذا. إن المنطق البشرى السليم يتطلب استخلاص استنتاج بسيط، ولكنه واضح. بعض الوثائق كتبت قبل الأخرى بأمد طويل، الأولى كانت معروفة جيدا لمؤلفى الثانية، كان هناك تطابق فى النص، فمعنى هذا أنهم اقتبسوا من الأولى. ولهذا فإن الحقيقة ليست بعيدة عن المؤرخين، وعن اللاهوتيين الذين يعملون بأساليب علمية، حينما يعتبرون أن نصوص العهد القديم استخدمت على نطاق واسع لدى تأليف السيرة الإنجيلية ليسوع المسيح. وفى هذا الصدد يقول اللاهوتى البروتستانتى المعاصر مارتين ديبيليوس أن نصوص العهد القديم "صنعت التاريخ"، أى أن تاريخ يسوع نفسه مبنى مباشرة على نص العهد القديم. ينبغى الاعتراف بأن فى هذا شيئا من المبالغة، لأنه كان هناك إلى جانب العهد القديم غير قليل من المصادر الأخرى التى غذت، كما يبدو، خيال مؤلفى روايات العهد الجديد.

ثم أن النظام الأيديولوجى والمذهبى للعهد القديم نفسه لم ينظر إليه فى بداية فترة ما بعد الميلاد من الزاوية التقليدية والحرفية فقط، بل ومن زاوية المعنى المجازى الذى صار يسبغ عليه منذ زمن أريستوبول والذى تطور على نحو خاص فى مؤلفات فيلون الإسكندرى.

لقد اعتبر انجلس، مؤيدا برونو باوير، أن فيلون بالذات هو أبو المسيحية. فما هو قسط فيلون فى تكوين صورة يسوع المسيح ؟

كان الطرح الدينى – الفلسفى الأساسى لمؤلفات فيلون طرحا غنوسطيا. وتتلخص إحدى الأفكار الرئيسية للغنوسطية فى أنه لما كان الإله بحكم سموه الذى لا حدود له ليست له علاقة مباشرة بالعالم المادى المنحط والتافه – الفظ، فإن الصلة بينه وبين العالم تتحقق من خلال قوى وسيطة، جسدية وروحانية فى الوقت نفسه، تنبعث من الآلهة بشكل خفى. فمن هذه التجسدات، "الأيونات" الأفكار (حسب المصطلح الأفلاطونى) كان يتجسد هذا الجانب أو ذاك، وهذه الخاصية أو تلك للإله الذى لا ينتهى ولا يمكن إدراكه، متخذا قشرة جسدية فى متناول الحس.

وكانت تتمتع بأكبر شعبية فى مختلف تيارات الغنوسطية الأيونات أو التجسدات المعروفة بالتسميتين اليونانيتين صوفيا (الحكمة) ولوغس (الكلمة). وقد أدى مفهوم اللوغس دورا كبيرا بشكل خاص فى فلسفة فيلون الغنوسطية. فاللوغس بالذات كان عند فيلون الواسطة بين الإله والناس،وقد وصفه بمثابة المفسر للتعاليم الإلهية وولى الله ورسوله وابن الإله البكر، وأحيانا بمثابة الإله أو الإله الثانى. وهذا المفهوم انعكس بوضوح فى إنجيل يوحنا الذى ابتدأ بإشارة إلى اللوغس – الكلمة الذى "كان لدى الله" والذى "هو الله".

واللوغس ليس شخصا، بل جوهر صوفى وغير جسدى. ولكنه يستطيع بإيعاز من الله أن يتجسد ويكتسى لحما وجسدا بشريا. وفى خاصيته هذه انفتح إمكان تأثير الأفكار الغنوسطية فى التعاليم المسيحية. وتحت هذا التأثير تحول المسيح بسهولة من إنسان وإن كان مزودا بصلاحيات عليا، ولكنه انسان على أى حال، إلى جوهر فوق الطبيعة يتخذ أشكالا جسدية فقط. وبالتالى تغير طابع انتظار الناس لقدوم المسيح.

لقد أدت الغنوسطية اليهودية قسطها فى هذه السبيكة من العناصر المتباينة التى شكلت شخصية "المسيح" ولكن تصورها للمسيح كلوغس لم يكن يستطيع بشكله الصرف أن يكون أساس هذه الشخصية. فقد كان بشفافيته الفلسفية وهلاميته الضبابية فوق طاقة التصور الدينى – الميثولوجى. إن الوعى الدينى يتطلب صورة ملموسة، لا تجريدات ميتافيزيقية. ولهذا لم يكن فى وسع اللوغس الغنوسطى إن يتغلغل فى المسيحية إلا بإعطائه شكلا محورا وخشنا. وقد أشار انجلس إلى هذه الناحية الجوهرية، قائلا أن "المسيحية أتت من التصورات الفلسفية المبسطة بالذات، لا من مؤلفات فيلون نفسه مباشرة" (٨٣). وأشار مرارا إلى "الشكل المبتذل، المبسط الذى اتخذته فى المسيحية الآراء الغنوسطية للفلسفة الإيلينية، وأصر إلى جانب ذلك على ضرورة مراعاتها لدى البحث فى قضايا منشأ المسيحية.

كان من المستحيل تأليه الإنسان بالنسبة إلى اليهودية المتزمتة، لأن هذا من وجهة نظر العهد القديم تجديف لا مثيل له. وكان هذا يبدو فى صيغة اليهودية الفيلونية التى جعلت على طراز حديث يلائم ذلك العصر بمثابة تأليه لا لكيان ملموس، بل لشىء مجرد ينبعث من الله نفسه. وبواسطة هذه البُنىَ "سَمَت" وأصبحت مقبولة لليهود بدرجة من الدرجات

التصورات الوثنية للناس – الإلهة المدعوين إلى إنقاذ الجنس البشرى ولكن بدرجة من الدرجات فقط، بل وبدرجة قليلة كما بَين التاريخ، لأن المسيحية لم تتأصل عند العبريين. وكان عليها أن تبحث عن وسط لانتشارها بين الشعوب الأخرى فى الإمبراطورية الرومانية ومن المعروف أنه تسنى لها تماما إن تجده هناك.

وهكذا "انصهرت" ملامح التصورات الدينية – الميثولوجية لمختلف الشعوب حول المسيح – المنقذ فى شخصية يسوع المسيح المتكاملة على هذه الدرجة أو تلك. لقد قلنا عن شخصية المسيح المتكاملة إلى هذه الدرجة أو تلك، ونحن نقصد أنها لم تصبح متكاملة بشكل حقيقى. فالتناقضات الداخلية فيها تبين بوضوح تنوع مصادر منشئها. ولكن بالنتيجة نجم على أى حال شىء جديد، وهو يسوع المسيح الإنجيلى الذى ثُبت وأسبغت عليه فيما بعد صفة القانون فى الكتب المقدسة ومسلمات المسيحية.

إن صورته، كما نرى، لم تظهر فى فراغ، بل مهد لها التطور السابق كله. وعلى هذا النحو أيضا أعدت تعاليمه. إن التنبؤ بقرب نهاية الدنيا، الذى تعزوه إليه الأناجيل، والدعوات إلى التوبة المرتبطة به والوعظ بالعزوف عن الخيرات الدنيوية باسم الحرص على إنقاذ الروح فى الملكوت المقبل، والموقف العدائى من الغنى والأغنياء. وحب القريب وعدم مقاومة الشر بالعنف بمثابة أساس للقانون الخلقى كانت جميعها موجودة فى الحركات والتعاليم الدينية – الاجتماعية السابقة للمسيحية.

فى رواية الكاتب البرتغالى أيسا دى كيروش "الذخيرة" يقول الحاخام غاماليل عن المسيحية.

– وما الجديد فى كل هذا، وأى شىء ذى بال؟ أو أنت تتصور أن الرابى الناصر استخلص كل هذه المسلمات من أعماق نفسه ؟ ولكن مذهبنا حافل بها ! ..... تريد أن تسمع عن الحب والرحمة والمساواة ؟اقرأ سفر يسوع بن سيراخ .... كل هذا وعظ به حديقك بوكنعان الذى انتهى على نحو فاجع أيضا فى سجون ما خيرون (المقصود يوحنا المعمدان – أ.ك.) (٨٤).

وبالفعل، فإن الحاخام غيليل، مثلا، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى على وجه التحديد، وعظ بخلق قريب للغاية إلى روح المواعظ الجبلية. ومن المعروف أنه حينما سئل عن جوهر المذهب الذى يعتنقه، أجاب.

– لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعله الآخرون بك. هنا الشريعة كلها، وما عدا ذلك مجرد تعليقات.

ولكن غامالييل لم ينوه بالوثنيين عبثا رغم أنه قرن ذلك بلهجة ازدراء. فعندهم أيضا كان الخلق الإنجيلى قد تكون بوضوح قبل الأناجيل. ولنتذكر فى هذا الصدد الفيلسوف الرومانى سينيكا الذى سماه انجلس عم المسيحية لهذا السبب بالذات. هذا الفيلسوف الذى كان من حاشية نيرون وعظ بأخلاق كتلك التى يوحى بها مثل الغنى وعازر، رغم أنه نفسه كان أقرب إلى الغنى فى هذا المثل. وبغض النظر عن القناعات الشخصية لسينيكا الذى كان، ولاشك، نموذجا للنفاق، فأن تعاليمه الخلقية قلما تختلف عن التعاليم الإنجيلية. وبالمناسبة، فمن المستبعد أن يكون الواعظون بهذه التعاليم الأخيرة، لا المعاصرون وحدهم بل والكثير من القدماء يختلفون عن سينيكا كثيرا من حيث النفاق واختلاف الأقوال عن الأعمال....

نرى فى المحصلة العامة أنه تكدست فى الفكر الاجتماعى للشعوب المختلفة فى بداية فترة ما بعد الميلاد مادة بناء كافية تماما لخلق صورة يسوع. وكان فى وسع الخيال الدينى أن يستخدم هذه المادة لأفناء مظهر إنسان وجد بالفعل، أو أن يخلق منها شخصية أسطورية. وقد بحثنا فى أول هذين الاحتمالين بتفصيل كاف. واعتقد أن الاحتمال الثانى أقرب إلى الحقيقة.

ينبغى اعتبار أحد بلدان الشتات اليهودى، مصر أو أسيا الصغرى على الأرجح، لا فلسطين المكان الأكثر احتمالا لظهور الأسطورة المسيحية. إن أول أسفار العهد الجديد من حيث زمن ظهوره – الرؤيا – موجه على كل الطوائف المسيحية فى أسيا الصغرى. وأقدم قصاصات للمخطوطات الإنجيلية موجودة تحت تصرف العلماء عثر عليها فى مصر. ولا توجد أية براهين على أن أسفار العهد الجديد كتبت أول الأمر باللغة العبرية القديمة أو باللغة

الأرامية، وليس معروفا إلا نصها اليونانى، مع العلم إن اللغة التى كتبت بها حافلة بالكلمات الأرامية والعبرية. وهذا يشير فقط إلى أن مؤلفيها كانوا عبريين عاشوا خارج فلسطين، فى إطار انتشار الثقافة الإيلينية، وأنهم كانوا يحسنون لغة هذه الحضارة، ولكن ليس إلى تلك الدرجة من الكمال بحيث لا يظهر أى أثر يشير إلى منشئهم العبرى. والاعتراض القائل بأن اللغة اليونانية كانت حينذاك معروفة بدرجة كافية فى اليهودية بحيث كان يمكن هناك أيضا كتابة أسفار العهد الجديد باليونانية هو اعتراض لا أساس له. ففى اليهودية فى ذلك الزمن كانوا يكتبون باللغة الأرامية بالذات، لا باليونانية، ولاسيما أن هذه المؤلفات كانت مخصص لنشرها وسط الجماهير الشعبية التى لم تكن تستطيع، طبعا، القراءة باليونانية.

لنتصور الوضع الأيديولوجى فى مدن الشتات العبرى فى بداية فترة ما بعد الميلاد. لقد كان السبب الرئيسى الذى حدد روح هذا الوضع نفسها هو الانتظار المتوتر لقدوم المسيح المرتبط بالآمال فى التغير الجذرى لكل النظام القائم، وفى بعث المملكة اليهودية بأشد قوتها ومجدها. وكانت أفئدة وأرواح المبعدين والمهاجرين تتجه إلى اليهودية وأورشليم، فهناك بالذات يجب أن يظهر يسوع المسيح من نسل الملك داود. ومن حين إلى آخر كانت تتوارد من هناك إشاعات مبهمة ومثيرة عن أنه أتى أو ينوى أن يأتى فى التو واللحظة. وفى كل مرة كان يتضح أن هذه الشائعات لم تتأكد ولم تتحقق. كانت تخيب أمال الناس المنتظرين، ولكنها مع ذلك لم تقتل هذه الآمال لشدة تطلع الناس إلى الحلم بالرخاء والحرية، بالانعتاق من الاضطهاد القومى والاجتماعى. وكانت تأتى شائعات وأساطير لتحل مكان الأخرى. كان بعضها غير قادر على البقاء، فلا يلبث أن يتبدد لبعده عن الحقيقة أو لتنافره مع المتطلبات الأيديولوجية للزمان والمكان، ثم ينسى ويختفى بلا أثر. وكان بعضها الأخر يتأصل ويجد عددا متزايدا من الأنصار الذين كان خيالهم يزود ويغنى الأسطورة الأولى بعناصر وتفاصيل جديدة. وبمثابة "أصطفاء طبيعى" من نوع خاص عاشت الأسطورة المرتبطة باسم يسوع المسيح، ثم أحرزت نصرا مؤزرا فيما بعد.

أين تكمن قوتها التى وفرت لها إمكان أن تضرب تلك الجذور الجبارة ؟

كانت الأسطورة المسيحية تتمتع بالجاذبية التى كانت تنطوى عليها كل الأساطير الأخرى عن المسيح المنتظر. لقد أعطت الأمل فى الخروج من وضع كان يبدو أن لا مخرج منه. ولكن كانت لها خاصية أخرى ضمنت لها أهم أفضلية. أنها لم توضع على محك تجربة الحياة. كان ينبغى لأية شخصية تدعى أنها المسيح أن تبرهن على صحة ادعائها بالأعمال الفعلية، بالانتصارات العسكرية أو أية انتصارات أخرى، بهذه المنجزات أو تلك التى تشهد على أنه تتحقق، أخيرا، إرادة يهوه الذى قرر أن يرأف بشعبه المختار وينقذه ويرفع من شأنه، وحينا كانت ترد من اليهودية البعيدة معلومات بأن مسيحا جديدا قد منى بالهزيمة وفشل عمله، كانت تحل نهاية أسطورته أيضا. وإذا كانت تكمن شخصية مختلفة فى أساس هذه الأسطورة، فإن الممارسة كانت تؤدى بالحتمية نفسها إلى نزع الثقة منها. كانت تمر السنوات والعقود وتخفت الشائعات عنها أكثر وأكثر ولا يسفر نشاطها الوهمى عن شىء فعلى، فتموت الأسطورة موتها الطبيعي. وكان مصير أسطورة المسيح مغايرا.

كان العنصر الرئيسى لمضمونها المبدأ القائل بأن المسيح ينبغى إلا ينتصر فى العالم المنظور الفعلى، بل أن يُقتل. ولن يأتى الحساب النهائى "مع العالم الغارق فى الشر إلا فى المستقبل. ولم يكن الناس بحاجة إلى التعود على انتظار هذا المستقبل، فكل الأيديولوجيا المرتبطة بالمسيح المنقذ كانت تقوم على هذا الانتظار. ولكن الأمر هنا لم يكن يقتصر على الانتظار وحده لقد أعطت الأسطورة أيضا مظهر إنجاز ما، شىء تحقق، ولكنها تركت فى الوقت نفسه حيزاً للأمل زادت من حيويته استحالة التأكد من صحة ما كانت تقوم عليه الأسطورة نفسها.

لو أن الأسطورة المسيحية ظهرت فى فلسطين لانفضحت بسهولة فى حالة أسطورتها. كان لابد حتما من شهود على الأحداث ومساهمين فيها و"مشجعين" لها، وفى وسع الناس الذين كانوا ذلك الحين فى أورشليم والأماكن الأخرى التى تقول الأسطورة أن الأحداث جرت فيها أن يدحضوها، قائلين إن شيئا من هذا لم يحدث فى ذلك الوقت وذلك المكان، ولكن إذا كان الحديث عما جرى فى فلسطين النائية منذ عدة عقود، فلا مجال للتأكد من صحة هذه الأحاديث. ولد "بطريقة عجيبة !" وعظ، اجترح معجزات لا نظير لها، تعرض

للملاحقة، صلب، قام، ارتفع إلى السماء - كيف يمكن التأكد من كل هذا إذا كان قد جرى وراء سبعة بحار وفى وقت غير محدد ؟ أما ما يمكن التأكد منه فى هذه الأسطورة فلن يحدث إلا فى المستقبل. ولا يبقى لنا سوى الإيمان والانتظار.

ثمة فى هذه الأسطورة نقطة ضعف، والحق يقال، لقد جرى الوعد بقدوم المسيح ثانية "بكل مجده" بمثابة حدث مؤثر على نحو خارق يجب أن يحدث فى أقرب وقت فى حياة هذا الجيل نفسه. وكونه لم يحدث من شأنه أن يقوض الدين الجديد إلى أقوى درجة. لقد مرت عدة أجيال منذ لحظة ظهور أسس الأسطورة المسيحية إلى حين صياغتها فى نظام دوغمائى مكتمل، ولكن قدوم المسيح ثانية لم يحدث. ولعل الكثير من أتباع التعاليم الجديدة قد ابتعدوا عنها تحت تأثير هذا الواقع. ولكن الكثيرين - الذين ربما كانوا الأغلبية، ولا يستبعد أيضا أنهم كانوا الأقلية - أزدادوا تمسكا بإيمانهم وبانتظارهم. وهبت للمساعدة تصورات وحجج لا يندر أن تنقد الآن أيضا النبوءة التى انهارت على نحو فاضح. لم يفسر ما قيل كما ينبغى، ثمة خطأ فى حساب المواعيد إلخ. ومن المعروف أن المجيئيين لم يفقدوا إلى الآن الإيمان بالقيامة القريبة، على الرغم من كل الارتباك فى مواعيدها المحسوبة بدقة. وبدا أن نقطة الضعف فى الأسطورة المسيحية لم تكن ذات خطر كبير إجمالا.

كان فى وسع أسطورة المسيح، الذى ولد وقتل فى اليهودية البعيدة، إن تظهر وتنتشر بين يهود الشتات "من لاشىء" بمعنى أن أساسها لم يكن شخصا تاريخيا حقيقيا. أنها، وقد ظهرت بين عبريي الشتات، كان فى وسعها أن تتسرب إلى وسط الشعوب التى كانوا على اتصال اقتصادى وثقافى - أيديولوجى بها. يشير أ.روبيرتسون بحق إلى أن "العبريين وغير العبريين لم يكونوا فى عزلة عن بعضهم البعض وكانوا يختلطون يومياً فى مدن البحر الأبيض المتوسط، حيث كان الفقراء العبريون يتحدثون عن حلمهم بالمسيح المقبل، فيكيفونه مع أحلام الفقراء غير العبريين عن الرب الغفور الذى ينتصر على الموت" (٨٥). وفى الهجرة المباشرة للأفكار بين شعوب الوسط الثقافى الإيلينى كانت أسطورة المسيح

تكتسب فى كل عقد جماهير متزايدة من الأنصار، مغتنية فى الوقت نفسه بكل ما كان الاتباع الجدد يسبغونه عليها من تجربتهم الحياتية - التاريخية والدينية الخاصة.

لماذا اخترت من بين الاحتمالين الممكنين ذلك الذى لا يجعل فى أساس الأسطورة الإنجيلية بذرة تاريخية واقعية على شكل إنسان تاريخى عاش فعلا؟

فى الاحتمال الآخر نقاط ضعف كثيرة جدا. وفى حالة تقبلها يتضح أنه يستحيل تفسير أمور كثيرة جدا. ولا يقتصر الأمر على "صمت القرن"، رغم أنه ينطوى، طبعا، على مغزى جدى. لا يقل عن ذلك جوهرية واقع أن تاريخ شخصية يسوع نفسه تكشف عن لوحة مدهشة للتطور من الله إلى إنسان، لا من إنسان إلى إله.

كلما كان تاريخ ظهور هذا النص أو ذاك وهذه الوثيقة أو تلك من العهد الجديد أبكر تجلى يسوع المسيح بمزيد من التحديد كاله، كحمل ذبح ضحية ذنوبنا منذ الأزل، وقبل كل العصور، كلوغس، كبداية مجردة خارقة للطبيعة، لا كإنسان بجسد وذى سيرة تاريخية ملموسة. وعلى العكس، كلما كانت الوثيقة تعود إلى زمن أكثر تأخرا تضمنت المزيد من عناصر السيرة الدنيوية ليسوع الإنسان. يستحيل افتراض أن الأجيال اللاحقة تذكرت بالتدريج مالم تكن تعرفه الأجيال السابقة. ما هى مدخرات الذاكرة التى يمكن أن تنهل منها هذه المعلومات ؟ إن المصدر الوحيد لهذه المعلومات لا يمكن أن يكون إلا الخيال الدينى الذى يحفزه الوضع التأريخى وظروف المعيشة الاجتماعية للجماعات الاجتماعية والقومية التى تكونت فيها معتقدات وأساطير المسيحية الأولى.

كتب أ. دريفس أحد أبرز منظرى المدرسة الميثولوجية، أن عدم تاريخية المسيح أمر مثبت بقوة علميا شأن عدم تاريخية ليكورغس (الأسبرطى - أ.ك.) أو رومولوس وريموس، أو الملوك الرومان السبعة أو هوزا شيوكوكليس أو ويلهيلم تيل" (٨٦). يمكن الموافقة على هذا مع تحفظ واحد. ينبغى الانطلاق من الحالة التاريخية للمصادر، ولاسيما أنه توجد الآن فى العلم التاريخى شكوك جدية فى صدد أسطورية بعض الشخصيات التى ذكرها دريفس. لا يجوز نفى إمكان أن يعثر فى المستقبل القريب أو البعيد على مواد ووثائق غير معروفة إلى

الآن تدفع إلى إعادة النظر في مسألة المسيح. مع العلم أن هذا الأفق غير وارد كثيرا، لأن اللوحة على أى حال واضحة بما فيه الكفاية.

أننا، إذ نتمسك بالرأى القائل بأن يسوع المسيح لم يوجد كشخصية تاريخية، نعتمد على تقليد غنى وراسخ فى أدبيات هذه المسألة. ويمكن أن نعزو بدايته إلى القرون الأولى من المسيحية، حينما وضع يوستينوس مؤلف "حوار مع اليهودى تريفون" هذه الكلمات على لسان معارضة. "أنتم تتبعون شائعة فارغة، لقد اخترعتم المسيح بأنفسكم... إذا كان قد ولد ووجد فى مكان ما، فإنه على أى حال غير معروف لأى كان على الإطلاق" (٨٧). وفيما بعد أعرب الكثير من المؤلفين فى بداية فترة ما بعد الميلاد عن بعض الملاحظات والتصورات التى تعبر عن الشك فى الوجود التاريخى للمسيح، ولكن التفسير الميثولوجى لشخصية المسيح صار يظهر فى الأدبيات بصورة محددة منذ أواخر القرن الثامن عشر.

إن معاصرى وشخصيتى الثورة البرجوازية الفرنسية ق.ق. فولنى وبشكل خاص ش.ف. ديوبيوئى أعربا فى مؤلفاتهما حول تاريخ الأديان عن قناعتهما بأسطورية المسيح وعللاها على مستوى علم التاريخ المعاصر لهما (٨٨). وقد نظر هذا وذاك إلى شخصية المسيح كتجسيد لإله الشمس الذى اقتبست المسيحية تصوره من الأديان اليونانية – الرومانية والشرقية القديمة التى وجدت قبلها.

قامت المدرسة الميثولوجية فى تطورها بخطوة لاحقة هامة للغاية فى مؤلفات أكبر باحث ألمانى للعهد الجديد برونو باوير (١٨٠٩ – ١٨٨٢). إن أراءه فى صدد هذه المسألة تعرضت لتطور جدى. فهو لم يعرب فى مؤلفاته الأولى عن الشكوك فى الوجود التاريخى للمسيح. ومع ذلك فقد مهدت فيها التربة من أجل الحل السلبى لهذه المسألة. وفى المجلد الثالث لمؤلف باوير الضخم "نقد التاريخ الإنجيلى للأناجيل الثلاثة الأولى وإنجيل يوحنا" صاغ أسس التفسير الميثولوجى لشخصية المسيح (٨٩). وعلى أساس التحليل الدقيق لنص الأناجيل بَين باوير عدم صلاحيتها بالمرة كمصادر تاريخية. وتناول باوير فى مؤلفاته العديدة التالية أسفار العهد الجديد الأخرى بالتحليل المتمعن نفسه، مما عزز قناعته بالطابع الأسطورى لشخصية المسيح.

قدر ف. انجلس مؤلفات باوير عاليا. وكتب أنه في ضوئها "لم يبق من كل مضمون الأناجيل أي شيء على الإطلاق تقريبا مما يمكن البرهان عليه كأمر صحيح تاريخيا، وهكذا يمكن أعتبار حتى الوجود التاريخي لشخصية يسوع أمرا مشكوكا فيه" (٩٠). وكما نرى، فإن انجلس لم يتخذ في المسألة الأخيرة موقفا قطعيا، وبقي الوجود التاريخي للمسيح بالنسبة إليه أمرا مشكوكا فيه فقط. وأعرب عن الأمل في أن تعطي الاكتشافات والأبحاث اللاحقة وضوحا أكثر في هذه المسألة.

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انفتحت أفاق جديدة أمام التفسير الميثولوجي لشخصية المسيح، فقد ظهر في ألمانيا وهولندا وفرنسا وإنجلترا وبلدان أخرى عدد كبير من الأعمال لمختلف المؤلفين الذين اتخذوا مواقف ميثولوجية محددة ورفضوا بشكل جوهري جدا الحجج التي تعللها.

ومنذ سبعينات القرن الماضي أخذ يظهر في هولندا باحث أثر الآخر من الذين يتخذون موقف نفي تاريخية المسيح بلا قيد أو شرط. وكان أولهم أ. هوكسترا الذي نشر في عام ١٨٧١ مؤلف " العلم المسيحي لإنجيل مرقس الناموس" (٩١). وعلل فيه فكرة تقول بأن الأناجيل ليست وثيقة تاريخية، بل مؤلفات شعر رمزي، وبأنه يمكن، بالتالي، النظر إلى شخصياتها كلها كمجرد محصلة للخيال الفني. وقد عالج هذا الرأي وأوصله إلى درجة الكمال ممثل أخر للمدرسة الهولندية، أ. بيرسون، في مؤلف يحمل عنوان "الموعظة الجبلية ومقتطفات أخرى من الأناجيل الثلاثة الأولى" (٩٢) صدر في عام ١٨٧٨. وينطوي على طرافة من حيث الفكرة وشكل التعبير مؤلف ممثل المدرسة نفسها س.أ. نابير بعنوان "الجوز" (٩٣). ويعرض المؤلف على اللاهوتيين – المتزمتين ٤٠ سؤالا مرتبطا بتفسير رسائل بولس وغيرها من مؤلفات العهد الجديد، وهي من وجهة نظره (لاصحيحة من حيث الجوهر) "جوز" قاس لا تستطيع أسنانهم كسرة.

وفيما بعد أغنى الباحثون الهولنديون الأدبيات بعدد من المؤلفات الجديدة عللوا فيها بإقناع على أساس التحليل الدقيق لنصوص العهد الجديد موضوعة أسطورية شخصية يسوع المسيح (أ.د. لومان، ف.ك. فغن – مانين، غ.أ. بولاند). وفي عام ١٩١٢ نشر غ.أ. فإن دين

بيرغ فان – أيسينغا باللغة الألمانية مؤلفا يلخص أراء ومنجزات ممثلي المدرسة الميثولوجية الهولندية – "النقد الراديكالي الهولندي للعهد الجديد" (٩٤).

وفي. الوقت نفسه أخذت تصدر مؤلفات أنصار المدرسة الميثولوجية الإنجليزية والأمريكية الواحد أثر الآخر. وصدر منذ عام ١٩٠٠ عدد من المؤلفات للاسكوتلاندي ج. روبيرتسون، والأمريكي ف.ب. سميث، والإنجليزيين غ. رايليندس وت. وايتيكير. وقد تتبع أولهم في مؤلفاته العديدة " تاريخ" شخصية يسوع قبل المسيحية، فربطة من حيث المنشأ بعبادة يهوشع اليهودية القديمة وغيرها من العبادات التي تضرب جذورها في أقدم الأزمنة. وركز ف.ب. سميث حجته في البرهان على أن صورة يسوع تكونت في البداية كصورة إله، لا إنسان. وقد سمى أحد مؤلفاته الرئيسية "هو الإله" (٩٥)، وكان المؤلف يعارض بهذه الصيغة النص الإنجيلي "هو الإنسان".

ولقي أكبر شهرة، وبالتالي مقاومة أخري من جانب اللاهوت المسيحي الرسمي الباحثون الألمان الذين دافعوا في مستهل هذا القرن عن المفهوم الميثولوجي. وقد برز أولا القس أ. كالتغوف وس. لوبلينسكي، وأتى بعدها أ. دريفس الذي حاز أكبر شهرة (٩٦). ولن نبالغ إذا قلنا أن اسم دريفس نفسه أصبح رمزا من نوع خاص للمدرسة الميثولوجية. وليس عبثا أن يعلن ف.أ. لينين ضرورة "الاتحاد مع أنصار دريفس" (٩٧) بالنسبة إلى الماركسيين، وهو لا يقصد، طبعا، رابطة الطروحات العقائدية والسياسية، فهذا أمر غير ممكن، بل رابطة تنال بحث وحل مسألة تاريخية المسيح أو اسطوريته.

في عدد كبير من المؤلفات التي صدر أولها – "أسطورة المسيح" – في عام ١٩٠٩، أجمل دريفس الحجج ضد تاريخية المسيح التي طرحها سابقوه كلهم وأضاف إليها جملة من تصوراته الخاصة. وفي القسم الذي يخص الحل الإيجابي لقضية منشأ المسيحية، طرح دريفس فريضة غير معللة تماما حول تأثير الغنوسطية الحاسم في ظهور التعاليم المسيحية، كذلك حول المصادر الاستراليستية لهذه الأخيرة. ولكن في نقد البناء التاريخي الأساسي حول المسيح – الإنسان أعطى دريفسي مادة لا تدحض وحججا دامغة.

أثار صدور مؤلفات دريفس رد فعل حادا من جانب ممثلي اللاهوت الرسمي. وحينما أجرى " اتحاد المونيين ذو الأفكار المتحررة في برلين مناقشتين عامتين حول تاريخية المسيح أو أسطوريته، قبلوا التحدى وقرروا نقل الصراع من صفحات المطبوعات الأكاديمية إلى حلبة المناقشة الشفوية العامة، في مباني السيرك والكاتدرائية (٩٨). ولكن ينبغي التنويه بأن خصوم الحل الميثولوجي لمسألة المسيح لم يستطيعوا إيجاد حجج جدية ضده. وتكاد تكون النقطة الرئيسية في هذه المناقشة الإشارة إلى أن دريفس ليس لاهوتيا من حيث المهنة، بل فيلسوفا، وبالتالي دخيل على المسائل المرتبطة بالدين. ولم يكن هذا مقنعا، بالطبع.

اتسمت بداية هذا القرن بنشاط أنصار الاتجاه الميثولوجي في عدد من البلدان الأخرى أيضا. وننوه في هذا الصدد بأسماء البولندى أ. نيمويفسكى، والفرنسيين ب.ل. كوشو، ب.الفاريك، أ. ديوجاردين وأ. موتييه – روسيه، والدانمركى غ.براندس (٩٩). وقد تسربت مؤلفات ممثلي هذا الاتجاه إلى روسيا حتى قبل ثورة أكتوبر، ولكنه لم يلق انتشارا واسعا بسبب الرقابة القيصرية. وحينما ترجم ن. موروزوف، الثوري الشهير وعضو منظمة "نارودنايا فوليا" في عام ١٩١٠ كتاب دريفس "أسطورة المسيح" إلى اللغة الروسية أحرقت كل نسخه بأمر من الرقابة. وقد سجن أ. نيمويفسكى في قلعة لمدة سنة بسبب إصدار كتبه باللغة الروسية.

شغلت المدرسة الميثولوجية لتدوين تاريخ المسيحية حيزا مرموقا في الأدبيات السوفيتية. هذا مع العلم أن مؤلف أول كتاب صدر بعد الثورة حول هذه المسألة كان يتخذ مواقف تاريخية المسيح. ونعنى كتاب ن. نيقولسكى "يسوع والمشاعيات المسيحية الأولى" (١٠٠). بيد أن الحجج التى أوردها هذا العالم التقدمى الكبير فى مصلحة تاريخية المسيح كانت سطحية ولم تفند البنى الأساسية للمدرسة الميثولوجية. وفى السنة نفسها أصدر المؤرخ الكبير ر. فيبير مؤلف "ظهور المسيحية" (١٠١). وقد أكد، مستخدما كل المراجع حول هذه المسألة، أن تصور المسيح شخصية تاريخية لا يقوم على أية أسس جدية مدعمة بالوثائق. وفيما بعد اتخذ علم التاريخ السوفيتى بصلابة موقف نفى تاريخية المسيح.

لقد تم القيام بعمل كبير لترجمة مؤلفات الكتاب الذين يتخذون الموقف المذكور إلى اللغة الروسية ونشرها. ومنذ عام ١٩٢٠ صدر كتاب أ. نيمويفسكي "الإله يسوع"، وبعد ثلاث سنوات صدر كتاب أخر لهذا المؤلف، وهو "فلسفة حياة يسوع" (١٠٢). وأخذت تصدر منذ عام ١٩٢٤ مؤلفات أ.دريفس ابتداء بمؤلفه الأساسي "أسطورة المسيح" (عدة طبعات) وانتهاء بالكتاب الذى ينظر فى تاريخ المدرسة الميثولوجية – "نفى تاريخية المسيح فى الماضى والحاضر" (١٠٣). وعلاوة على ذلك صدرت بترجمة روسية مؤلفات ب.ل. كوشو، ش. فيروليو، أ. موتييه – روسية، أ. غيرتلين، غ. براندیس ك. فولنيه، وغيرهم (١٠٤).

وصدر أيضا بعض مؤلفات أنصار المدرسة التاريخية. وهكذا، فقد صدر مؤلف الكاتب الفرنسي الشهير أ. باربيوس "يسوع ضد المسيح" (١٠٥) الذى أصبح لاحقا مادة لمناقشة حادة فى الصحافة السوفيتية. ونشر بطبعتين فيما بعد كتاب الشيوعى الإنجليزى المختص فى الأديان ارتشيبالد روبيرتسون مرفقا بمقالات لمؤرخ الأديان السوفيتى س. كوفالوف (١٠٦). أن الكتاب نفسه يذود عن موضوعة تاريخية المسيح، أما مقالات س. كوفالوف فتخوض النقاش ضد هذه الموضوعة.

ابتداء من عام ١٩٢٤ أخذ يصدر على امتداد عدة سنوات مؤلف ن.موروزوف المتعدد المجلدات الذى يحمل عنوانا مشتركا "المسيح" (١٠٧). وهو مؤلف فريد من نوعه رفض كاتبه من حيث الجوهر التاريخ القديم كله باعتباره تلفيقا من كُتاب أواخر القرون الوسطى. إن يسوع الإنجيلى لم يوجد، حسب مفهوم موروزوف، ولكن وجد فى القرن الرابع الميلادى شخص معروف باسم باسيل الأكبر، وهو الذى ينبغى أن توضع علامة مساواة بينه وبين يسوع المسيح. كانت أحكام موروزوف تقوم على مقارنات خطرة وكيفية بين الأخبار التاريخية والظواهر الفلكية التى يقول أنها موجودة بشكل رمزى فى هذه الأخبار، وعلى تفسيرات تتسم بالكيفية نفسها للأسماء الواردة فى المصادر التاريخية. وهكذا، مثلا، فإن المعنى الحرفى للاسم اليونانى باسيل (بازيليفس) – الملك – يتطابق على حد زعمه مع التسمية التى أطلقتها الأناجيل غير مرة على المسيح، وهى الملك اليهودى، مما يعطى مسوغات كما يقول، لوضع علامة مساواة بين المسيح وباسيل الأكبر. أن استراليستية

موروزوف سلكت إلى درجة معينة السبل نفسها التى سلكتها عند فولنيه ودبوبيوئى ونيمويفسكى، وإلى درجة كبيرة عند دريفس وعند المؤرخ السوفيتى ن. رومیانتسیف. وبالمناسبة، فإن هذا الأخير أعرض عن أراء موروزوف المستراحة وناقش وهذه الآراء لم يقبلها عموما علم التاريخ السوفيتي.

كان التفسير الميثولوجي لشخصية المسيح مبنيا في عدد من مؤلفات الكتاب والمختصين في الأديان السوفيت على الدراسة الإلينية المصادر و تلك المؤلفات التى أصبحت كلاسيكية إلى درجة معينة، والتى كتبها علماء أجانب منحازون إلى المدرسة الميثولوجية. ولابد في هذا الصدد من أن نأتي، قبل كل شيء، على ذكر كتب ن. روميانتسيف، أ. رانيوفيتش، ر. فيبير، س. كوفالوف، ى. لينتسمان ن (١٠٨). وفيها يرتبط الحل الميثولوجي لمسألة شخصية يسوع بالمفهوم الماركسي العام لمنشأ المسيحية وبكشف الجذور الاجتماعية – التاريخية لهذا الدين في مرحلة "تطوره الأولى" وتكمن في أساس التقليد السوفيتي لعلم الأديان في صدد هذه المسألة مؤلفات ف. إنجلس حول تاريخ المسيحية المبكرة وأشارات ف.أ. لينين المنهجية.

ينبغي التنويه بأن بعض المؤلفين السوفيت أظهروا في المدة الأخيرة ميلا إلى التخلي عن الحل الميثولوجي لمعضلة يسوع. وهكذا، ففى كتاب أ. سفينتسيتسكايا "من المشاعية إلى الكنيسة" ينظر إلى الوجود التاريخي للمسيح كمؤسس للمسيحية بمثابة حقيقة لا تثير الشك ولا تحتاج إلى برهان (١٠٩) . فهي تقول، مثلا، أن "الحفريات الأثرية اكتشفت أثار مستوطنة" في المكان الذى كانت تقع فيه الناصرة أيام يسوع. أما من قام بهذه الحفريات وأين نشرت نتائجه فأمر يبقى فى طى الكتمان. وقد سبق وأوردنا مقتطفات من كتاب تومبيسون يتضح منها أنه لم يُعثر عن هذه الآثار.

وهكذا، فإن الحجج الأساسية للمدرسة الميثولوجية بقيت راسخة في أيامنا أيضا. لن نعرضها هنا، لأنه سبق وسلطنا عليها الأضواء، وسنقتصر على موضوعتين مصاغتين بإيجاز.

١) إن المصادر التاريخية العائدة إلى القرن الأول لا تتحدث مطلقا عن شخصية المسيح ونشاطه حتى في تلك الحالات التى من المفروض أن تثير فيها

شخصية المسيح ومصيره اهتمام كتاب المؤلفات التاريخية والفلسفية والاجتماعية، وكان لابد لها كذلك من أن يظهر فى بعض الوثائق الرسمية وشبه الرسمية.

٢) تطورت صورة المسيح فى الأدبيات المسيحية المبكرة وفق مخطط "من إله إلى إنسان" وذلك حسب التتابع الزمنى لظهور هذا المؤلف أو ذاك كلما كان أقدم قلت فيه الملامح الملموسة لصورة المسيح كأنسان وازدادت سيرته الأرضية شحا واقترب مظهره من صورة إله.

لم يعثر بعد إلى الآن على أية شهادة على المسيح ترجع إلى الثلث الأول من القرن الأول أو أواسطه على الأقل وتعود أما إلى شاهد عيان للأحداث الإنجيلية أو مساهم فيها، أو إلى شخص ينقل مباشرة شهادة شاهد العيان، وتبقى كل التأكيدات حول تاريخية المسيح بلا أساس ولا تقوم إلا على التقليد المسيحى الذى تكون فى أواخر القرن الأول ومستهل القرن الثانى. أما فى خصوص الحجة حول تطور صورة المسيح. فإنها لم تحتفظ بقوتها فحسب، بل واكتسبت فى المدة الأخيرة مغزى أكبر.

كان إنجيل يوحنا يعتبر أحدث الأناجيل، ولعله الوحيد الذى خرق صيغة التطور التى أشرنا إليها، لأن الملامح الدنيوية والإنسانية لصورة المسيح تبرز بوضوح أقل مما فى الأناجيل الثلاثة الأولى. لا توجد هنا حديث عن ولادة المسيح ولا طفولته، ونقل التشديد فى الرواية كلها إلى الكلمة (اللوغس) الذي كان لدى الله والذى هو الله (يوحنا، ١/١ – ٥). وفى الوقت الحاضر يدخل بعض المؤلفين تعديلا فى تسلسل الأناجيل النسبى، واضعين إنجيل يوحنا فى المكان الأول انطلاقا من قرب أنجيل يوحنا. بروحه إلى الوثائق القومرانية، وكذلك من البردي الذى عثر عليه. د. رايليندس، وإذا قبلنا بهذه الفرضية يزول الخلل فى تطور الحياة وتكتمل لوحة هذا التطور بلمسة هامة. ففى هذه الحالة يدرج انجيل يوحنا " بسهولة" فى الصيغة المنطقية لتطور الأسطورة المسيحية بين الرسائل والأناجيل الثلاثة الأولى، مما يمكن له فقط أن يؤكد التطور من "إله إلى إنسان".

قد تأتي في المستقبل اكتشافات جديدة تنسف كل التصورات المنطقية التي – حددت إلى الآن حل المسألة في مصلحة النظرية الميثولوجية، إذ يمكن للوقائع الجديدة أن تخلق "منطقا جديدا"، وبالتالي استنتاجات مغايرة لتلك التي نجمت إلى الآن. ولكن التناول المتحامل والمتحيز للمسألة هو وحده الذي يستطيع أن ينطلق من اكتشافات مقبلة "ممكنة"، متجاهلا اللوحة الواضحة القائمة على وقائع لا يطالها الشك.

في ضوء المرحلة المعاصرة من تطور علم التاريخ ينبغي حل قضية منشأ المسيحية بالتجرد من شخصية المسيح ومن نشاطه الذي كان، من وجهة النظر الكنسية – التقليدية، نقطة انطلاق لتاريخ المسيحية. ولا يشكل أهمية في هذا الصدد إلا معرفة كيف تجلت تدريجيا خطوط صورة المسيح، وكيف جرى جعله شخصية تاريخية وتحوله من حمل غامض – ضبابي ولوغس إلى شخص واقعي ذي سيرة محددة.

ضم تاريخ صورة المسيح صياغة عنصرين من التعاليم الدنية.

١) لقد جاء المسيح إلى الأرض مرة ويجب أن يأتي مرة أخرى في المستقبل.

٢) كان مع كل قدسيته وألوهيته شخصا ذا سيرة دنيوية واقعية، ولد في الأرض وقتل أو على أي حال امتنع عن الوجود بهذه الوسيلة أو تلك. أن كلا جانبي عملية جعله شخصية تاريخية وجد تعبيره في مؤلفات العهد الجديد العائدة إلى النصف الأول من القرن الثاني، أي في رسائل بولس وفي الأناجيل. وإذا كانت الرسائل تتحدث عن بداية هذه العملية فإنها تبدو مكتملة في الأناجيل.

لأدراك كنه مسيرة جعل المسيح شخصية تاريخية بعد تحديد الأسباب الأيديولوجية المشروطة اجتماعيا التي ولدت الحاجة إلى هذه العملية. لماذا لم يستطع يسوع البقاء في خيال متعبديه حملا غامضا، إنما عليه أن يهبط إلى الأرض مرة أخرى ويتجلى في مظهر لهي، لا إنساني ؟

إن جملة من الظروف التاريخية اقتضت عدم جدوى هذا الشكل بالنسبة إلى الدين لجديد. اضطلع بدور هنا قبل كل شيء أنه كان في صراع مباشر مع اليهودية. كان لابد

في هذا الصراع من طرح عناصر جديدة من التعاليم الدينية تتجاوز الانتظار اليهودي - المتزمت لقدوم المسيح. والتعاليم القائلة بأنه أتى و أدى رسالته من حيث المبدأ كان الجديد الذي جذب المسيحيين الأوائل. وكان هذا ينطوي على مغزى خاص في وضع قيام روما بقمع الحركات التحررية، حيث خيبت أكثر الحجج إقناعا الحياة، الأمل في قدوم المسيح المحارب والمظفر. ولكن طالما أن المسيح قد أتى، فلابد من معرفة كيف مات إلخ.

كان أعداء المسيحية يطالبون بحجج جديدة دوما من شأنها أن تأكد صحة هذه الأخيرة. وكانوا يقولون أنه إذا كان المسيح قد أتى، فما الذي فعله وكيف عاش وماذا علم وكيف وفي أية ظروف أصبح في العالم الآخر؟ ولم يكن في وسع خيال المسيحيين الأوائل صد هذه الضربات إلا بأعداد سيرة للمسيح.

ظهرت عبادة، فنشأت وترسخت في الحياة الدينية شعائر جديدة غالبا ما كانت الأديان "الغريبة" مصدرها. بيد أن تفسيرها كان يمكن أن ينبع في وعي المسيحيين من ظروف ميثولوجية جديدة. وظهرت أساطير مشتقة جديدة كان يجب أن ترتبط بشخصية المسيح وتدخل كعناصر مكونة في سيرته.

اكتسب الأكليروس، مؤسسة الكهنة والأساقفة، وضعا متزايد الأهمية، وتكونت الكنيسة المسيحية. وهنا إلى جانب الواقع الفعلي النابع من كون السيطرة الاقتصادية والتنظيمية انحصرت في يد الكنيسة، كان لابد أيضا من دعم أيديولوجي كان ينبغي بواسطته. تعليل أنه كان عند المسيح رسل - تلامذة أرسوا أساس الكنيسة ونقلوا صلاحياتهم على سبيل تعاقب "الغبطة" إلى الأجيال اللاحقة من الوجهاء الكنسيين. في إنجيل متى يعطى أحد المشاهد الواردة فيه تعليلا لهذا. يسوع "يكلف الرسول بطرس بتأسيس الكنيسة وقيادتها" (متى، ١٨/١٦ -١٩). ومن هنا تنبع مطامع الأساقفة والكهنة "في أن يعتبروا أنفسهم خلفاء المسيح ووكلاءه. ولكي يكون هذا التفويض مقنعا لابد وأن يغدو أحد عناصر سيرة المسيح الناجزة والمتكاملة.

ينبغي التنويه بالأمر نفسه أيضا بالنسبة إلى النظام الخلقي للدين الجديد. وكان يمكن للتعاليم الخلقية التي كرسها إن تجد التعليل الأكثر مدعاة للثقة في القول إن المسيح علمنا

التصرف على هذا النحو. أما متى علم هذا وفي أية ظروف فأمر لم يكن في الوسع تحديده إلا من مشاهد سيرته في هذا الصدد، مما شكل حافزا إضافيا عند معتنقي المسيحية ليغنوها من مخيلتهم.

بيد أن هذا لا يحل مسألة السبب الذي اقتضى أن تكون هذه السيرة لإنسان، لا لإله. إذ يبدو أن مما يزيد من هيبة التعاليم والإرشادات أن تنطلق من كائن إلهي، لا من إنسان.

هنا وجد الدين الجديد نفسه تحت تأثير المادة التي جلبها معتنقوه من المعتقدات والعبادات القديمة. ففي اليهودية وفي أديان العالم الإيليني على حد سواء غالبا ما يتجلى المنقذون السماويون كبشر آلهة، لا آلهة "صرف " والمسيح، بناء على العهد القديم، ينبغي إن يظهر من نسل الملك داود، وهو نفسه ينبغي أن يكون ملكا، أي إنسانا. وفي الشكل الأخر لفكرة المسيح اليهودية، المبني على الإصحاح الثالث والخمسين لسفر أشعيا وعلى مصادر أخرى من العهد القديم تنظر إلى المسيح كمعذب وضحية بسبب الخطايا البشرية، يجري الحديث مجددا عن إنسان بكل هفواته ومعاناته القاسية. ومن المعروف أن عبادة المنقذين الذين يموتون ويبعثون كانت منتشرة على نطاق واسع في الأديان الإيلينية. لقد كانوا، بدءاً ببروميثيوس، آلهة بشرا وأبطال أنصاف آلهة ذوي سيرة دنيوية معدة بدقة.

إن الإيمان بيسوع الإنسان جعل المسيحية ذات جاذبية خاصة في أعين الناس. وأن المحدودية والضعف البشريين ليسوع المسيح وتعرضه للمعاداة البشرية، بما في ذلك تلك المرتبطة بالآلام، وتجرده من الحماية، بل وعجزه في عدد من الحالات جعلت جميعها الإنسان الإله أقرب إلى المؤمنين بما لا يقاس من إله منيع وبعيد دائما ومكتمل وهانئ. وكان في وسع آلام المصلوب أن تكون قريبة بشكل خاص إلى قلوب ممثلي المعذبين والمتعبين. وبالنسبة إليهم كان الإنسان الإله "أخاهم" الذي يفهم أكثر من الآلة المطلق حاجات المعذبين والمتعبين.

هنا تكمن إحدى مفارقات الدين. إذا حوكمت الأمور منطقيا، فإن اللاله الذي لا يستطيع أن ينقذ نفسه من الآلام، من المستبعد أن يستطيع إنقاذ البشرية منها. ولكن يتجلى هنا أيضا التناقض الملازم لكل دين. إذ أن التصورات الخيالية في هذا الصدد تكون

تاريخيا وتراكم بالتدريج، وطالما إن الناس يعتادون عليها، لا تثير الحيرة إزاء ما فيها من خطل واضح.

لصياغة السيرة الدنيوية ليسوع المسيح استخدمت المسيحية في النصف الثاني من القرن الأول مختلف معتقدات اليهودية وميثولوجيا كل الشعوب الإيلينية التي انضم ممثلوها إلى المشاعيات المسيحية. واضطلعت بدور كبير في غضون ذلك عبادات الآلهة الذين يتعذبون ويموتون ويبعثون، وهي عبادات كانت واسعة الانتشار في كل منطقة البحر الأبيض المتوسط. بيد أن المسيحية، إذ تعرض سيرة المسيح الدنيوية في وثائقها الدينية، وبالذات في أسفار العهد الجديد، لا تستشهد إلا بالعهد القديم وتنبؤاته.

لقد اقتبست من العهد القديم المادة الأساسية التي استخدمها المسيحيون الأوائل لبناء سيرة يسوع – الإنسان. وأعطى اتجاه التأليف الأسطوري للسيرة في رسائل بولس (غلاطية، ٨/٣ ، روما ، ٢٥/٢٤ ، قورينتش الأولى، ٤/١٥).

وفي الأناجيل يسار على هذا الخط بثبات. أن يسوع هو ذلك الملك اليهودي نفسه من نسل داود "وعد" به الإله يهوه مرارا من خلال أنبيائه (أشعيا، ٤/١١، دانيال، ١٣/٧ – ١٤). يجب أ، يولد في بيت لحم (ميخا، ٢/٥)، ولأجل هذا يرغم الإنجيليون أبويه على القيام بجولة غريبة من الناصرة إلى بيت لحم لحضور الإحصاء. أما الناصرة فاحتاج إليها الإنجيليون لتبرير إطلاق اسم "النذير" على المسيح (القضاة، ٥/١٣ ، ١٧/١٦ ، عاموس ١١/٢)، مع العلم أنهم لم يفهموا خطأ اشتقاق هذه الصفة من اسم الناصرة. وثمة في سيرة يسوع الإنجيلية تداعيات وأصداء من العهد القديم وصولا إلى تلك التي تبدو غريبة بعض الشيء. دخول يسوع أورشليم على حمارين دفعة واحدة تأكيدا لنص زكريا، واستشهاد الجنود الرومان بالعهد القديم عند اقتسام ثياب يسوع (زكريا، ٩/٩ المزامير ١٩/٢١ ، يوحنا، ٢٤/١٩) إلخ.

انطوت رسائل بولس على مغزى كبير بالنسبة إلى صياغة التعاليم المسيحية، بحيث أنه استقر الرأي في علم تدوين التاريخ البروتستانتي يقول بأن بولس بالذات، لا المسيح، هو مؤسس المسيحية كنظام ديني – دوغمائي. وثمة في هذا نصيب من الحقيقة لا يستهان به.

فمن إرشادات المسيح وأقواله المأثورة وأمثاله ومواعظه الواردة فى الأناجيل يستحيل تصميم تلك التعاليم الدوغماتية الكامنة فى أساس قانون الإيمان وكل البنى اللاهوتية اللاحقة للمسيحية. أما من رسائل بولس فيمكن استخلاص أحكام كهذه.

يتلخص أحدها فى أن المسيح لم يظهر لتقرير مصير الشعب الإسرائيلى وحده، بل ومصير البشرية بأسرها. إن ذلك الطابع الكوسموبولونى الذى اكتسبته المسيحية فى النصف الأول من القرن الثانى حتم ضرورة التغيير الحاسم فى طرحها الدوغمانى الأساسى. إذ كان يعنى القطيعة مع التعاليم القائلة بتفوق، الشعب المختار" ومع الطابع اليهودى – القومى للتعاليم حول المسيح، وإذا كان ينبغى للمسيح أن يظهر لإنقاذ البشرية كلها من الآلام والمصائب، فلابد من تفسير جديد أيضا لمعضلة مصدر هذه "الآلام" ولم تعد القضية تتلخص فى أخطاء العبريين إزاء يهوه الذى اختارهم، ولا فى كونهم صاروا "يخدمون إلها غريبا، بل فى عوامل ذات مجال ومغزى إنسانيين عامين. وكان العامل الرئيسى بينها فى مسلمة بولس أسطورة العهد القديم حول خطيئة أدم التى كان يجب على ابن الرب أن يتعذب على الصليب للتكفير عنها (روما، ١٣/٥ – ١٩). من الصعب عرض المفهوم المرتبط بمبدأ المسيحية هذا فى صيغة ذات تتابع منطقى. من وجهة نظر التفكير السليم، كل شىء هنا غير منطقى ابتداء بالتعاليم حول خطيئة أدم وحواء وانتهاء ، بتاريخ التكفير عنها. ومع ذلك صاغت رسائل بولس وثبتت هذا المفهوم فى مسيحية القرن الثانى والأزمنة اللاحقة.

ثمة أدبيات ضخمة مكرسة لمسألة صحة رسائل بولس وتاريخيتها. أن الجناح الأكثر راديكالية فى المدرسة الميثولوجية يعتبر بولس، شأن المسيح وتلاميذه جميعا، من الشخصيات الميثولوجية وفى اعتقادنا أن هذا الحل غير معلل بصوزة كافية. أن الرقم "١٢"، والحق يقال، يحمل ولا شك طابع رمز منتشر على نطاق واسع جدا فى الأديان القديمة ولاسيما اليهودية. ويكفى أن نتذكر أبناء يعقوب الإثنى عشر، وبالتالى الأسباط الإسرائيلية الإثنى عشر. ولكن مما لا يثير الشك واقع أنه اضطلع بدور كبير فى نشر المسيحية الأولى الدعاة المتجولون الذين نشروها فى كل منطقة البحر الأبيض المتوسط وجندوا معتنقى الدين الجدد وأسسوا المشاعيات. ولا يهم من حيث الجوهر ما إذا كان بينهم أشخاص

حملوا تلك الأسماء. "نفسها"، أو أن هذه الأسماء اطلقت عليهم فيما بعد لإحاطتهم بهالة من الهيبة. وفى الحالات التى تتوفر فيها مؤشرات تمنع مباشرة من الاعتراف بصحة هذا الاسم أو ذاك لا توجد مسوغات لنفيها. أما فى خصوص بولس، فلعله يتمتع بين كل الرسل بأكبر حق فى الاعتراف بتاريخيته.

وفى صدد الآخرين يمكن أن تكون الشكوك مرتبطة قبل كل شىء فى أن الأناجيل تخصص لهم دور رفاق وزملاء للمسيح. وإذ نعتبر الأخير شخصية أسطورية، نطلق بدرجة من الدرجات الصفات نفسها على "رفاقه" أيضا. وبالنسبة إلى بولس يختلف الأمر بعض الشىء. إنه لم "ير ويسمع" المسيح إلا فى نشوة روحية قد تكون إفرازا للهلوسة. وتبدو شخصية بولس ونشاطه فى المراحل الحاسمة من سيرته قريبين إلى الواقع. ولا توجد أسس للتشكيك فى وجود ومواعظ شخص عاش فى أواخر القرن الأول والعقود الأولى من القرن الثانى، هذا المعتنق التمعصب والموهوب للدين الجديد الذى لم يؤسس مشاعياته فى منطقة كبيرة من حوض البحر الأبيض المتوسط فحسب، بل نظم تعاليمه أيضا. ويمكن، طبعا، أن يدعى بولس، أو أن يدعى، على الطريقة العبرية سافل أو ساول، والتسليم بهذا لا يعنى، بالمناسبة، الاعتراف بالصحة التاريخية لكل تفاصيل سيرته التى تتحدث عنها الأعمال والرسائل. ولا يوجد أيضا أى شىء غير معقول فى أن بولس كان مؤلفا لرسائل توجه بها إلى الطوائف المسيحية أو زعمائها.

الهوامش:

(1) H. Barbusse. Jesus. Paris, ١٩٢٧; Les jude de jesus. Paris, ١٩٢٧.

راجع مختزل للمناقشة بين أ. لوناتشارسكى وأ.فيدبنسكى فى رأى أ.ف. لوناتشارسكى فى اللادينية والدين. موسكو، ١٩٧٢، ص٢١٨ – ٢٥٨.

(٢) من تاريخ المسيحية المبكرة. مجموعة مقالات. موسكو، ١٩٠٧، ص ٦٨ –٦٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الاستشهاد من :

E. Barnikol. Das Leben Jesu der Heils – geschichte. Halle (Saale), ١٩٥٣, S. ١١٤.

(٥) أ. نيموييفسكى. الآلة يسوع. منشأ الأناجيل وبنيتها فيتوغراد، ١٩٢٠، ص٢٩.

(٦) " نسيبرسكيى أوغنى"، ١٩٢٦ ، العدد ٤، ص١٢٩.

(٧) المصدر السابق، ص١٣١.

(٨) غ.ف. كسينوفونتوف. المسيح والشامانية والمسيحية أركوتيك، ١٩٢٩، ص١٢٦.

(٩) المصدر السابق. ص١٣٠.

(١٠) E. Renan. Vie de Jesus. Paris, ١٩٧٤, P. ٢٨٣.

(١١) E. Schurer. Geschichte des judischen. volkes im Zeitalter Jesus christus. Leipzig, ١٩٠١, Bd. ١, S. ٥١٩.

(١٢) Ibid., S. ٥٢٤.

(١٣) Ibid., S. ٥٢٥.

(١٤) Ibid. , S. ٥٣٠.

(١٥) Ibid., S. ٥٣٤.

(١٦) J.A. Thompson. The Bible and Archaelogy. Grand Rapids, ١٩٧٣, p. ٣٦٢.

(١٧) Ibid. , p. ٤٤٢.

(١٨) Ibid. , p. ٣٦١.

(١٩) G. Schneider. Einfurnug in das Neue Testa ment. Neukirchen, ١٩٦٩, S. ٤٧.

(٢٠) A. Schweitzer. Geschichte der Lebel – Jesu – Forschung. Munchen und Hamburg, ١٩٦٦, Bd. ٢, S. ٦٢٠.

(٢١) Ibidem.

(٢٢) Ibid. , S. ٦٢٠, ٦٢١.

(٢٣) Ibid., S. ٦٢١.

(٢٤) Ibidem.

(٢٥) W. Kummel. Die theologie des Neuen Testa – ments nach seinen Hauptzeugen, Gettingen, ١٩٦٩, S. ٢٠–٢١.

(٢٦) M. Kahler. Der sogenannte historische Jesus und der Geschichtliche bibliche christus. Tubingen ١٨٩٢.

(٢٧) Studia Religioznawcze, ١٩٧٧, N ١٢ , s. ٧٧

(٢٨) "Der Spiegel", ١٩٦٦, Nr. ١٦, S. ٨٤ – ٨٦.

(٢٩) W. kummel, op. cit. , s. ٢٢.

(٣٠) Ibidem.

(٣١) Ibidem.

(٣٢) Ibid. , S. ٢٤.

(٣٣) ل. فيختفا نغير. الأبناء. موسكو، ١٩٣٨، ص٣٠٩.

(٣٤) المصدر السابق.

(٣٥) المصدر السابق.

(٣٦) المصدر السابق، ص٣١٠.

(٣٧) المصدر السابق، ص٣١٢.

(٣٨) ك. ماركس وف. إنجلس. المؤلفات، المجلد ١٩ ، ص٣٠٧.

(٣٩) غاى سفيتونى ترانكفيل. حياة الملوك الاثنى عشر. موسكو، ١٩٦٤، المجلد ١، ص١٤٠.

(٤٠) كورنيلى تاتسيت. المؤلفات بمجلدين. لينينغراد، ١٩٦٩، المجلد ٢، ص ٣٠٠.

(٤١) الاستشهاد من :ن.ف. رومیانتسیف. يوسف فلافيوس يتحدث عن يسوع ويوحنا المعمدان. "اتيئيست"، ١٩٢٩، العدد ٣٦، ص٣٨.

(٤٢) اربع، نشرة التاريخ القديم، ١٩٧٣، العدد ٢ ، ص١٨٠.

(٤٣) نصوص كومران. الإصدار.، موسكو، ١٩٧١، ص١٥٤.

(٤٤) المصدر السابق.

(٤٥) Pismo swiete Starego y Nowego Tescarento. Posnan, ١٩٦٥, S. ٣٤.

(٤٦) أ.د. خفولسون. هيغل وعيكيل وكوسوف والوصية الثانية عشرة. سان بطرسبورغ، ١٩١١.

(٤٧) A. France. Le procurateur de Yudee. P., ١٩٠٢.

(٤٨) Ibidem.

(٤٩) Ibidem.

(٥٠) Ibidem.

(٥١) ن.م. نيقولسكي. يسوع والمشاعيات المسيحية الأولى. موسكو، ١٩١٨، ص٣١.

(٥٢) المصدر السابق، ص٣٦.

(٥٣) المصدر السابق، ص٤٠.

(٥٤) المصدر السابق، ص٣٥.

(٥٥) ز

(٥٦)

(٥٧) H. Barbusse. Les Judas de Jesus. Paris, ١٩٢٧, p. ٨٢.

(٥٨) Ibid. , p. ٥٦ –٥٧.

(٥٩) Ibid., p. ٥٥.

(٦٠) Ibid., p. ٧٠.

(٦١) Ibid. , p. ١١٤–١١٥.

(٦٢) Ibid. , p. ٦٩–٧٠.

(٦٣) Ibid., p. ٧١.

(٦٤) Ibid., p. ٨٠, ٦٨.

(٦٥) Ibid., p. ٩٢.

(٦٦) A. Robertson. The Origins of Christi – anity. London, ١٩٦٢, p. ٩٣.

(٦٧) Ibid., p. ٩٥.

(٦٨) Ibid., p. ٩٦

(٦٩) Ibidem.

(٧٠) أ. روبيرتسون. منشأ المسيحية. موسكو، ١٩٥٩، ص٢٩٦.

(٧١) A. Robertson. Op. cit., p. ٨٨.

(٧٢) أ.روبيرتسون. منشأ المسيحية. ص١٣٥.

(٧٣) الاستشهاد من. أ.ب. رانوفيتش. حول المسيحية المبكرة. موسكو، ١٩٥٩،ص٢٤١.

(٧٤) A. Robertson. Op. cit., p. ٧٤.

(٧٥) Ibidem.

(٢٦) Ibidem.

(٢٧) A. Revill. Vie de Jesus. P., ١٨٩٧, p.٢٠٠.

(٧٨) الاستشهاد من. ن.فـ. رومیانتسیف. هل عاش المسيح ؟ موسكو، ١٩٣٧، ص٩.

(٧٩) G.Boissier. La religion romaine d'August aux Antonius. P., ١٩٠٦, T.٢, p.١٢٢ –١٢٣.

(٨٠) Ibid., p. ١٢٤.

(٨١) Ibidem.

(٨٢) M. Bruckner. Der sterbende und aufer – stehende Gottheiland in den orientalischen Rligionen und ihr Verhaltniss zum Christentum. Tubingen, ١٩٠٨.

(٨٣) ك. ماركس وفـ. انجلس. المؤلفات المجلد ١٩، ص٣٠٩.

(٨٤) أيسا دى كيروش. الأثر. موسكو، ١٩٦٣، ص٢١١.

(٨٥) A. Robertson. Op. cit., p. ٧٦–٧٧.

(٨٦) A. Drews. Die Leugnung der Geschichtlich – keit Jesu im Vergangenheit und Gegenwart. Karlsruhe, ١٩٢٦, S. ٢١٥–٢١٦.

(٨٧) مؤلفات القديس يوستينوس الفيلسوف والهشيد. موسكو ١٨٩٢، ص٢٨.

(٨٨) C.F. Volney. Les ruines ou meditations sur les revolutions des empires. P., ١٧٩١; Ch. Dupuis. Abrege de l origine de tous les cultes ou la reli – gion universelle. P., ١٧٩٤.

(٨٩) B. Bauer. Kritik der evangelischen Geschi – chte der sinoptiker und des Johannes. Bd. III. Braun Schweig, ١٨٤٢.

(٩٠) ك. ماركس وف. انجلس. المؤلفات المجلد ١٩، ص٣٠٧.

(٩١) A. Hoekstra. De christologie van het cano nische Marcusevangelie Amsterdam, ١٨٧١.

(٩٢) A. Pierson. De Bergrede en andere Fragmenten. Amsterdam. ١٨٧٨.

(٩٣) C. Nader . Nuculae . Amsterdam, ١٨٨٨.

(٩٤) G. A. Berg van Eysinag van den. Die hollandische radicale kritik des Neuen Testaments. Jena ١٩١٢.

(٩٥) J. Robertson. Christianity and Mythology L., ١٩٠٠; The Jesus Problem. L., ١٩١٧. W. B. Smith. Ecce Deus. Jena, ١٩١١.

(٩٦) A. Kalthoff. Das Christusproblem. Jena, ١٩٠٢. S. Lubinski. Die Entstehung des Christentums aus der antiken Kultur. Jena, ١٩١٠ . A. Drews. Die Christusmythe. Jena, ١٩٠٩ ; Die Entstehung des Christentums aus dem Gnostizismus. Jena, ١٩٢٤ ; Das Marcusevangelium als Zeugnis gegen die Geschichtlichkeit Jesu. Jena ١٩٢١ ; Der Sternhimmel in der Dichtung und Religion der alten Volker und des Christentums. Jena, ١٩٢٣.

(٩٧) ف. أ. لينين . المؤلفات الكاملة . المجلد ٤٥ ، ص ٢٨ .

(٩٨) راجع أ. دريفس. نفى تاريخية المسيح فى ا لماضى والحاضر . موسكو، ١٩٢٠ ، ص ١٠٥.

(٩٩) A. Niemoyewski. Filosofia zycia. Jeswza, ١٩٢٥; P. – L. Couchoud. Le mystere de Jesus. P., ١٩٢٤.

(١٠٠) ن.م . نيقولسكى. يسوع والمشاعيات المسيحية الأولى . موسكو ، ١٩١٨.

(١٠١) ر.ى . فيبير . نشوء المسيحية . موسكو، ١٩١٨ ننوه أيضا بمؤلفين آخرين لهذا العالم مرتبطين بالقضية المسيحية : نشوء الأدب المسيحى . موسكو – لينينجراد ، ١٩٤٦ ؛ روما والمسيحية المبكرة . موسكو ، ١٩٥٤.

(١٠٢) نيمويفسكى . الإله يسوع : لينينغراد ، ١٩٢٠ ؛ فلسفة حياة يسوع. موسكو، ١٩٢٣.

(١٠٣) أ. دريفس. أسطورة المسيح. المجلدان ١–٢ موسكو، ١٩٢٤، هل عاش المسيح ؟ موسكو، ١٩٢٨.

(١٠٤) ش. فيروليو. أسطورة المسيح. موسكو، ١٩٢٣، أ. موتييه – روسية – هل وجد يسوع المسيح ؟ موسكو، ١٩٢٩، ب.ل. كوشو. غروب الإله. موسكو، ١٩٢٩. لغز المسيح. ريازان، ١٩٢٣، أ. غيرتلين. ماذا نعرف عن يسوع ؟ موسكو، ١٩٢٥، غ. برانديس. أسطورة المسيح. موسكو، ١٩٢٠ ، ك.ف. فولنيه، الأطلال أو خواطر عن ثورات الإمبراطوريات. موسكو، ١٩٢٨.

(١٠٥) أ. باربيوس. يسوع ضد المسيح. موسكو، ١٩٢٨.

(١٠٦) أ. روبيرتسون. منشأ المسيحية. موسكو، ١٩٥٦، الطبعة الثانية– موسكو – ١٩٥٩.

(١٠٧) ن.أ. موروزوف. المسيح. المجلدات ١–٧ موسكو، ١٩٢٤ –١٩٣٠.

(١٠٨) ن. ف . رومیانتسیف. مسیح ما قبل المسیحیة. موسکو، ١٩٢٦. موت المخلص وقيامته. موسكو، ١٩٢٥. هل عاش المسيح ؟ موسكو، ١٩٣١. أ.ب. رانوفيتش. حول المسيحية المبكرة. موسكو، ١٩٥٩. س.أ. كوفالوف. المسائل الأساسية لمنشأ المسيحية موسكو – نينينغراد ،١٩٦٤ ، ی.أ. لينتسمان . منشأ المسيحية. موسكو، ١٩٥٩.

(١٠٩) أ.س. سفينتسيسكايا. من المشاعية إلى الكنيسة. موسكو، ١٩٨٥.

٣- القضية المسيحية فى الأديان اللاهوتية والتاريخية المعاصرة

" انحلال الصورة "

إن الكتاب المعاصرين للمؤلفات المسيحية اللاهوتية يعترفون كلهم تقريبا إلى هذه الدرجة من الاستعداد أو تلك باستنتاج جلي تماما مفاده أن كل محاولات بعث صورة المسيح التاريخية قد انتهت بالاخفاق من حيث الجوهر. وصار من المألوف تماما للاهوتيين الذين لا يتطرق الشك إلى تقواهم وورعهم المسيحي التحدث عن إنحلال صورة المسيح.

إن ألبيرت شفيتسير، الذى اشتهر، والحق يقال، كانسانى وشخصية اجتماعية أكثر مما اشتهر كلاهوتي، ولكنه كان على أى حال معروفا بما فيه الكفاية فى هذا المجال الأخير أيضا، قد أورد نتائج محزنة لكل محاولات بناء صورة وسيرة للمسيح. "ليس ثمة ما هو أكثر سلبية من نتائج الأبحاث فى حياة المسيح"(١). ونبدى مسبقا هذا التحفظ، وهو أن التفسير اتخذ فى مسألة تاريخية المسيح موقفاً غير محدد وغير مفهوم تماما. ولكن على أى حال تعود إليه بالذات التصريحات الحاسمة التالية: "إن يسوع من الناصرة الذى برز كمسيح ودعا إلى أخلاق ملكوت الله وأسس ملكوت السماوات فى الأرض ومات ليقدس نشاطه لم يوجد أبدا. أنه صورة نبذها العقل وبعثتها الليبرالية ويحورها اللاهوت المعاصر بواسطة علم

التاريخ". ولا يتراجع اللاهوتي المسيحي شفيتسير حتى أمام هذا الواقع المحزن القائل بأن "أساس المسيحية التاريخي، كما أرساه اللاهوت العقلاني والبيرالي والمعاصر لم يعد له وجود"(٢). هذا مع العلم أنه يبدى هنا تحفظا يقول بأنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أن المسيحية فقدت أسسها التاريخية عموما. ولكنه لا يرى هذه الأسس في شخصية يسوع المسيح إنها انحلت تلقائيا وليس بتأثير عامل خارجي (٣) وحل ذلك، حسب رأى شفيتسير، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، حينما عمل فى الأدب والفكر الاجتماعى المنورون الفرنسيون والعقلانيون الألمان والربيون الإنجليز. حينذاك جوبه نشاطهم الانتقادى بأشد مقاومة من جانب المؤسسات الكنسية وعلى صفات المؤلفات اللاهوتية. والآن تغير الوضع بمعنى أنه حتى انصار نشاط الإيمان المسيحى مضطرون إلى الاعتراف بعقم محاولات بناء صورة صحيحة تاريخية للمسيح.

لابد من الموافقة على عدم إمكان الركون إلى المصدر الأساسى الذى يمكن أن يبنى عليه شيء ما فى هذا الشأن، أى الأناجيل. يورد اللاهوتى البروتستانتى أرنيست بارنيكول موجزا للنصوص الإنجيلية التى يعتبرها أغلب الباحثين غير أصلية حشرت فى أوقات متأخرة. وهو يحسب فى إنجيل يوحنا ٢٦ نصا من هذا النوع وفى الختام يتوصل إلى استنتاج حول "عدم تاريخية كل ما هو متفرد تقريبا" فى هذا الإنجيل. ولكنه يتكشف فيما بعد على أن الوضع ليس أفضل بالنسبة إلى الأناجيل المتشابهة الثلاثة. يحسب بارنيكول قرابة ٤٠ نصا "غير تاريخى" فى الأناجيل الثلاثة الأولى (٤). ويعطى مجلة "شبيغيل" الألمانية الغربية مختارات أقوال يسوع وكلماته المأثورة التى تتحدث عنها الأناجيل، والتى يعتبرها أغلب اللاهوتيين اللوثريين منحولة. ويبلغ عددها، وفق أقل الحسابات، قرابة خمسة

عشرة وبينها مما له أهمية مبدئية "لا تعطوا الكلاب ما هو مقدس"، "افعلوا للناس ما تريدون أن يفعلوه لكم" "من رفع نفسه وضع" وتنكر أيضا صحة النص التي تعلل به الكنسية الكاثوليكية ادعاءها الزعامة في العالم المسيحي. "أنت صخر، وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي..." وكذلك تنكر تماما أخبار الأناجيل حول بعض المشاهد من حياة يسوع المسيح، ولاسيما قصة مقتله. يكتب، مثلا، اللاهوتي الكاثوليكي كارل شبلكلي أن "أخبار أيام المسيح الأخيرة تشكل ترسبا لا يذوب في التفسير التاريخي واللاهوتي، الأمر الذي لا ينكره الآن حتى اللاهوتيون المحافظون"(٥)

تعطي انطباعا كوميديا بعض الشيء بيانات الصحافة اللاهوتية حول "الاكتشافات" الأخيرة التي تطرح أمام اللاهوت قضايا حادة جديدة. اتضح أن هـ كونتسيلمان ثبت أن الأخبار الإنجيلية عن محاكمة يسوع ليست موثوقة" وتوصل هانس بارتش إلى أن وصف استجوابه هو " أقوى مشهد روائي، أي مجرد أدب حاذق. واكتشف يوسف غايسيلمان أن المحاكمة كلها خطأ متواصل. وحتى أن مارتين ديبيليوس وهانس فرابخير "ثبتا أسطورية الحبل بلادنس" (٦). ويصور الآن بمثابة إنجاز للفكر اللاهوتي في يومنا ما كان قد عالجه شتراوس وبرونوباوير بصورة دقيقة ورائعة من حيث المستوى العلمي، وما حلله واستوعبه على نحو شامل في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين منظرو المدرسة الميثولوجية. د. روبيرتسون، أ. كالتغوف. أ. دريفس، أ. نيسموييفسكي وآخرون.

يصعب تصور أن أقطاب اللاهوت المسيحي المعاصر لم يكونوا يعلمون بالعمل الكبير الذي أنجزه النقد التاريخي للعهد الجديد، أي بنتائجه. يبدو لهم، كما هو واضح، أن من الأجدى لهم اتخاذ الموقف الذي يبرزون فيه كرواد تضعنا مؤلفاتهم الآن فقط أمام ضرورة

إعادة تقدير القيم. وإلا ينجم أن أيديولوجيي المسيحية صمتوا إلى الآن، وأخفوا عن رعاياهم نتائج هامة وحاسمة من حيث الجوهر للأبحاث العلمية... ولابد، وأن كان بتأخر كبير، من الاعتراف في نهاية المطاف بحقائق مزعجة جدا، وتعبق برائحة "الفتنة"، من وجهة نظر الإيمان الكنسي.

يمكن العثور على مجموعة كبيرة من تصريحات اللاهوتيين القائلين بأننا الآن لا نعرف شيئا عن يسوع من حيث الجوهر وأصحاب هذه التصريحات يتخذون، كقاعدة عامة، مواقف تاريخية مؤسس المسيحية، ولكنهم يعترفون صراحة بأنهم لا يستطيعون قول شيء عنه. في عام ١٩١٠، في المؤتمر العالمي للمسيحية الحرة والتقدم الديني، ذاد بوسيه عن تاريخية المسيح، مسميا النظرية الميثولوجية "طوباوية دحضتها معطيات العلم"، ولكنه قال في الوقت نفسه. "إن ما نعرفه عن حياته بترابط براغماتي شيء زهيد إلى درجة يمكن معها وضعه على صفحة ورق واحدة. وموعظة المسيح أو الإنجيل تشكل أحيانا نسيجا مشوشا من التقليد المشاعي، وربما من كلمات المعلم الحقيقية. (٧)

يعرض أ. دريفس على النحو التالي أراء مماثلة في صدد هذه المسألة يبديها اللهوتي – عالم التوراة الألماني ف. أراندت الذي يذود، شأن بوسيه، عن تاريخية المسيح. " لا توجد أية معلومات يعول عليها من حياة يسوع غير واقع موته وقيامته". وأشار براندت إلى أنه حتى قصة الأم يسوع ألفت بواسطة عناصر من العهد القديم والميثولوجيا.(٨).

إن ر. بولتمان الشهير، الذي أدانت الكنسية اللوثرية، والحق يقال، مفهومة العام في عام ١٩٥٢، يعلن بصورة قاطعة أننا لا نستطيع بأية درجة كانت من الثقة أن نعرف ما إذا كان أي من أقواله المأثورة قد صدر عنه فعلا (٩). يمكن طبعا، اعتبار هذا التصريح غير نموذجي

بالنسبة إلى الاهوت المعاصر عموما، فصاحبة على أى حال يعتبر هرطوقى التفكير. ولكن إذا توجهنا إلى مطبوع شبه رسمى للكنيسة الإنجيلية، وهو موسوعة " الدين فى التاريخ والحياة المعاصرة" "die religion in geschichte und gegenwart " نجد فيها وجهة النظر نفسها تقريبا.

ينظر إلى مراحل سيرة يسوع هنا بمثابة محصلة " لتحرير ثان، أدبى" للأناجيل. ويستنتج من هذا أنه "أصبح من المستحيل أكثر تحديد تتابع أحداث حياة يسوع وكتب سيرته ورسم صورته". والاستشهاد التالى عبارة عن عرض موجز لاستنتاجات "المدرسة الشكلية – التاريخية"، ولكن مؤلف المقالة لا يبدى إجمالا تبرؤه من هذه الاستنتاجات. "وهكذا، يتبدد بالنسبة لي الجزء الأكبر من التقليد إمكان استخدامه من أجل تثبيت بعض جوانب حياة يسوع بدقة. لم نعد نعرف تتابع الأحداث، ولم نعد بالدرجة الأولى نستطيع إعادة بناء تطورها الخارجي والداخلي. ليست الأناجيل وحدها وثيقة دينية، بل وبعض عناصر التقليد. ولهذا لا تشكل أية أهمية بالنسبة إلى "البورتريت". لا شيء معروف عن المظهر الخارجي ليسوع، ولا عن طبعه الإنسانى وعاداته، ولا عن حياته اليومية. وتحديد طابع التقليد هذا يخص قيمة المغزى السيكولوجي – البيوغرافى للجزء الأكبر من المادة. وينطبق هذا بشكل خاص على مشاهد التجلي الإلهي، أنها لا تشير بشيء إلى حالة يسوع الداخلية، بل هي مبنية على أساس إيمان الطائفة، على أساس أفق ما بعد الفصح (جرى صلب المسيح، حسب التقليد المسيحي، في عيد الفصح العبرى – أ.ك.) والشيء نفسه بالنسبة إلى التنبؤات بالآلام. إنها لا تعطى توضيحا كافيا للوضع، وهى أقرب إلى أقوال دوغماتية عن حتمية الآلام كما تصورت الطائفة الأمر بعد موت يسوع" (١٠).

تعرض فى الاستشهاد المذكور استنتاجات لاهوتيي المدرسة الشكلية – التاريخية التى يعتبر ك. شميدت وم. ديبيليوس ور. بولتمان إياه أبرز ممثليها. إن الموسوعة البروتستانتية لا تنفى هذه الاستنتاجات، ولكنها تحاول فورا أضعاف مغزاها بعض الشيء. أنها تفتش عن "نقاط ارتكاز متينة". وهى ترى هذه النقاط فى الأقوال الإنجيلية التى لا تدخل التفكير

اليهودي ولا أراء الطائفة في وقت متأخر. لا يسعنا إلا اعتبار هذه "النقاط" مبهمة، والاعتماد عليها ليس بالمتين.

يعطي ب. التهاوز نصير شهير لتاريخية المسيح تقديرا انتقاديا بما فيه الكفاية لحالة مصادر قضية دراسة المسيح. وهو لا يجد في إنجيل يوحنا إلا "خواطر لاهوتية" بالأسلوب الغنوسطي، وأقوال المسيح التي يوردها يوحنا ليست Verba ipsissima (كلمات خاصة ليسوع – أ.ك.)، بل هي "رد الإيمان" على ظروف حياة إنسان إله لا نعرفها أيضا. وفي الأناجيل الثلاثة الأولى أيضا ليس الأمر تاريخيا تماما. فأخبارها، كما يقول مستشهدا بالبولتماني بورتكام، ينبع من تعاليم دينية أو، على الأقل، من تشابك مع التعاليم الدينية". وإجمالا تضع تقليد الأناجيل الأربعة أمامنا معضلات صعبة وحتى مسألة ما إذا كان قد عاش يسوع في الناصرة" (١١).

على اللاهوتيين أن يحلوا هذه المعضلات الصعبة، مع العلم أن الصعوبة الرئيسية تكمن في أنه يستحيل حلها عن طريق الاعتراف المباشر والشريف بأسطورية المسيح، إذ ينهار في ظل هذا الاعتراف أساس المسيحية الدوغماتي.

إن ف. كيونيت. ، رجل الكنيسة اللوثرية المحافظ، يقدر على النحو التالي الوضع الذي ينشأ في صدد ميل أنصار المذهب الحديث البولتمانيين وغيرهم إلى نفي مراحل من سيرة المسيح، مثل مقتله وقيامته. "نحن نطرح هذا السؤال البسيط. ما الذي يبقى عندئذ من الفصح (يقصد مجموعة الأحداث الإنجيلية المرتبطة بصلب المسيح وقيامته في عيد الفصح – أ.ك.) ؟ من وجهة نظر هؤلاء اللاهوتيين الوجوديين لا يبقى شيء بالمرة. لا شيء على الإطلاق ! ويصر كيونيت على أن "قيامة المسيح هي أساس المسيحية الذي يقوم عليه كل شيء، كل الواقع الفعلي الواقعي (١٢). ويصوغ هذا الخيار. "أما النفي، وعندئذ تصل نهاية اللاهوت المسيحي، نهاية الكنيسة المسيحية، وأما الاعتراف". إذا كانت تطرح مسألة قيامة المسيح بهذه الحدة، فمن باب أول أن ينطبق هذا على وجود يسوع المسيح نفسه. يقول أ. خايتش في صدد مفاهيم أنصار المذهب الحديث في دراسة المسيح. "إذا كان هذا مشروعا من وجهة نظر اللاهوت المسيحي، فلا توجد أية مسوغات

لأن نبقى مسيحيين" (١٣). ولكي نبقى مسيحيين ينبغي التمسك مهما كلف الأمر بالمسيح التاريخي مع كل عناصر السيرة الإنجيلية وصولا إلى القيامة والصعود. يلخص أ. بارنيكول على النحو التالي وجهة نظر البروتستانتية المحافظة في صدد هذه المسألة. "بدون" حياة يسوع" (يقصد سيرته – أ.ك.) لا يوجد "يسوع" وبدون "يسوع" لا توجد التقوى المسيحية (christlichkeit) (١٤) يجب أن تحل القضايا الدينية على تربة دراسة المصادر العلمية بشكل شامل والنقد السلبي والإيجابي، ولكن شريطة المحافظة على التقوى المسيحية القائمة على الإيمان الراسخ بالمسيح التاريخي وبإمكان وضع سيرة صحيحة له.

التشبث مهما كلف الأمر !

إن أكثر أوساط اللاهوتيين والكنسيين رجعية لا تصر - على بقاء الإيمان بيسوع وحده، بل وبالمعجزات التى اجترها. بالشفاء، وبإحياء الموتى، وبقيامته وصعوده، وبخلق روح القدس لمعجزة ولادة الإنسان الإله عن طريق الحبل بلا دنس. وهى غير موافقة على اعتبار أىّ كان مسيحياً بدون الاعتراف بوجود "القبر الخالى" (المقصود "قبر الإله" الذى فرغ بعد أن غادرة. المسيح الذى قام).

لقد قام الغيورون على التزمت المسيحي فى ألمانيا الاتحادية بحركة كاملة موجهة ضد أية تنازلات للمذهب الحديث فى مسألة المسيح، لا بالنسبة إلى تاريخيته فحسب، بل وبالنسبة إلى الخوارق المرتبطة بولادته وحياته وموته. وهى تحمل اسم "الحركة المذهبية - ولا أى إنجيل أخر ! وشخصياتها ليست من رجال الدين واللاهوتيين فحسب، بل من المؤمنين البسطاء أيضا. وتعقد "الحركة" اجتماعات حاشدة تلقى فيها كلمات طنانة موجهة ضد البولتمانيين وغيرهم من أنصار الإلحاد، كما يسمونهم. وبواسطة تعبئة أكثر عناصر "الطائفة" جهلا وتعصبا يمارس ضغط على قيادة الكنيسة لكى لا تقوم بتنازلات أمام "الأنفاس الجديدة" فى علم دراسة المسيح. أما القيادة فتضطر إلى المناورة، فهى لا تستطيع الإقدام على ما يسبب تردى العلاقات الحاد بالأوساط المحافظة لرعيتها و الكنيسة نفسها، ولكنها، من الجهة الأخرى، لا تستطيع تجاهل الانتقاد العلمى لأقوال " الأناجيل" الوضع معقد طبعا...

والعناصر المحافظة أكثر قوة فى علم دراسة المسيح الكاثوليكى.

منذ أكثر من سنة أكد المجمع المسكونى الفاتيكانى الأول للكنيسة الكاثوليكية (أعوام ١٨٦٩ -١٨٧٠) بأكثر التعابير حزما الصلة التى لا تنفصم بين الكاثوليكية وبين الاعتراف لا بتاريخية يسوع فحسب، بل وبتاريخية معجزاته كلها. ولابد من اعتبار الأخيرة، كما جاء فى قرارات المجمع، صحيحة تماما وتتفق وقوة الاعتقاد بسمات الوحى الإلهى. ومنع المجمع، مهددا بالحرمان من الكنيسة، تفسير المعجزات الإنجيلية بمثابة "أساطير وخرافات". وفى بداية هذا القرن أدان الفاتيكان باشد ما يكون من الحدة المذهب الحديث باعتباره هرطقة يؤدى اعتناقها بالمسيحى إلى الهلاك الأزلى لا محالة، وحرم مؤسسو وأيديولوجيو المذهب الحديث وعلى رأسهم أ. لوازى من الكنيسة. بيد أن أنصار المذهب الحديث لم يرفضوا إلا الإيمان بالمعجزات المرتبطة باسم يسوع، لا الإيمان بالوجود التاريخى لمؤسس المسيحية نفسه. ولا تزال إدانة المذهب الحديث سارية المفعول إلى الآن، وتوجه إليه بانتظام صيغ الاستنكار والفضح.

فى المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى (أعوام ١٩٦٢ - ١٩٦٦) لم يكن الاعتقاد بالاجماع كما كان سابقا. لقد اتخذت مجموعات كبيرة ومتنفذة من رتب الكنيسة الكاثوليكية مواقف أكثر مرونة، مسلمة بإمكان المنارة وتاركة مجالا لهذا، ولكن عمل هناك أيضا الجناح المحافظ برئاسة الكاردينال أوتا فيانو الذى اتخذ موقفا متشددا فى المسائل المذهبية الأساسية، ومن بينها قضية علم دراسة المسيح.

بعد المجمع تابع الجناح المحافظ للكنيسة الكاثوليكية الحرب. وأثار هجمات ضارية كتاب تعليم كاثوليكى ذو اتجاه حديث واضح صدر فى هولندا عام ١٩٦٦. ولكن الأساقفة الهولنديين الذين صدر الكتاب بمباركتهم أبدوا حذرا معينا، وذلك على وجه التحديد إزاء الأساطير الإنجيلية المرتبطة بشخصية المسيح. وتقدموا برسالة دعوا فيها كل المسيحيين إلى الاحتراس الشديد فى الأبحاث اللاهوتية وفى المواعظ. وبعد عدد من التصريحات الغامضة والضبابية حول حتمية بعض التغييرات فى حل بعض القضايا المذهبية، تأتى المواعظ الموجهة إلى أنصار المذهب الحديث الطائشين بعدم الشرع فى التنازلات للنقد العلمى،

وبعدم زعزعة أسس الإيمان المسيحى. ويطالب الأساقفة بتدعيم الإيمان الكنسى، ولا سيما فى المسائل الجوهرية للمسلمات، ويعترفون التعاليم حول طبيعة المسيح الإلهية. وحول ولادته عن طريق الحبل بلا دنس وقيامته. الحديث يجرى أيضا وأيضا حول برنامج حد أقصى للإيمان بالمسيح، لا الإنسان بل الإنسان الإله مع كل أعماله الخارقة التى يعزوها إليه العهد الجديد.

يذود عن برنامج الحد الأقصى هذا الكاردينا أوتافيانو بحربجية خاصة. فقد نشر فى تموز (يوليو) عام ١٩٦٦ بصفته رئيس لجنة الإيمان فى الفاتيكان رسالة إلى الأساقفة وغيرهم من وجهاء الكنيسة الكاثوليكية صاغ فيها لائحة من عشر نقاط تستحق التنديد. وإحدى نقاط هذه اللائحة موجهة ضد تلك الأراء التى تضع المسيح فى حالة إنسان بسيط لا يدرك أنه ابن الله إلا بالتدريج، ويعزى الحبل بلا دنس والمعجزات الإنجيلية وحتى القيامة إلى أحداث طبيعية صرف. إن الكاردينال لا يستطيع حتى الاعتراف بأن المسيح كان مجرد شخص وجد يوما. فما شأنه والحالة هذه بالأبحاث العلمية فى هذا الميدان ؟!

هل الأبحاث العلمية ضرورية أو ممكنة فى ظل طرح كهذا ؟ إن "الغيورين" الحربجيين يدركون أنهم لا يستطيعون منعها، وليس فى وسعهم غلا أن يضعوا لها أطرا لا تشكل خطرا على الإيمان والتقوى.

ها هو، مثلا. المؤرخ الفرنسى ح. كولين قد عكف على مسألة محاكمة يسوع المسيح. إنه يحاول البرهان بواسطة عدد من المقارنات التاريخية والاثنوغرافية على أن بعض العناصر التى هى موضع شك إلى الآن فى هذه المحاكمة يمكن اعتبارها معقولة فى الواقع، وهذا ما ينطبق على مساهمة جمهور الشعب فى تقرير مصير المتهم، وكذلك الدور الذى اضطلع به أمير الربع هيرودس انطيباس فى إدانة يسوع. ولكن هذه الاستقصاءات لا تضر بالإيمان، بل على العكس، يمكن لها فى حال استخدامها كما يجب أن تعززه فقط....

ثمة "أبحاث" أقرب إلى مصالح الكنيسة، وهى التى على نمط مؤلف اللاهوتية الكاثوليكية أ. راتكى – خينيمان ، الأستاذة المساعدة فى كرس الدين ومناهج التربية الكاثوليكية فى مدرسة المعلمين العليا فى مدينة نايس. وقد وضعت هدفا لها البرهان على

أن أم الإله بقيت عذراء حتى آخر حياتها. ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هذا وبين واقع أن العهد الجديد يتحدث سبع مرات عن أخوة يسوع ومرة عن أخته ؟ هذه المسألة كانت غير مرة مادة نقاشات لاهوتية حادة. وحاولوا إيجاد مخرج في القول أن أخوة يسوع وأخته لم يكونوا أشقائه، لأنهم أتوا من زوجة يوسف الأولى، ولكن أوتا رانكي تشق بجرأة طرقا جديدة في هذه المسألة المحيرة.

يورد إنجيل مرقس أسماء أخوة يسوع، وهم يعقوب ويوسف ويهوذا وسمعان. ولكن في موضع أخر عند مرقس نفسه تسمى أم يعقوب ويوسف "مريم الاخرى" وكذلك في بعض النصوص الإنجيلية الأخرى. وفي أحد هذه النصوص أشير إلى أن حلفي، لا يوسف، هو أبو يعقوب. ولا يوجد أي موضع في العهد الجديد تحدث عن "أولاد مريم ويوسف" ومن المعروف، بالإضافة إلى ذلك، أن يسوع وضع أمه قبل الموت في كنف يوحنا. وهذا غير مفهوم إذا كان عندها أبناء غير يسوع نفسه. ولكن كيف نفهم عندئذ نص إنجيل لوقا. "فولدت ابنها الأول..." (١٥ ؟ هذه ترجمة بروتستانتية خاطئة في وسع الهراطقة – اللوثريين أن يكتبوا ما يشاؤون – لابد أن المقصود ليس "ابنها الأول " ، بل "البكر" هكذا يمكن أن يسمى الطفل يسوع بغض النظر عما إذا كانت مريم قد أنجبت أولادا آخرين. أنه، ولا شك، موضوع هام للبحث ! وهو جيد بشكل خاص لكونه قادرا على صرف الانتباه عن القضايا الأكثر أهمية وحدة المرتبطة بشخصية يسوع.

مهما كانت قوة اتجاه النفي العنيد لأية شكوك، ومهما ألحت أوساط المتعصبين الكنسيين واللاهوتيين المحافظة على ضرورة الإيمان الأعمى وبدون تفكير، فإن التطلع إلى التوفيق ولو بشكل من الأشكال بين الإيمان بالمسيح وبين معطيات النقد التاريخي واعتبارات العقل يكتسب كل يوم عددا متزايدا من الأنصار في المعسكر اللاهوتي. لننظر كيف يخرج من هذا الوضع الصعب كتاب آخرون ممن توجد مؤلفاتهم تحت تصرفنا.

يحاول بعضهم تطبيق أساليب الحجج التاريخية المألوفة إلى هذه الدرجة أو تلك، راغبين إلى جانب ذلك في تصفية الأزمة الصعبة التي ظهرت في نظرية علم دراسة المسيح. وهم يطرحون لهذه الأهداف عددا من الحجج في مصلحة تاريخية المسيح.

تتلخص أولى هذه الحجج فى كون الأناجيل، مهما كانت درجة الصدق التاريخى لأخبارها، قد بعثت جو فلسطين فى ذلك الزمن. وليست هذه بالحجة الجديدة. لقد أوردنا مرارا فى أحد الفصلين السابقين تصورات من هذا النوع. ثمة إحساس بحياة تتدفق، الأمر الذى يستحيل تخيله إلخ. إن ذاتية هذه التصورات واضحة.

ثمة فى الأناجيل والأقوال عدد من النصوص التى تناقض بمغزاها أراء الكنيسة المتأخرة، الباولينية. ينبغى، فى رأى عدد من اللاهوتيين، اعتبار أن هذه النصوص قد كتبت فى أعقاب يسوع مباشرة. والمقصود تلك المواضع فى الأناجيل التى تعكر مظهر المسيح كإنسان أو إله. فى الناصرة كان الإنسان الإله عاجزا فى اجتراح أية معجزة. وقد اختبأ عن أعدائه فى كفر ناحوم وأماكن أخرى. وأبدى تخاذلا على الصليب. وبعض أحاديث مؤسس المسيحية لا تبعث على الاحترام كثيرا. فيحنما أمر، مثلا، بعدم أعطاء "الكلاب ما هو مقدس" قاصدا بالكلاب كل من هم من غير العبريين (متى، ٦/٧)، أنكر أنه "صالح" واعتبر هذه الصفة تخص الإله الأب وحده (المصدر السابق، ١٧/١٩). يعتبر بعض اللاهوتيين أن وجود هذه المواضع بالذات يبين أنه يوجد فى أقدم نصوص العهد الجديد بذرة تاريخية يمكن اكتشافها إذا نبذت التراكمات المتأخرة. وهذا التصور أيضا لا يبدو لنا وجيها تماما. أن أقدم النصوص لا تشهد إلا على أن التصورات حول شخصية المسيح اجتازت تطورا معينا، ولكن لا ينجم عنها أن المرحلة الأولى من هذا التطور مرتبطة بانطباعات وذكريات عن إنسان فعلى.

ويعرب أيضا عن التصور التالى فلتكن هذه أساطير، ولكن الأساطير أيضا تشكل مصدرا لعلم التاريخ ! هذه الفكرة لا تثير اعتراضا بحد ذاتها، ولكن لا يمكن أن يستخلص منها استنتاج حول الوجود التاريخى للمسيح، كما يستحيل، انطلاقا منها، رسم صورة المسيح على أساس الأناجيل. فى بعض الحالات لا تعطى الأسطورة إلا مادة للحكم على العصر الذى ظهرت فيه، وعلى الوسط الاجتماعى الذى ألفها. ونحن هنا أمام حالة كهذه بالذات.

وأخيرا يطرح بمثابة حجة فى مصلحة تاريخية الروايات الإنجيلية كونها تعطى أطرا تسلسلية صارمة لحياة يسوع. توجد على الأقل، ثلاثة وقائع مرتبطة بمعالم زمنية معينة، وهى:

تعميد يوحنا ليسوع وبداية نشاطه فى الجليل وموته فى أورشليم. من المستبعد أن تستحق هذه "الحجة" حتى الدحض لأن أية أسطورة يمكن أن توضح فى أطر تسلسلية بدون أدنى ضمانة لحقيقة هذه الأطر.

ينبغي التوقف في هذا الصدد عند كتاب د. كارمايكل "موت يسوع" الذى صدر فى عام ١٩٦٣. ينطلق المؤلف من واقع أن الكثير من عناصر الأسطورة الإنجيلية يناقض التقليد المسيحى الذى نشأ فيما بعد، وهو يعتبر أن هذه العناصر بالذات تستحق الثقة بتاريخيتها. ولكن المؤلف يطلب الحذر إزاءها، لأنه عاش بعد موت يسوع جيل كامل قبل أن تكتب الأناجيل. بيد أن كارمايكل لا يقنع بالإعلان العام عن التراكمات المختلفة من حيث الزمن للأسطورة الإنجيلية، فيضع هيكلا من خمسة أطوار اجتازتها، فى رأيه، صياغة الأساطير حول المسيح. هذه الأطوار المتعاقبة ترمز إلى مختلف درجات ارتقاء يسوع التدريجى فى وعى اتباعه.

فى الطور الأول يولد يسوع على نحو متواضع وطبيعى فى أسرة فقيرة من الجليل. ثم جرى رفع شخصيته إلى مصف المسيح. وفى الطور الثالث أضيف إلى هذا منشأ ملكى. واتسم الطور التالى تصور طابع خارق لولادته، مما أسبغ على صورة المسيح طابعا إلهيا تقريبا. وأخيرا، تكتسب صورة المسيح فى الطور الخامس من تطورها فقط كل ملامح الألوهية، مع العلم أن كارمايكل يميز بين شكلين لتفسير هذه الشخصية الإلهية. فى إنجيل يوحنا وفى رسائل بولس.

لا يجوز أن ننكر على هذا المفهوم الاتساق والاكتمال المنطقى المتميز. والمصيبة كلها تتلخص فى أن المنطق هنا لا يدعمه تحليل تاريخى مقنع بما فيه الكفاية. يمكن تصور أن تطور شخصية المسيح جرى على هذا النحو بالذات، وأنه تراكمت فى الأناجيل بالتدريج نصوص وفق التتابع الذى أشير إليه فى "نضج" كل من الأطوار. ولكن يمكن بالنجاح نفسه افتراض التطور باتجاه معاكس. أن التناول التاريخى لا يتطلب تحديد ما كان من الممكن أن يحدث بقدر ما يتطلب تحديد يمكن القول عنه أنه ما حدث بالذات.

تتجاوب مع مفهوم كارمايكل بدرجة من الدرجات آراء اللاهوتي البروتستانتي الألماني المعروف تيليكي. ينطلق تيليكي في كتابه "أنا أؤمن، الذي صدر في عام ١٩٦٥، من مبدأ يقول بأن وجود عدد كبير من التناقضات والاختلافات في مؤلفات العهد الجديد لا يشكل برهان على تهافت هذه المؤلفات كمصادر تاريخية، بل على العكس، يشكل برهانا على صدق الأخبار عن يسوع الواردة فيها. إن مختلف الناس يدركون على نحو متباين الوقائع ذاتها. "حينما يتلقى أحد، مثلا، ضربة على وجه يسمع طنينا ويرى خطوطا مبرقشة... أحدهم يسمع حفيفا، والآخر صوت جرس، أحدهم يرى شرراً متقداً والآخر قوس قزح" (١٦). أما السبب الفعلي لهذه الانطباعات المختلفة، فهو واحد وقد حدث في الواقع. وتوجد، بالتالي، نواة تاريخية فعلية في الأخبار الإنجيلية المتضاربة والمتناقضة حول يسوع. ولكن كيفما هو الأمل في استيضاح جوهر ظاهرة تتحدث عنها المصادر كلها بصورة متباينة؟ من الواضح أنه يمكن من ناحية واحدة فقط، وهو أن شيئا قد حدث، ولكننا لا نعرف ما هو على وجه التحديد... ننوه هنا لأنفسنا بأن تناول اللاهوتي هذا لمسألة المصادر الأساسية للتعاليم المسيحية، مهما كانت نياته طيبة، يستأصل من الجذر المسلمات الكنسية حول الوحي الإلهي بالكتب المقدسة. وفي الواقع، فإن أحد مؤلفيها سمع طنينا والآخر رأى شررا متقدة..

يمارس تيليكي، على جانب نشاطه العلمي – المكتبي، دعاية جماهيرية واسعة. وقد ألقى سلسلة محاضرات في صالة رياضية لأحد أكبر الملاعب الألمانية الغربية، مع العلم أنه استطاع، كما تقول المجلة الكاثوليكية "خير دير كوريسبوندينتس"، عرض مفهومه بشكل أصبح معه في متناول كل فرد. وينبغي الاعتراف بأن التوصل إلى هذا لابد وأن يكلف اللاهوتي المعاصر عملا كبيرا، إذ تظهر في الصحافة على نحو متزايد شكاوى تفيد أن النظريات اللاهوتية لم تعد في المدة الأخيرة في غاية الصعوبة بالنسبة إلى مدارك "الطائفة" وحدها، بل وبالنسبة إلى طلاب اللاهوت. وقد استطاع تيليكي أن يذلل هذه العقبة بنجاح في نشاطه الدعائي. فما الذي قاله للمجتمعين في الصالة الرياضية ؟

لقد أعرض عن الأساطير الإنجيلية حول المعجزات. وفى رأيه أنها وضعت لاحقا بمثابة توضيح (bilderbuch) لنص موعظة يسوع للرسل، وبمثابة عرض لجبروت الإله. ولكن هذا لم يكن ضروريا، لأن المعجزات لا تعلل الإيمان، فالإيمان لا يعيش بالمعجزات، بل بكلمة الرب. وبالتالى، ينبغى تصور المسيح وفق هذه الكلمة الإلهية نفسها. وقد جرى هذا إلى الآن، فى رأى تيليكى، بصورة خاطئة، إذ كان كل جيل جديد يصوغ صورة المسيح فى ضوء آرائه الخاصة. منطلقا من "موضوع الساعة" الذى يعيشه.

يشكو تيليكى أن يسوع المسيح يعانى دوما على امتداد التاريخ الكنسى بأسره عملية صلب جديدة، وهو يتعرض للبتر دوما لإدخاله فى قالب التصورات البشرية المؤقتة، وكان دوما يختفى فى قبر النظام البشر للتفكير وينبعث منه مجددا. قول جميل، ولكنه ضبابى. لنفرض أن صورة يسوع المسيح تعرضت فعلا لهذه المعاملة القاسية. ولكن ها قد أتى السيد تيليكى ونوى أن يبعث هذه الصورة بكل مظهرها الأولى. ونحن ننتظر بفارغ صبر تحقيق هذه النية العظيمة. ولكنها لا تتحقق، لأن اللاهوتى يقتصر على تأكيد أن صورة المسيح كانت تشوه إلى الآن، أما كيف ينبغى تصورها حاليا، بعد أبحاث السيد تيليكى نفسه، فأمر يبقى فى طى الكتمان.

لا يقف اللاهوتى البروتستانتى باول التهاوز موقف تيليكى السلبى هذا إزاء ما فعلته "الطائفة" بصورة المسيح وأنها لمعروفة أقواله المتشائمة حول إمكان استخدام الأناجيل كمصادر تاريخية. ولكن هذا المؤلف يتسم بقدرة غريبة بعض الشىء على الجمع فى كتبه بين طروحات متناقضة. فهو يعتبر أن إنجيل مرقس يأتى مباشرة من شهود عيان وصولا إلى بطرس. ويعترف، شأن أ. خيرش، أن هذا المصدر قد زوق وزخرف بقوة فيما بعد، ولكنه يعترف، شأن ذاك، أن هذا قد جرى بدون ضرورة، لأن كل سيرة يسوع تمر فيه أمام أنظارنا يبدو أن كل شىء على أفضل ما يرام ولا توجد أية صعاب فى بعث صورة يسوع. ولكن تتكشف صعاب كهذه على أية حال.

ما العمل إذا كانت شخصية يسوع الإنجيلية قد تغيرت بشدة فيما بعد نتيجة تراكمات "لاهوت الطائفة"؟ لا يوافق التهاوز فى حل هذه المسألة على وجهة نظر ممثلى اللاهوت

الليبرالي. فهم يؤكدون بأن " ما صنعه لاهوت الطائفة من يسوع هو عنصر غريب ولا يمت بصلة ليسوع نفسه". ويدعون " إلى الرجوع عن لاهوت الطائفة الدوغماتي إلى موعظة يسوع البسيطة بالملكوت، بالأب الذى فى السماوات، بالحياة الأزلية للروح ! الرجوع قبل كل شيء عن بولس إلى يسوع، إلى يسوع الحقيقى الذى يمكن بعث صورته ورسالته فى ملامح المسيحية المبكرة ! الرجوع عن الدوغما إلى الإنسان غير الدوغماتى من الناصرة" (١٧). يرفض التهاوز دعم هذا الشعار، رغم أنه "يرن بقوة شديدة منذ فترة نصف قرن كاملة، وهو الآن يبرز من جديد" ويعلن اللاهوتى بما لا يخلو من الأسس أن "الصورة الليبرالية للنبى غير الدوغماتى يسوع هى تجريد وتصميم" (١٨). وتروق له أكثر تلك الصورة على وجه التحديد التى أتت من لاهوت الطائفة. وهو يجد فيها الواقع الفعلى ليسوع المسيح لا فى شكل مجرد "ليسوع تاريخى" غير دوغماتى، بل فى المسيح الذى وعظ به التبشير المسيحى الأول. إذا كان يمكن فهم شيء من هذه الصيغ غير المحددة فإنه تعلن هنا، على ما يبدو، الدعوة إلى عدم التفلسف والقبول بصورة يسوع المتكونة تقليديا.

من جهة، يضطر التهاوز إلى الاعتراف بهذه الحقيقة المحزنة. "إن حالة المصادر تجعلنا لا نستطيع أعطاء تسلسل زمنى لحياة يسوع، ولا عرض براغماتى لها ... نحن نرى يسوع دائما من خلال ستار ما فقط ... " ومن الجهة الأخرى، من خلال هذا الستار "نستطيع إن نتتبع بوضوح كاف الملامح الحاسمة لمظهر يسوع" (١٩). ولكن "من الناحية الروحية فقط"، لأن الحديث يجرى لاحقا عن المظهر المعنوى للإله الإنسان فقط، لا عن صورته التاريخية البشرية الفعلية. ويجرى الحديث أيضا عن "ملامح الصورة والوعى والرسالة ومعاملة الناس إلخ"، ولكن لا يعول هنا أيضا على "أقوال محددة، بل على سلوكه العام ونشاطه" وهذا الأدب المتملص والمراوغ يسمه التهاوز نفسه" علم دراسة المسيح غير المباشر" (٢٠).

حينما لا توجد أسس ومادة لطرح المسألة بشكل مباشر ولحلها بالشكل المباشر نفسه، الحل الذى تعوز اللاهوتى الشجاعة الأولية للإقدام عليه، يضطر إلى الاستعانة بالأساليب "غير المباشرة" وفى هذا الصدد يفتح التلاعب الذاتى بمفهوم الصدق التاريخى أمكانات غنية بشكل خاص. ولا يفرط التهاوز بهذه الإمكانات. فهو يؤكد أن المشكوك فيه (unecht)

يمكن أن يكتسب صدقا (echthein) يقول : "نحن نميز مفهوم الصدق. إن تلك الروايات والأقوال "غير الصادقة" من ناحية البحث التاريخي والتي لا تنقل ما جرى في الواقع يمكن أن تكون صادقة بشكل جوهري من حيث التعبير عن المغزى الفعلي لشيء جرى أو لشخصية تاريخية. ومن هذه الناحية يعتبر صحيحا كل ما عبر فيه عن مغزى يطاله الإدراك لجوهر ومعنى يسوع المسيح مهما تكسر من خلال فردية الشاهد وأساليب التعبير المميزة لزمنه " (٢١).

وهذا الطرح ينطبق، في رأي المؤلف، على النصوص الإنجيلية التي يعتبرها نفسه غير تاريخية، واضعا هاتين الكلمتين ضمن قوسين. يقول. "هذه المواضع يجب ألا تقرأ تاريخيا، بل تعبيريا. إنها تعرب عن جوهر يسوع ومغزاه بطريقة الوضع الشاعري للتاريخ" (٢٢)، ويعتبر أن هذه الطريقة هي الغالبة في الروايات الإنجيلية عن الأيام الأخيرة من حياة يسوع. هذه الروايات غير التاريخية صادقة بمعنى أعمق، حيث أنها تسعي إلي التعبير عن سر وجود المسيح وقدومه.

إن كل رواية هي تاريخية بمعنى من المعاني، فهي تشهد، في الأقل، على مؤلفيها، وعلى الجو الاجتماعي والأيديولوجي التي ظهرت فيها. ولكن هذه التاريخية، التي يعزوها التهاوز إلي الأساطير الإنجيلية، معترفا بعدم صدقها في الوقت نفسه، لا تستحق هذه التسمية طبعا، فهي لا تستطيع قول شيء عن يسوع التاريخي. أما محاولات اللاهوتي لأن يستخلص منها شيئا من هذا القبيل فتفوح برائحة سفسطة واضحة.

هذا الموضوع يبدو معقدا ومدروسا أكثر بكثير في طروحات الأوساط الأكثر "يسارية" لعلماء اللاهوت ولاسيما المنتمين إلى مدرسة ر. بولتمان.

" ما فوق التاريخ " عوضا عن التاريخ "

في عام ١٩٥٩ أدلى اللاهوتي البروتستانتي الألماني كونتسيلمان بهذا التصريح المدهش بصراحته.

– لا تعيش الكنيسة فعلا إلا لكون نتائج الأبحاث عن حياة يسوع ليست معروفة فيها إلا قليلا.

وبعد أربع سنوات استعرض أ. كيوستير تصريح زميله، فعزاه وعزى نفسه.

– يبدو أن هذا (انتشار المعلومات العلمية عن حياة يسوع – أ.ك.) سيجرى بالتدريج (٢٣).

المغزى واضح، وهو أن الكنيسة لا تزال تتمتع بوقت كاف لاستخدام مختلف أساليب الدفاع والمناورة، وهذا الزمن "يكفي لعصرنا" على أي حال. ولكن مضت عدة سنوات أخرى وأكدت مجلة "شبيغيل" انهيار هذه الآمال. وبدأت سواء في الكنيسة أو في "الطائفة" مناقشات عاصفة عملت فيها بشكل مدمر من جهة "نتائج الأبحاث عن حياة يسوع " المشار إليها، وعمل من الجهة الأخرى التطلع إلى أبقاء أسس التعاليم الدينية المسيحية بكل الوسائل. ولما كان التفوق من نصيب العامل الأول، فإن الأمر يتكون بصورة مؤسفة بالنسبة إلى المسيحية، وهي بالمناسبة، لا تشذ من هذه الناحية، عن الأديان الأخرى جميعا.

لقد أتينا على وصف أسلحة وعتاد المعسكر التقليدي – المحافظ. أن مواقعة متزعزعة بحيث يغادره بالتدريج، وبسرعة كافية، عدد متزايد من أيديولوجي المسيحية. وهم لا

ينوون أن يتركوا تماما مسلمات دينهم ونقطتها المركزية، شخصية يسوع المسيح. أنهم يريدون فقط جعل هذه الصورة معقولة ولو بدرجة من الدرجات لأنفسهم ولذلك الجزء من "الطائفة" الذى لم يعد يقنع بالقوالب التقليدية - المألوفة ويبحث عن حلول جديدة يمكن استيعابها بدرجة من الدرجات. وإذا ضربنا الصفح عن اللاهوتيين المحافظين أكثر ما يكون، فإن الآخرين عموما مشغولون بالبحث المكثف عن هذه الحلول الجديدة. وتكمن المصيبة (كما يحدث عادة فى كل الأوضاع المتأزمة) فى كون اتجاهات الاستقصاءات تفترق فى جوانب كثيرة. ويحدث انطباع بالفوضى والتشتت السائدين فى الأدبيات اللاهوتية المعاصرة حول مسائل علم دراسة المسيح.

يصر أتباع أ. شفيتسير على تفسير شخصية المسيح من زاوية الأسخاتولوجيا، التعاليم حول نهاية الدنيا، على وجه الحصر. ليست سيرة يسوع جوهرية، كما يقولون، ولاسيما أن بعثها مستحيل، ولا يهم سوى أمر واحد، وهو أنه ظهر فى لحظة من لحظات تاريخ العالم القديم إنسان أو إنسان إله - أعلن نفسه المسيح وأنبأ بحتمية نهاية العالم القديم. وقد دخل التاريخ باسم يسوع المسيح. وتعاليمه تبعث فينا إلى الآن الأمل فى مستقبل سعيد ينتظر الناس بعد تحقيق وعده الأسخاتولوجى العظيم. وحتى أنه ظهر اتجاه خاص فى اللاهوت البروتستانتى يسترشد بهذا الأفق. وقد صيغ مفهومه المتعلق بعلم دراسة المسيح وباللاهوت العام فى كتب ى. مولتمان التى تدعو إلى "لاهوت الأمل"، والتى يعطى فيها المؤلف، بالاستناد إلى شفيتسير، تفسيرا اسخاتولوجيا لصورة يسوع ويرسم بتفاؤل تام لوحة التحقق المقبل لنهاية الدنيا التى أنبأ بها يسوع.

لا يمكن البحث عن صورة يسوع الإنسان إلا بواسطة أساليب البحث التاريخى. وهى بالذات التى أعطت نتائج فاجعة بالنسبة إلى هذه الصورة ! وتنجم حلقة مفرغة. يسوع الإله المبهم لا يصلح لعصرنا العلمى والعلمانى، أما يسوع الإنسان كشخصية تاريخية فعلية فلا يتسنى العثور عليه فى ظلام القرون. إن جناح اللاهوتين المعاصرين "المرهف" والمتفنن فلسفيا أكثر ما يكون يبحث عن مخرج من الصعوبات فى أساليب الخلط بين مفهومى الحقيقة التاريخية والواقع التاريخى الفعلى، بين جوهر ومهمات علم التاريخ.

إن إحدى الوسائل التى يمكن بواسطتها تصوير الأسطورة واقعا والكذب حقيقة تتلخص فى طمس الحدود بين الواقع والخيال، الحقيقة والهلوسة، التاريخ والخرافة. وتنتشر على نطاق واسع فى الفلسفة البرجوازية المعاصرة مفاهيم تعرب عن ازدراء "الإيجابية الساذجة" للقرن التاسع عشر التى كانت تعلن سعيها إلى أن تثبت فقط الوقائع التى جرت فى التاريخ فعلا... ويصبح موضعا للسخرية والرفض مبدأ علم تدوين التاريخ الإيجابى الذى كان قد صاغه ليوبولد رانكى، وهو "وصف ما جرى فعلا" يجب، كما يؤكد أنصار علم تدوين التاريخ الذاتى – المثال، عدم السعى إلى جرد "الحقائق العارية. بل إلى ما هو أكثر جوهرية. و "ما هو أكثر جوهرية" يتخلص بالنسبة إلى اللاهوتيين فى خدمة مصالح الإيمان. وهم مستعدون هنا للاعتماد على مفاهيم ومؤلفين بعيدين بحد ذاتهم عن الإيمان التقليدى، ولكنهم يخلقون إمكانات للمناورة من أجل الدفاع.

يتضح أنه يوجد تاريخان مختلفان. ويرمز إليهما فى اللاهوت الألمانى فى زمننا بمصطلحين مختلفين. إحداهما – weltgeschichte، التاريخ العالمى، العلمانى، والآخر – heilgeschichte – التاريخ المقدس، المنقذ، الإلهى. ويحتاج اللاهوت، كما يقولون، إلى هذا وذاك. وكلاهما يستحق تسمية "التاريخ" خلافا لما يجرى فى الطبيعة.

يجرى ! أن أهم شىء ينحصر فى شرح ما يجرى وما لا يجرى، أما بالنسبة إلى التاريخ فى شرح ما جرى يوما وما لم يجر. ولكن إذا كان من المجدى خلط هذا وذاك، فمن الضرورى بناء المفاهيم التى توفر إمكان هذا الخلط. وليس من الصعب إيجاد تسميات لها. إذ أن مرونة اللغة الألمانية وقدرتها على أن تستوعب، إلى جانب الأصول الألمانية، أصولاً رومانية وحتى يونانية، تمكنان من إدخال ضبابية فى المحاكمات تستطيع أن تضمن لها شكلا علميا وغموضا يليق بالموضوع. واستخدم ر. بولتمان فى هذه المسألة ازدواجية المصطلحين الألمانيين geschicte و history. وقد رمز إلى التاريخ العلمانى، العالمى بأولهما، وأبقى من أجل "التاريخ المقدس" معنى history بالذات، التاريخ الحقيقى بمغزاه الأعلى والأعمق.

ليس هذا تاريخا، بل شيء فوق التاريخ. ومن وجهة النظر هذه ليست ثمة ما يناقش ولا حاجة للمناقشة أصلا، ولذا فمن غير المفهوم لماذا تأتي بعد هذا التصريح مئات الصفحات التي تحلل فيها الوثائق من زاوية قيمتها التاريخية، ولماذا التحليل ومقارنة مختلف وجهات النظر. يسوع فوق الجميع، فوق الوثائق والحقائق والتاريخ والعقل والمغزى وكل ما يخطر على البال...

بيد أنه لا يجوز التسليم بضياع المظهر العلمي للبنى اللاهوتية الذي لابد منه لدى هذا الحل للمسألة. وللحفاظ على هذا المظهر يجري التوجه إلى كانت وكيير كيغور، وإلى منظري فلسفة الوجودية.

وراء عالم الحقائق العارية والخشنة التي يسجلها geschichte يكمن ميدان الأشياء في ذاتها، عالم لا يمكن لمضمونه أبدا أن يغدو مادة للإدراك والعلم. وإذا كان التاريخ مستعصيا على الفهم، شأن الطبيعة، فإننا لا نستطيع اتخاذ أي قرار حول واقعية أو عدم واقعية هذه الأحداث أو تلك مما تتحدث عنه القصص القديمة. ويستحيل أيضا الكشف عن طابع هذه الأحداث بمغزاه الموضوعي. وطالما أن الأمر كذلك، فيكفي أن نعرف عن المسيح ما يقوله عنه الإيمان والرواية الكنسية.

وجد هذا المفهوم تعبيرا مسهبا في مؤلفات بولتمان. وهو يقوم عنده من الناحية الفلسفية على نظرية الوجودية.

إن العنصر الأولي الذي يخضع للتحليل ليس، من زاوية هذه النظرية، جوهر الأشياء الموضوعي الذي يشكل عموماً أمرا خفيا ومشبوها، بل الوجود فقط أو بتعبير أدق، معناه الإنساني لوجوده. وهذا يعني أن الواقع الفعلي، الموضوعي، أو التاريخي في هذه الحالة، لا أهمية له، المهم فقط هو إدراك ومعاناه الإنسان لهذا "الواقع" على هذا النحو أيضا يجب تناول المواضيع الدينية. لا ينبغي تفسيرها بشكل موضوعي، "مادي" المهم في المسيحية هو الإيمان وحده الذي لا يبحث عن موضوعيته وماديته في الأساطير.

ليس عند بولتمان أى شىء ضد الاعتراف بتاريخية المسيح. بل على العكس، فهو يعتبر الشك فى الوجود التاريخى للمسيح غير مبرر بحيث لا يستحق التفنيد. وفى رأى بولتمان أن مما لا ينطوى على الشك أيضا واقع تأسيس يسوع لتلك الحركة التاريخية التى خلقت الطائفة المسيحية الفلسطينية فى المرحلة الأولى من وجودها. أما إلى أية درجة استطاعت هذه الطائفة أن تحتفظ فيما بعد بصورة المسيح وموعظته الأولية فهذا أمر أخر. ولكن بولتمان لا يعلق على هذا أهمية خاصة. ليس يسوع هو ما يهمه كشخصية واقعية تاريخية، بل ذلك الإيمان به الذى نشأ فى الطائفة المسيحية. إن بولتمان يعتبر الكيريغما الإعلان والدعاية، لا الميثولوجيا المرتبطة باسم المسيح ولا حتى الأحداث الطبيعية التى تتحدث عنها سيرة المسيح الإنجيلية، بداية تاريخية تماما بأرفع ما فى الكلمة من معنى. وفى هذا الصدد يقول، مثلا، عن "الفصح" (المقصود مجموعة الأخبار المرتبطة بالأيام الأخيرة من حياة المسيح، بموته وقيامته – أ.ك.) !" إن الفصح، طالما يمكن اعتبار هذا الحدث تاريخيا، ليس إلا ظهور الإيمان بمن قام ... لا يمكن أن ينظر إلا إلى ظهور الإيمان بالفصح عند التلاميذ الأوائل كحدث تاريخى" (٢٤).

إن بولتمان يتملص فى واقع الأمر من الرد على السؤال عن شخصية المسيح، رغم أنه يعترف بوجوده التاريخى. وفى الناحية التى ينظر منها إلى مسألة المسيح لا تعود شخصية الأخير مركزا، بل مجرد انعكاسها فى الإيمان المسيحى هو المركز. وانطلاقا من إمكان قيام الخيال الدينى بأكثر المعالجات جذرية للمادة الأولية التى كمنت فى أساس النتاج الميثولوجى اللاحق، يرفض بولتيمان قول أى شىء محدد عن طابع هذه المادة الأولية.

أثارت مؤلفات رسول إزالة الميثولوجيا أصداء عاصفة للغاية. وعنده الكثير من الأتباع لا بين اللاهوتيين البروتستانت وحدهم، بل وبين اللاهوتيين الكاثوليك. ودخل مفهوم المجرى العام لذلك الاتجاه فى المعسكر اللاهوتى الذى ينقل مركز ثقل الإيمان الدينى من المسلمات التى أسبغت عليها الصفة الشرعية والقانونية إلى ميدان معاناة المؤمن الفردية. وقد وصف دريفس هذا الاتجاه فى تطبيقه على قضية علم دراسة المسيح بالكلمات التالية: "حل مكان لاهوت حياة يسوع ما يسمى بلاهوت المعاناة الذى يؤكد ما يلى. طالما

أنه يستحيل البرهان على الوجود التاريخي ليسوع بأدلة العقل، فيمكن التوصل إلى حقيقته بطريقة الحدس، بطريقة المعاناة الداخلية" (٢٥).

إن أراء بولتمان لا تدخل تماما أطر "لاهوت المعاناة"، ولكنها قريبة منه. فهنا وهناك يتجلى التطلع إلى تجنب حقائق الواقع التاريخي ونقل المسألة كلها إلى مجال الكيريغما واستيعابها من قبل الطائفة عامة والشخصية المؤمنة الفردية خاصة.

إن عدم تطابق هذا الاتجاه مع الأحكام الدوغماتية الأساسية للمسيحية واضح تماما. ومن المفهوم أنه لو كان في الوسع تعليل الوجود الفعلي للمسيح ورسم صورته بواسطة وثائق ومواد تبعث على الثقة، لما وجد "لاهوت المعاناة" أنصارا مهما قل شأنهم. ولكن في ظل الوضع القائم تتوجه إليه مجموعات متزايدة من اللاهوتيين والعلمانيين المتدينين.

الجناحان اليميني واليساري

لدراسة المسيح اللاهوتية

لا تزال المجموعات "اليسارية" في علم دراسة المسيح تلقى مقاومة ضارية. إن أشكال وشدة هذه المقاومة متنوعة وتنتشر على نطاق واسع. و"الحركة المذهبية – لأي إنجيل أخر ! التي سبقت الإشارة إليها والتي حظيت بأوسع انتشار في ألمانيا الاتحادية هي أسطع تعبير عن مقاومة الاتجاه الحديث. ولا يقتصر الأمر هناك على نشر الكتب والمقالات في الجرائد والمجلات، بل تعقد اجتماعات ولقاءات حاشدة، حيث يندد في جو من احتدام العواطف الشديد دعاة "الإنجيل الجديد" الذين ينظرون إلى "القبر الخالي" والحبل بلاد دنس إلخ، كمجرد عناصر للكيريغما، لا كحقائق للتاريخ. للحكم على طابع الانتقاد الذي يتعرض له بولتمان ورفاقه في التفكير تكفي الإشارة إلى أن أفكارهم اعتبرت في اجتماع حاشد جرى في أذار (مارس) عام ١٩٦٦ في دورتموند أخطر على الدين المسيحي بما لا يقاس من أراء المسيحيين الألمان في الثلاثينات. ونذكر بأن الحديث يجري عن اتجاه في الكنيسة اللوثرية كان يسعى إلى وضع المسيحية تحت خدمة النظام الهتلري وأيديولوجيته.

إن الضراوة التي يهاجم بها المحافظون مفاهيم بولتمان لها منطقها. فهم يستشهدون بما لا يخلو من الأساس بمبدأ لوثر المعروف. "من ينكر شيئا ينكر كل شيء" ورفض الاعتراف ببعض عناصر الأسطورة الإنجيلية يعني فتح أماكن التشكيك بأي عنصر أخر من عناصرها. وتدرك الكوادر. الأساسية من اللاهوتيين المسيحيين في زمننا خطر هذا الطريق.

توجه من على منابر كل الكونفرنسات اللوثرية ملاحظات انتقادية وتنديدات متحفظة إلى علم دراسة المسيح الحديث. وفي السينودس العام الرابع للكنيسة اللوثرية – الإنجيلية المتحدة الألمانية في صيف عام ١٩٦٧ جرى الحديث كثيرا عن ضرورة التبصر المتسم بالانتقاد الذاتي في حل القضايا التي تواجه الكنيسة. يخشى زعماء الكنيسة أكثر من أي شيء أن ينهار إجمالا في مثل هذا الوضع الإيمان بيسوع المسيح الذي لا يزال باقيا إلى الآن وسط رعيتهم.

والأمر هنا يبعث على الأسى. ولكن زعماء الكنيسة لا يميلون إلى اعتبار تدهور الدين بين الجماهير الشعبية كنتيجة لنشاط لاهوتي المذهب الحديث. قال الأسقف خاينتسي في جلسة للسينودس الرابع. إن كون الكنائس خالية اليوم باستمرار من المستبعد، كقاعدة عامة، أن يكون سببه الدعاية إلى "إنجيل آخر" فيها. ويرى الأسقف سببا أهم بكثير لتدهور الدين في المواعظ والدروس العديدة، الصحيحة ظاهريا، والمملة مع ذلك، التي تعوزها القوة للإلقاء ضوء على الواقع..." (٢٦). والأمر "الرئيسي هو أن "معرفة العالم العلمية العميقة والمتزايدة عمقا والسيطرة عليه بواسطة التكنيك تطرحان مسائل جديدة بالمرة لم يعد يمكن إبعادها وتصفيتها بالصيغ المذهبية التقليدية". عن المراقب الكثوليكي الذي يورد هذا الاستشهاد يرفقه بهذه الملاحظة السوداوية. "معضلة معروفة لرجال الدين الكاثوليك!" (٢٧).

وهكذا، فإن الكنسيين البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يدركون بوضوح أن الإصرار في زمننا على القبول بلا قيد أو شرط بصحة النظام الدوغماتي المسيحي ونقطته المركزية، الإنسان الإله التاريخي يسوع المسيح، أمر يخلو من التبصر ولا جدوى من ورائه. ولهذا لا تجرى إدانة حاسمة لآراء أيديولوجيي "لاهوت المعاناة" غير البعيدين عن النفي المباشر لتاريخية مؤسس المسيحية. ولا يستبعد أن تؤدي سيرة الأحداث في المستقبل إلى تزايد "يسارية "الكنيسة في هذه النقطة الحاسمة للتعاليم الدينية المسيحية.

أما الآن فإنها تتخذ موقف الانتظار. ومن وقت إلى آخر يدلي بتصريح يرن بحزم عن رسوخ أسس المسلمات المسيحية. ولكن لا تتخذ المراجع القيادية في الكنيسة أي شيء

إزاء المفاهيم اللاهوتية التى تزعزع هذه الأسس، وحتى أنها تدافع ضد الهجمات العنيفة بشكل خاص. فما تفسير هذا التكتيك ؟

أولا، الوضع الصعب الذى ليس من السهل أن يتخذ فيه قرار محدد، ثانيا، الأمل. على ما يبدو، فى إمكان تعويد الرأى العام لدى رجال الدين والرعية بالتدريج على تغيرات حاسمة فى المسلمات. ولعله ليست بعيدة تلك اللحظة حينما ستدرج سواء فى قانون الإيمان. أو فى تعاريف مجمع خلقيدونية "تفسيرات" لا يغدو يسوع المسيح فى ضوئها إنسانا إلها، بل مجرد إله أو مجرد إنسان. وربما سيعلن فى الوقت نفسه أن هذا الشرح لا يعنى أبدا انتقال الكنيسة إلى مواقع المونفيزية أو الأيوسية، على الرغم أن ذلك سيعنى من حيث الجوهر انتقالاً كهذا بالذات ولا شىء آخر.

كاهن متحرر يتحدث عن معضلة المسيح

الكاهن هانس كيونغ شخصية ملحوظة فى عالم اللاهوت الكاثوليكى. فمنذ أن كان فى الرابعة والثلاثين من العمر أشركه البابا يوحنا الثالث والعشرون فى عمل المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى بصفة خبير ومستشار شخصى للبابا فى المسائل اللاهوتية. وبعد المجمع نشر كيونغ عددا من الكتب الضخمة. وهذا الكاهن الكاثوليكى والبرفسور فى جامعة تيوبينغين الشهيرة يتسم بالثبات فى مفاهيمه. فهو يطالب التجديد الراديكالى سواء لمبدأ الكاثوليكية المذهبى وللتنظيم الكنسى نفسه. وفى عهد البابا يوحنا بولس الثانى حرم كيونغ بسبب تفكيره المتحرر من حق التدريس فى جامعة تيوبينغين.

إن تيونغ إذ يستعرض تاريخ المسيحية يجد فيها تنوعا شديدا للظواهر الدينية والاجتماعية – السياسية والأيديولوجية : قرون من الطوائف الصغيرة والمنظمات الكبيرة. الأخيرة تغدو سائدة وبالعكس تحل مكان النشاط السرى كنيسة الدولة، وبعد الشهداء فى أيام نيرون يأتى أساقفة البلاط فى عهد قسطنطين . الرهبان والعلماء والساسة الكنسيون .. السينودسات البابوية والمجامع الإصلاحية الموجهة ضد البابوية . العصر الذهبى للإنسانيين بصفتهم إنـاس النهضة العلمانيين ومصلحى التزمت الكنسى. التزمت الكاثوليكى والبروتستانتى والاستيقاظ الإنجيلى. أزمنة التكيف والمقاومة، التجديدات والترميمات، الشك والأمل ... (٢٨) . بم ينبغى الاسترشاد فى هذه الوفرة من الظواهر على امتداد تاريخ طوله الفا سنة؟ وما الذى ينبغى اعتباره رئيسياً وحاسماً؟

إلى الآن لم يوجد، كما يتضح من مسيرة العرض كلها، رد صحيح على هذا السؤال في التعاليم الكنسية والأدبيات اللاهوتية، أو أنه لم يسمع بشك واضح على أي حال. والآن يعطي الكتاب الذي نحن في صدده هذا الرد.

إن شخصية يسوع المسيح ولا شيء آخر هي الأمر الرئيسي والحاسم في المسيحية. ولا يبقى إلا تفسير مضمون هذه الشخصية، فيغدو واضحا ما معنى أن يكون المرء مسيحيا. ولكن يتضح أن هذا صعب إلى درجة يستحيل تصورها.

ينظر كيونغ بتتابع إلى مختلف الحلول الممكنة لمسألة شخصية يسوع. مسيح التقوى؟ المسلمات ؟ الحالمين؟ إن أشكال هذه الشخصيات لا عدد لها، وحتى الشكل الدوغماتي ذو الصفة القانونية متنوع بشكل يستحيل تحديده. وأنه لأبسط بكثير ذكر الأشياء والشخصيات التي لم يكنها المسيح. هنا يشعر كيونغ بأنه في بيئته الأصلية، فهو أستاذ المحاكمات السلبية. لم يكن يسوع كاهنا ولا لاهوتيا، ولا ثوريا، ولا عضوا في أخوية، ولا ناسكا، ولا منفذا غيورا للقانون، ولم ينفصل عن العالم ولم يشطر العالم كما فعل القوسرانيون، ولم يعترف بنظام المقامات. وينفي كونغ نفيا قاطعاً التوجه الاجتماعي – الثوري للمسيح. صحيح أن المنقذ كان ينتظر نهاية الدنيا القائمة، ولكنه لم يعتبر بحال من الأحوال أن من الممكن القضاء عليها بوسائل بشرية. لقد وعظ بثورة اللاعنف. وهو لا يشبه من هذه الناحية تشي غيفارا ولا كاميلو توريس، بل غاندي ومارتن لوثر كينغ (ص١٨١ – ١٨٢). إن تصريحاً كهذا يبعث على الأمل، فيبدو أن المؤلف ينوي أن يقول شيئا إيجابيا.... ولكن كلا، انه يتذكر ويعود إلى سابق عهده " ليس فيلسوفا ولا سياسيا، ليس كاهنا ولا مصلحا اجتماعيا. أهو عبقري أم بطل أم قديس أم مصلح ؟ ولكن ألم يكن أكثر جذرية من كل المصلحين ؟ (ص١٩٨ –١٩٩) كان أكثر خلقا من دعاة الأخلاق، وأكثر ثورية من الثوريين. وثمة إجمالا "أمر واحد واضح. يسوع شيء أخر ! ... لم يكن له نظير حينذاك، ولا نظير له اليوم "(ص ٢٠٣).

يبد أنه يستحيل أن نستخلص من كل هذا أي شيء لحل مسألة ما معنى أن يكون المرء مسيحيا. ومن الواضح لواضع هذا المبدأ أيضا. أن كل ما قيل إلى الآن يرسم صورة المسيح في الأغلب (دائما من حيث الجوهر – أ.ك) من الناحية السلبية. وفي الفصل الذي

يعقب هذا التصريح تحل مسألة هامة، وهى تحدي الجوهر، mitte ، مركز تعاليم يسوع المسيح.

إن التنبؤ بملكوت السماوات فى المستقبل القريب هو هذا المركز. وليس واضحا ما إذا كان هذا الملكوت فى السماء أو الأرض وهذا على أى حال "ليس أراض أو منطقة للسيطرة... بل سلطة الله.) (ص٢٠٥). تبدأ التعاريف السلبية من جديد، ويلى ذلك عدد من النقاط حول ما لا ينبغى أن يعتبر ملكوت السماوات. "ليس هذا سيطرة مراتب أورشليم الموقتة، التى منحها الله منذ بدء الخليقة ... ليس أوتوقراطية دينية – سياسية مقامة بالعنف أو ديمقراطية الثوريين الزيليونيين.... ليس حكم الانتقام فى مصلحة صفوة ممن بلغوا درجة الكمال على غرار الأسانيين والرهبان القومرانيين ... إلخ. لقد أعطى لكل من هذه الصيغ موضوعة مضادة إيجابية، بحيث لا يعطى شيئا فى الواقع. الحديث يجرى عن "ملكوت الله المقبل فى نهاية الدنيا، مع العلم أنه يبقى من غير المفهوم أيضا وأيضا ما إذا كان هذا الملكوت فى السماء أو الأرض. وعلى كل حال ستكون فيه "سيطرة الآلة العالمية، المباشرة، غير المحدودة. وهذا المبدأ نفسه يبعث على الحيرة، لأن الدين لم يحد إلى الآن من سيطرة الله فى العالم. والنقاط "الإيجابية" الأخرى فارغة بالدرجة نفسها. "البشري السارة بخير غير محدود ورحمة مطلقة من الله ملكوت يتقدس فيه اسم الرب فعلا بابتهال يسوع، وتتجلى إرادته فى الأرض أيضا، ويجازى الناس بصورة كاملة، ويعفى عن كل الذنوب ويذلل الشر كله... (ص٢٠٦).

ولكن ها هى واحة لمضمون اجتماعى تطل، كما يبدو، فى هذه الصحراء الكلامية. "ملكوت سيرضى فيه أخيرا، حسب وعود يسوع، الفقراء والجائعون والباكون والمضطهدون، ويزول فيه العذاب والموت" (ص٢٠٦). أما كيف سيتجلى على نحو ملموس رضى الجائعين والمضطهدين فأمر يبقى طى الكتمان بحيث يتضح أن هذه الواحة مجرد سراب.

يدرك المؤلف نفسه أن وصفه لملكوت الله لا يعطى أى شىء مفهوم، فيعترف فى مستهل سيل جديد من المفاهيم المجردة (العدالة الكاملة، الحرية غير المحدودة، الحب الراسخ، المهادنة الشاملة، السلام الأزلى") بأن "الملكوت ربما لم يوصف ولكنه عرض فى

صور" وهذه الصور على هذا النحو: " الاتحاد الجديد، الزرع اليانع، المحصول الناضج، المائدة العظيمة، العيد الجليل، (٢٠٦) ولعل يضيع هنا الحد بين الإيجابي والسلبي. فليس الثاني وحده لا ينطوي على مغزى واقعي، بل الأول أيضا.

تشكل أكبر صعوبة للمؤلف مسألة موعد حلول ملكوت الله المنشود رغم غموضه. في البداية يأتي جواب مختصر، ذو أسلوب غامض غير محدد. "في المستقبل المطلق" أو بتعبير أخر، يمكن أن تمر سنوات كثيرة بلا حدود قبل أن يحل ملكوت الله. ولكن يسوع تنبأ بأنه سيحل في حياة الجيل المعاصر له ! وهذه النبوءة لم تتحقق ذلك الحين، ولا على امتداد السنوات الألفين التالية. أي أن يسوع أخطأ ! يعترف كيونغ بهذا الواقع المربك بصراحة مفاجئة وينتقل إلى محاكمات مسهبة يجب أن ينجم عنها أنه ليس في هذا أي شيء مريع بالنسبة إلى التقوى المسيحية. فالإنسان مجبول على الخطأ، وإذا كان يسوع من الناصرة إنسانا فعلا، فيمكن أن يخطىء أيضا" ويتلو ذلك عدد من التهجمات على الاهوتيين الذين يخافون الخطأ أكثر من الإثم والموت والشيطان" (ص٢٠٨).

ومع ذلك ينبغي بشكل من الأشكال طمس حقيقة أن مؤسس المسيحية يمكن أن يخطىء فتأتي محاكمة سفسطائية طويلة عما إذا كان مفهوم الخطأ ينطبق على هذا تماما. فالمقصود هنا، في رأي كيونغ، هو "المعرفة الكونية" فقط، والزلة في هذا المجال لا يمكن أن تعتبر مجرد خطأ. لقد كانت لكوكبنا وللبشرية بداية، الأمر الذي يؤكده العلم أيضا، فلا بد أن تكون لهما نهاية كذلك، وهذه النهاية مرتبطة ولا شك بحلول ملكوت الله وإذا كان الأمر كذلك، فإن مفهوم الخطأ يبدو هنا غير محدد وحتى غير مناسب (ص٢٠٩). هكذا يمكن تحويل الأسود إلى أبيض وبالعكس.

وسواء أخطأ المسيح في المواعيد أو لم يخطئ، فما يهم هو أن ملكوت الله سيحل حتما. وينبغي لهذا، كما يبدو، أن يعني أنه الشر الكثير الذي يعكر حياة الناس سيزول. هنا نصطدم بمسألة كانت دوما حجر عثرة بالنسبة إلى اللاهوتيين، وهي لا تزال إلى الآن تمنع كيونغ من تشييد صرحه اللاهوتي. المقصود تنافر واقع الآلام في العالم لا مع التعاليم القائلة بأنه هذا العالم خلقه إله عاقل إلى درجة الكمال المطلق فحسب، بل ومع التعاليم القائلة

بأن قدوم يسوع المسيح كفر عن ذنوب البشر وأنقذ الناس أنفسهم. ولكن هل جعلت السنوات الألفان التى مرت على هذا التكفير والإنقاذ حياة الناس أكثر إشراقا بدرجة من الدرجات ؟ يعترف كيونغ بأن هذا لم يحدث.

الإنسان يتساءل من عهد أيوب إلى أيامنا. لماذا أتعذب ؟ وإذ يبقى هذا السؤال بلا جواب، لا يستأصل من الجذر التعاليم عن الإله وعنايته فحسب، بل والمسلمات عن الإنقاذ الذى قام به الله بواسطة آلام يسوع المسيح. وذلك لأن لوحة البشرية المعذبة، كما يصفها كيونغ بقوة وإحكام، " تصرخ للسماء، لا بل ضد السماء ! " (٤١٩) .

ووصل الأمر إلى درجة أن الناس قرروا القبض على مصيرهم بأيديهم. وصاروا يفكرون فى أنه ينبغى أن يعمل، عوضا عن الإله المنقذ، الإنسان الذى ينقذ ويحرر نفسه وأن على الإنسان أن يصبح مادة للتاريخ عوضا عن الإله. هذا لا يعجب كيونغ. لا تستطيع الثورة التكنولوجية ولا السياسية – الاجتماعية إنقاذ البشرية – ويحاول أن يبرهن بإسهاب شديد وفى عدد كبير من الصفحات (٢٨ –٤٧)، ولكن بدون إقناع كاف، على عدم جدوى نضال الناس من أجل تصفية الشر الاجتماعى والشرور الأخرى.

فمن الذى ينبغى أن يقوم بهذا العمل المنقذ للبشرية ؟ هذا ما يجب أن يقوم به، بناء على فكرة الإله العميقة، المسيح عن طريق تجسده فى صورة انسان وتضحيته بنفسه، كما تقول المسلمات المسيحية. ولكن كيونغ يجد نقاطا مشبوهة فى الكيفية التى جرى هذا الأمر بها.

ليس مفهوما قبل كل شىء لماذا جرى هذا كله. يعترف اللاهوتى أن وسيلة إزالة أثار الخطيئة الأولى، كما كان شأن تضحية يسوع، أمر غريب بعض الشىء. لقد نظر القديس أوغسطينوس والبابا غريغوريوس الكبير إلى موت يسوع كفدية قدمها الإله الأب إلى الشيطان. وأسبغ أنسيليم الكنتربرى على هذا صفة قانونية. طالما أن جريمة ارتكبت فينبغى أن يتلوها عقاب. كان هذا يناسب التصورات القانونية فى الأزمنة القديمة والقرون الوسطى. ولكن أية علاقة هنا للحب الإنجيلى والرحمة إلخ ؟ ليس أمامنا تجل لحقيقة إلهية،

بل انعكاس لتصورات الناس المحدودة تاريخيا فى عصر معين. ولكننا نعيش الآن فى عصر آخر ! ولهذا، فليس على المسيحى المعاصر، فى رأى كيونغ، أن يؤمن بهذا حتما.

بيد أن يسوع عاش، كما يصر كيونغ، ويكمن فى شخصيته وموعظته مركز وقلب التعاليم المسيحية. ومهما كان تناول الجانب الحقيقى للأمر - والمؤلف ينوه مرارا بموقفه المستخف إزاءه - فإن المؤمن يريد أن يعرف ما الذى جرى على أى حال لمادة إيمانه.

ما العمل في شأن " سيرة " يسوع ؟

يرفض اللاهوتي الكاثوليكي مسلمة الحبل بلا دنس. وبعد حركة حذرة من اللف والدوران يصوغ، في نهاية المطاف، هذه الموضوعة: "لا أحد ملزم بأن يؤمن بالواقع البيولوجي للحبل أو الولادة بلا دنس بالنسبة ليسوع (ص ٤٤٧). فهل معنى هذا أنه ينبغي اعتبار تعاليم الكنيسة خاطئة ؟ كلا، يمكن إيجاد مخرج في تفسير الحبل بلا دنس "تفسيرا مسيحيا - لاهوتيا، لا بيلوجيا - أنتولوجيا" (ص٤٤٦) وما جاء في الأناجيل عن الحبل بيسوع بلا دنس وولادته لا يمنع هذا. نعم، هذا ما جاء عند متى ولوقا، ولكن ذلك لا يشكل جوهر التعاليم الإنجيلية ومغزاها وفكرتها المركزية. ولا وجود لأسطورة الحبل بلا دنس عند مرقس ويوحنا وفي رسائل بولس. لا ينبغي، بالمناسبة، السكوت عن هذه المسَلّمة في المواعظ. يجب التحدث عنها، ولكن "بشرف وتمايز" مع العلم أنه ينبغي تذكر ضرورة وحدود عملية إزالة الأسطورة (ص٤٤٧) أين هذه الحدود ؟ لا يقول كيونغ شيئا محددا عن هذا.

جرى نشاط يسوع، حسب الأناجيل، في شكلين. لقد وعظ واجترح المعجزات. إذا كان يمكن بواسطة بعض أساليب التلاعب تحرير مواعظ يسوع من التناقضات وإيصالها إلى وحدة معينة، فإن الأمر أكثر تعقيدا بالنسبة إلى المعجزات. يشير كيونغ مرارا إلى أن الإيمان بالمعجزات أمر غير مقبول بالنسبة إلى وعي الإنسان المعاصر، وإذا تابعت الكنيسة الإصرار على صحة المعجزات الإنجيلية، فإنها تخاطر بأن يمتنع المؤمنون عن تقبل موعظتها بصورة جدية. ينبغي التفكير في شيء إزاء هذه المسألة "المزعجة" و"غير المستحبة" (حسب تعبير كيونغ نفسه).

يبدأ اللاهوتي تحليلها باعترافات صريحة، فأحد عناوين هذا الفصل ذوى مدلول بليغ جدا. "تمويه الوضع الصعب" إن مفهوم المعجزة نفسه غامض ومطاط، وهذا الواقع يوفر، كما يقول كيونغ ساخرا من اللاهوتيين (وبالتالي، من ذاته) جوانب مريحة جدا إذا يستخدمها اللاهوتيون " يموهون بلباقة" معضلة معجزات العهد الجديد (ص٢١٧). ويجرى إيراد تفسيرات عديدة لمسألة المعجزات، ولكنها جميعا لا ترضى المؤلف وبعد ما قال عن التمويه، يمكن توقع أن يقبض كيونغ نفسه على ناصية الأمر أخيرا ويعطى حلا معينا للقضية. بيد أنه لا يفعل هذا.

يبدأ التحليل بطرح ملموس للمسألة، تتحدث الأناجيل عن فئات معينة من المعجزات التى اجترحها يسوع، الشفاء، طرد الشياطين، أحياء الموتى ثلاث مرات، سبع معجزات "طبيعية" ابتداء عن تسكين العاصفة وانتهاء بتحويل الماء إلى نبيذ. لقد عولج كل شيء بدقة ومتانة، ولم يبق سوى الرد على السؤال حول ما إذا كان أمكن في أي زمن كان ولأيّ كان ممارسة هذا الإخلال بقوانين الطبيعة الذى يسمى معجزات بالمعنى الخاص لهذه الكلمة ؟ وذلك لأن كل أقوال كيونغ أو أى شخص أخر فى صدد مختلف تفسيرات كلمة "المعجزة" تشوش القضية فقط، عوضا عن أن تساعد على حلها. أن الروايات الإنجيلية حول معجزات يسوع المسيح لا تترك مجالا لأى تأويل. لا يقصد الإنجيليون غير أعمال وحوادث تخل بقوانين الطبيعة. فهل هذا ممكن أو مستحيل ؟

لا يعطى كيونغ جوابا عن هذا السؤال.

إن جزاء من الأخبار عن معجزات يسوع قد يعكس، كما يقول، ما حدث فعلا. ففى حالات الشفاء. مثلا، ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار إمكان العلاج النفسانى. إذ أن الكثير من الأمراض ذو منشأ نفسانى ويمكن فى حالات معينة تحقيق فعالية علاجية. وماذا فى شأن الحالات الأخرى، حينما توصف معجزات يسوع غير المرتبطة بالأمراض؟ وهناك أيضا، كما يقول كيونغ، يمكن أن توجد أسباب لظهور أسطورة كهذه. وإذا عرف هذا السبب لا تعود الأسطورة أسطورية تماما. فالخبر القائل، مثلا، بأن يسوع سكن بكلمته العاصفة فى البحر، يمكن أن تكون له أسس تاريخية فى حادث واقعى، حينما انفرج صدفة وضع المتعرضين

للمصيبة بعد التوجه إلى الله بالابتهال. لا يعرب كيونغ بأى تلميح عن المغزى العجيب للابتهال، فهو يقصد مجرد تضافر عرض للظروف. وهذا التضافر يمكن أن يغدو سببا تاريخيا لأى خبر إنجيلى أخر عن معجزة اجترحها يسوع – ولكن ما الذى يبقى عندئذ من التعاليم الدينية التى تعتبر المعجزة حدثا خارقا يخل بقوانين الطبيعة ؟

وترفض عمليا التعاليم حول المعجزة المركزية لحياة المسيح وبعثه. حول قيامته من بين الأموات. عن كونها مركزيا وكون الإيمان بها المحك لتحديد ما إذا كان الشخص يعتبر مسيحيا أمر ينبع من التأكيد القطعى للرسول بولس .. وإن كان المسيح لم يقم، فتبشيرنا باطل وإيمانكم باطل (قورنتس الأول، ١٤/١٥) فكيف يتصرف كيونغ مع هذا الشرط الأكيد "لعدم بطلان" الإيمان؟

إنه يعطى هنا نماذج كلاسيكية من الهراء اللاهوتى السفسطائى المجرد عمليا من أى مغزى ولكنه ذو مظهر لايوحى بالتقوى فحسب، بل بالتفكير العميق أيضا. لقد حدثت القيامة، ولكنها لم تحدث. وعلى العكس. لم تحدث القيامة، ولكنها حدثت. تسود عشرات الصفحات بحيث يدحض كل من الصفحات اللاحقة ما قيل في كل من الصفحات السابقة.

فى القاموس اللاهوتى الألمانى يستخدم الحدث المرتبط بقيامة المسيح وصعوده تعبير oster qeschichte ، "قصة الفصح"، أما الإيمان بالقيامة فيرتبط بتصور "القبر الخالى" وهو الذى اكتشفه، كما جاء فى الأناجيل، تلاميذ يسوع بعد أن قام وغادره. ويستعمل كيونغ هذين المفهومين بحرية، ولكنه يفرغهما بحيث يمكن تماما القول أنه ينفيهما من المسلمات المسيحية، بيد أنه يفعل هذا "بلباقة" فائقة، إذا شئنا استخدام مصطلحه نفسه.

فى البداية يستعيض المؤلف عن مفهوم القيامة بمفهوم البعث. إن المسيح، كما يقول، لم يقم، بل بعثه الله. ولكن هل "البعث" حقيقة تاريخية فعلية؟ يمكن رؤية الإجابة عن هذا فى الخطاب التالى : "إذا تكلمنا عن البعث الإلهى كواقع، فلا مجال للحديث عن المعنى التاريخى الصارم لهذا الحدث وعن تثبيته بعلم التاريخ وبالأساليب التاريخية. لا يقصد بالبعث معجزة تخترق قوانين الطبيعة وتثبت بالأساليب العالمية الداخلية وتدر وتؤرخ كاقتحام خارق للمكان والزمان. (ص٣٣٨). ثم تأتى جملة من التهجمات على العلوم

(التاريخ، البيولوجيا إلخ، بما في ذلك اللاهوت) التى "لا ترى إلا جانبا واحدا من الواقع المتعدد الجوانب" وإذا رأينا الجوانب كلها يتضح أنه بالنسبة للقيامة أو البعث على حد سواء "يجرى الحديث عن مصطلحين مجازيين، رمزيين" ويكمن فى أساس رمز القيامة تصور النهوض والاستيقاظ من النوم مع العودة إلى الحالة السابقة، إلى الحياة الفانية. أما هنا فإن يسوع الذى قام – عفوا، الذى انبعث – ينتقل إلى حالة أخرى تماما. بسبب الحياة، بل شيء مختلف تماما. ولكى يشدد كوينغ على هذا يلجأ إلى اللاتينية – totaliter aliter مغاير بالمرة. ولكن ما هو على وجه التحديد ؟

ومن جديد يلجأ كيونغ إلى أسلوبه المفضل. ليست قيامة المسيح هذا ولا ذاك، ولا تلك ولا هذه، ولكنها أيضا هذا وذاك وتلك وهذه. "ليست خيالا، ومع ذلك غير ملموسة، مرئية وخفية، مادية وغير مادية، على هذا الجانب وذاك من الزمان والمكان".

بعد هذا لا يصعب القول أن قيامة يسوع كانت جسدية وغير جسدية على حد سواء وهى لم تحدث إذا فسرنا هذا الجسد نفسه بمثابة "واقع شخص مطابق" (ص٣٤٠).

إذا حاولنا على أى حال أن نجد هنا مغزى واقعيا، فإنه يكمن فى أن قيامة المسيح لم تحدث بالمعنى الإنجيلى المباشر لهاتين الكلمتين.

ولكن الأمر يغدو صعبا بالنسبة إلى "القبر الخالى" ويصف كيونغ فى عشرات صفحات المنعطفات حول الوضع المزعج الناشىء. يتضح أن التعاليم حول القبر الخالى لا أهمية لها أصلا. "فهى ليست مادة مذهبية ولا أساس "الإيمان" ولا مادته" (ص٣٥٦). ورغم أنه وجه فى العرض السابق غير قليل من اللوم إلى "النقد التاريخى والعلوم الطبيعة" فلا بد من أن يؤخذ فى الحسبان أن هذه العلوم البشرية الضعيفة تقف موقف الانتقاد من القبر الخالى. ولابد من عدم تقييد الذات "بضرورة الاعتراف بالتصور الفيزيولوجى للقيامة".

وعلى النحو نفسه يتصرف كيونغ مع عناصر "قصة الفصح" الأخرى، ومن بينها الصعود الجسدى ليسوع إلى السماء بعد أربعين يوما من التجوال فى الأرض. وهنا أيضا تتكشف إمكانات للمناورة. ما هى السماء فى الواقع ؟ ليست بالطبع، قبة من سبعة طوابق، حيث

يجلس يسوع المسيح بعد صعوده على العرش عن يمين الإله الأب. " إن سماء الإيمان ليست سماء الفلكيين" وهي ليست قبة، بل وليست مفهوما فراغيا أصلا. "ليست مكانا للوجود. بل شكل له" وإذا كان الأمر كذلك، فإنه "من المفهوم بداهة أن يسوع لم يقم بأية جولة عالمية في الفضاء" إنه توجه فقط إلى "ملكوت الله الخفي الذي تستحيل رؤيته وإدراكه، وبالنتيجة أصبح مندمجا في عظمة الأب" (ص٣٤٢). إذا ما اعترفنا بكل هذا الأمر الخفي الذي تستحيل رؤيته وإدراكه، ينجم شيء يشبه ما حدث مرارا في تاريخ الدين والميثولوجيا. وفي صدد الصعود، مثلا، فإن كيونغ لا يتذكر إيليا وحنوك من العهد القديم فحسب، بل يتذكر أيضا هرقل وامبيذكلس واسكندر المقدوني وأبولونيوس الطياني. ألا يجدر بكم، أيها المسيحيون، أن تؤمنوا، كما يقول، بهؤلاء الآلهة أيضا ؟

ولكن إذا لم يبق من كل ملحمة المسيح الواردة في العهد الجديد سوى الضباب المجرد الغامض بشكل يستحيل إدراكه، فما الذي سيغذي الإيمان الملموس والحافل بالصور للمسيحي البسيط الساذج الذي تطلب مخيلته غذاء روحيا "مهضوما" ؟ الشيء الوحيد الذي يبقيه كيونغ لهذه الأهداف هو أن المسيح عاش وأنه، وهذا هو الأمر الرئيسي، صلب. وإذ يجمل النتائج، يتحاشى القيامة وغيرها مما لا يمكن تخيله، مركزا بشكل أساسي على واقع الصلب.

وهكذا، لا يبقى شيء من يسوع الكنسي – الدوغماتي من صورته النيقيو – قسطنطنية ومن يسوع العهد الجديد. ومن الواضح أن اللاهوتي لا يقدم على هذه العملية المؤلمة بدافع من الحماس للصدق بل لمجرد أن "الإيمان بالقيامة" يمتنع أكثر وأكثر عن العمل بإقناع ولو بدرجة من الدرجات.

كان يمكن كما يفكر كيونغ، صرف النظر عن المعجزات وترميم سيرة يسوع التاريخية البشرية. لقد بذل الكثير جدا من هذه المحاولات، ولكنها كانت فاشلة جميعا، لأن "كتابة سيرة يسوع من الناصرة أمر مستحيل" (ص١٤٢) ولاسيما بسبب شح المصادر. إذ لا يوجد شيء غير الأناجيل، وهي مصدر فقير للغاية. ويتحدث كيونغ باحترام كبير عن الإنجيليين باعتبارهم "لاهوتيين أصلا،" فقد كان لكل واحد منهم مفهوم ولم يكن ينوي أبدا أن يخلف

لنا "محاضر اختزالية" ولكن هنا أيضا يكمن مصدر عدم الثقة فى أخبارهم. إن الإنجيليين شهود "عاملون" كانوا " يحاولون من البداية إلى النهاية تصوير يسوع فى ضوء قيامته باعتباره المنقذ والمسيح والرب وابن الإله" (ص١٤٥). وعلى أساس معطياتهم لا يستحيل بناء سيرة يسوع فحسب، بل وبناء "صورته المكتملة إجمالا. التقليدية أو المضاربة أو الليبرالية أو الأسخاتولوجية – الثابتة " (ص ١٥١).

وإذ لا يستطيع اللاهوتى الوصول إلى عنب الصدق المنشود، يعلن أنه حصرم. "إن الترميم وإعادة البناء (للحقيقة التاريخية – أ.ك.) كلمات غير صحيحة. علم تدوين التاريخ الإيجابى بحاجة إلى إقرار الحقائق" (ص١٥١)، أما الإيمان المسيحى فبحاجة إلى .... الإيمان.

عوضا عن الخاتمة

قد يعرب بعض القراء عن امتعاضهم لأنهم لم يتلقوا في هذا الكتاب أجوبة واضحة وحاسمة عن الكثير من الأسئلة المرتبطة بحياة المسيح. سيقولون، أردنا أن نستوضح ما الذى يعرفه التاريخ عن يسوع المسيح ؟ واتضح أنه من حيث الجوهر لا يعرف عنه شيئا أو لا يعرف شيئا تقريبا. فكيف يمكن لهذا أن يحدث ؟ فثمة أدبيات لا تعد ولا تحصى بلغات العالم كلها مكرسة لهذه الشخصية !...

نعم، ولكنها مجرد أدبيات عن كيفية تصور الناس ليسوع المسيح في مختلف الأزمنة، ولكن لا في الأزمنة التي يفترض أنه وجد فيها، بل بعد ذلك. أما في خصوص المواد التاريخية المعاصرة لزمن المسيح فكلما كانت أغنى كان ذلك أفضل. قد يبدو في هذا شيء من السخرية. أي غنى هذا....

الحقيقة "الرديئة" أفضل من الكذب "الجيد". لقد استخدمنا الأقواس هنا، لأنه لا يوجد في الواقع أي شيء ردىء في الاعتراف بالحقيقة العلمية، كما لا يوجد أي شيء جيد في إنكارها حتى وإن كانت لا تروق للبعض.

ونأمل في أن القارئ لن يستطيع أن يلومنا على شيء واحد. على الموقف المتحامل من شخصية المسيح والحل المتحيز للقضايا المرتبطة بها.

الهوامش

(١) A. Schweitzer. Geschichte der leben – jesu – Forschung. Muchen udn Hamburt, ١٩٦٦. B. ٢, S. ٦٢٠.

(٢) Ibid., S. ٦٢١.

(٣) Ibid., S. ٦٢٠.

(٤) E. Barnikol. Das Leben Jesu der Heils – geschichte. Halle (Salle), ١٩٥٣, S. ٣٢٤ – ٣٣٦.

(٥) " Der Spiegel", ١٩٦٦, Nr. ١٥, S. ٨٩.

(٦) Ibid., S., ٨٦; "Der Spiegel", ١٩٦٦, Nr. ١٤ , S. ١٠٩.

(٧) الاستشهاد من :

A. Drews. Die Leugnung der Geschichtlich – keit Jesu in Vergangenheit und Gegenwart. Karlsruhe, ١٩٢٦, S. ١٦٨.

(٨) Ibid., S. ٨٥

(٩) راجع:

(١٠)Die Religion in Geschichtre und Gegenwart. Tubingen, ١٩٥٩, Bd. ٣, S. ٦٢٣.

(١١)P. Althaus. Der gegenwartige Stand der frage nach dem historischen jesus. Munchen, ١٩٦٠. S. ٥–٧.

(١٢)" Der Spiegel", ١٩٦٦, Nr. ١٦ , S. ٨٨.

(١٣)" Der Spiegel", ١٩٦٦, Nr. ١٤ , S. ١٠١.

(١٤)E. Barnikol, op. cit., s. ١٨٩.

(١٥)" Der spiegel", ١٩٦٦, Nr. ٧., s. ٨٩.

(١٦) الاستشهاد من :

" Der Spiegel " , Nr. ١٦, S. ٧٨.

(١٧) P. althaus, op. cit., s. ١٢–١٣.

(١٨)Ibid., S. ١٢.

(١٩)Ibid., S. ١٥.

(٢٠)Ibid., s. ١٧.

(٢١)Ibid., S. ١٧–١٨.

(٢٢)Ibid., S. ١٨.

(٢٣)" Der Spiegel". ١٩٦٦, Nr. ١٤, s.٩٢.

(٢٤)" Der Spiegel", Nr. ١٦, S. ٨٤.

(٢٥)A. Drews, op. cit., S. ٢١٩.

(٢٦)" Herder korrespondenz", ١٩٦٧, Nr. ٨, s. ٣١٧.

(٢٧)Ibidem.

(٢٨) نعرض كتاب

K. Kung. Christ sein. Munchen, ١٩٧٤ , S. ١١٣.

ونستشهد به. سنشير لاحقا إلى صفحاته فى المتن.

الفهرس

٢.هل وجد في الواقع

٣ .القضية المسيحية في الاديان اللاهوتية و التاريخ المعاصر

